العـــدد ٣٦٦ السنة الثانية والثلاثون مايو ١٩٨٩

العربي

مجلة ثقافية مصورة
تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

AL - ARABI
Issue No. 366 May 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State Of Kuwait.

عنوان المجلة
العربي
ص. ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون: [illegible]
برقياً: "العربي" الكويت
تلكس: [illegible] - شكر MITR. 46041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة
مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقاً لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولاراً باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولاراً

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٦ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلساً	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا: جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشاً	سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكاً
السودان ٢٥ قرشاً	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات


العربي



الصقر في رولكس
الدقة والاناقة





ساعة رولكس داي - ديت من الذهب الاصفر والاحمر ...

منذ حضارة بلاد ما بين النهرين كانت رياضة الصقور ولا تزال حتى يومنا هذا، رياضة النبلاء.

الصقر طائر انيق، انيق وسريع الحركة. يروّض ويهيأ خصيصاً فن الصيد. هذا الترويض والتهيئة يتمّ على يدي اختصاصيين لمدة طويلة تدوم اكثر من ثلاثين يوماً. العناية نفسها هي التي بها تصنع ساعة رولكس.

حتى اليوم لا تزال رولكس تصنع من قطعة معدن واحدة وتشحذ يدوياً سواء من الذهب الخالص او الفولاذ او الاثنين معاً.

فكل ساعة تمرّ بمجموعة تجارب قاسية قبل ان تعطى شهادة الكرونومتر السويسرية الرسمية.

حافظت رولكس على تعريفها وقيمتها تدوم وتدوم لسنوات وسنوات طويلة جداً.

مجموعة منتجات رولكس رفيعة ومتكاملة لترضي اصحاب الذوق الرفيع

رولكس والصقر رمز الدقة والاناقة.

ROLEX

رولكس

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصورة :

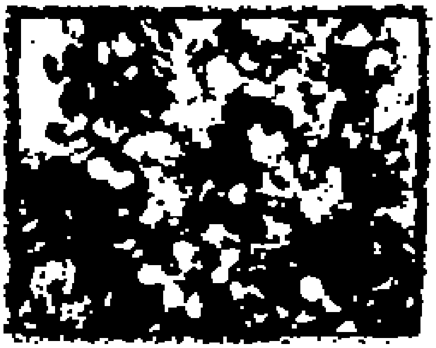
طب وعلوم :



● سنغافورة جزيرة العجائب والمتناقضات ص ١٣٢

أدب وفنون :

اجتماع :



● « الصوبة » : هل تحول صحارانا الى جنات خضراء ؟
ص ١٥٦



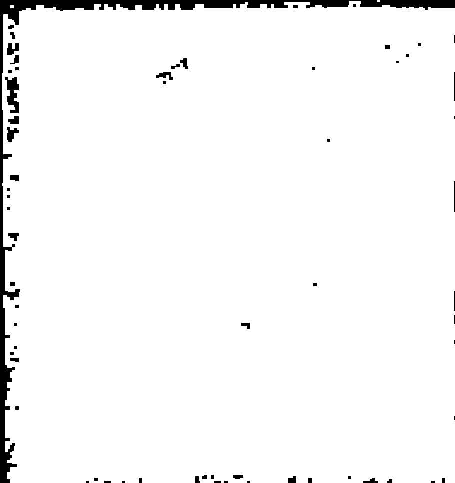
وجها لوجه :
محمد سعيد الصكار وهاني مظهر
ص ٩٧

منتدى العربي :

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

[illegible]

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع

معادلة صعبة !

من الأمور التي نقف عندها كثيرا في اجتماعاتنا الدورية في أسرة « تحرير « العربي » هو الكم الممتاز والمتميز من النتاج الثقافي ، المتنوع في معالجاته لكثير من قضايا حياتنا العربية الذي يصلنا متدفقا من إخوة وأخوات تؤرقهم هموم الواقع العربي ، فيكتبون « للعربي » ، من أجل أن يأخذ نتاجهم طريقه للنشر .

إلا أن عدد صفحات المجلة محدود ، وهي مطبوعة شهرية ، لا يمكنها أن تستوعب كل ما يصلها ، وتنقله إلى القراء في وقت قصير .

لذلك فإن نشر بعض المواد يتأخر زمنياً ، خاصة أننا نضع تصورا تخطيطيا لأعدادنا القادمة ، يتراوح بين أربعة أعداد وأحيانا ستة .

وما نريد أن يشاركنا فيه الأصدقاء القراء ، ويطلعون عليه أيضا ، هو توليف المواد وإعدادها ، كي تصل إلى القارىء بشكل ممتع مفيد .

وهذا الأمر يأخذ وقتا وجهدا من هيئة تحرير المجلة ، كي تصل الموضوعات إلى صيغة وشكل متناسبين ويمكن تشبيه الموضوعات الكثيرة بالبشر الكثيرين المتوجهين للخروج من باب واحد نحو مكان واحد . والباب - مع مزيد الأسف - لا يمكن أن يستوعب إلا العدد الذي يستطيع استيعابه فقط !

والسؤال الذي يؤرقنا دائما : كيف يمكننا أن نرضي الكتاب الكثر ، والقراء الأكثر ؟ تلك معادلة تواجهنا دائما ، ونحن نعد لإصدار أي عدد من أعداد المجلة . لذا فإننا نأمل من إخواننا الكتاب التحلي بالصبر ، حين يتأخر بعض نتاجهم في النشر . ولعل العدد الذي بين يدي القارىء يعبر عما نريد أن نقوله بوضوح

فقد أردنا أن نحتفي بطريقة خاصة بالروائي العربي الكبير نجيب محفوظ ، وبدأنا منذ إعلان فوزه بجائزة نوبل لعام ١٩٨٨ نعد موضوعاتنا ، ، كي نقدم إسهاما ثقافيا مميزا ، يليق بالكاتب وبالمطبوعة ، ولقد أخذ ذلك بعض الوقت منا ، لكننا عوضنا هذا الوقت بتقديم عمل مدروس ومبتكر ، يتابع رحلة هذا الأديب المبدع من قلب حي الجمالية وشوارعه وحاراته وعالمه الذي تأثر به ، وصولا إلى نيله الجائزة

إلى جانب ذلك نقدم صفحة من دفتر ذكريات الدكتور عبد العزيز المقالح من القطر اليمني ، « ومن دفتر الذكريات » هو أحد الأبواب الجديدة التي بدأنا بنشرها منذ مطلع هذا العام ، وقد كتب لنا فيه نخبة من كتاب الوطن العربي ، وأصبحت لدينا مجموعة كبيرة من كتاباتهم في هذا المجال ، وكتب سليمان الفهد عن ذكريات العيد في الكويت القديمة ، وملاعب صباها ، والكاتب يعرفه قراء « العربي » ، فقد أطل عليهم منذ سنوات ، وهو أحد الكتاب الساخرين المعاصرين في الوطن العربي .

وفي الاستطلاعات نتابع رحلة الذهب ، وكيفية صناعته في الهند ، وصولا إلى سوقه في الكويت ، وهذه الرحلة السهلة الآن كانت من قبل ذات مخاطر ، تحمل طابع المغامرة ، فتحولت الآن إلى تجارة وحالة اجتماعية أيضا .

ونذهب في استطلاعنا الثاني إلى سنغافورة ، المدينة المتطورة ، حيث تعد من أبهى المدن وأجملها ، فكيف تأتى لها ذلك ؟ .

وفي العدد مواد عديدة متنوعة غنية ، ثرية بالمعلومات عن كثير من أمور حياتنا الثقافية والعلمية والطبية والاجتماعية .

نأمل أن نحقق من خلالها معادلة المتعة والفائدة لك عزيزي القارىء .

« المحرر »

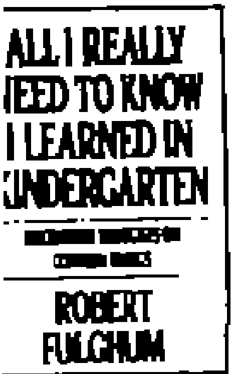
حديث الشهر

بقلم الدكتور
محمد الرميحي

كل ما أحتاج إلى معرفته تعلمته وأنا في روضة الأطفال..!

نظرت إلى مجموعة الكتب الجديدة التي أحضرتها ، وسألت نفسي : هل لدي الوقت والاستعداد أن أقرأ كل هذه الكتب ؟ لقد اخترتها بنفسي في الثقافة والاجتماع والسياسة والأدب والتاريخ ، وعناوينها محببة إلي ، وأريد أن أقرأها ولكن كيف ؟ فالوقت قصير والاختيار صعب . ثم التقطت من بينها كتاباً عنوانه يكاد يحل مشكلتي ، وأنا أيضا شغوف بمثل هذه الكتب التي تشير عناوينها إلى موضوعات غير مألوفة ، عنوان الكتاب مثير للخيال ، فهو يقول : « كل ما أحتاج لمعرفته تعلمته وأنا في روضة الأطفال » .

وأنا أقلب الكتاب قلت لنفسي : إن أقنعني الكاتب بهذه الفكرة العامة ، فأنا قد اصطدت عصفورين بحجر واحد ، الأول أنني سأعرف « كيف تعلمت كل ما أريد وأنا في روضة الأطفال » فلربما كانت هناك دروس الخبرة المختزنة ولم أكتشفها بعد ، والثاني سيريحني نفسياً من جانب اجتماعي ، فقد صادفت في حياتي بشراً في أماكن رفيعة كبيرة ، وتساءلت بعد ذلك - بيني وبين نفسي - من خلال ما سمعته منهم أو شاهدته



من تصرفاتهم : ترى هل حصل هذا الشخص على شيء من العلم والثقافة يؤهله كي يصلح في هذا المقام ؟

لقد كان لدي شبه اقتناع ـ من واقع الخبرة ـ أن وصول الإنسان إلى مكان مرموق أو ثروة أو جاه لا يقتضي بالضرورة ـ كما يعتقد بعض السذج لأول وهلة ـ أن يكون ذا معرفة ، فالمعرفة ليست ضرورية لكل ذلك ، فقد تستطيع أن تحصل على الحد الأدنى منها ولكنك تحصل على الباقي صدفة ، سياسة ، حظا ، بل وحتى « فهلوة » !!

إلا أن الأمر لم يكن مستقراً عندي حول : ما هو الحد الأدنى من المعرفة ؟؟

وجاءني الجواب أو خلته جاءني عندما وقع في يدي هذا الكتاب . إنه ما يتعلمه الإنسان في روضة الأطفال !!

□□□

ومادام هذا الكتاب سوف يحل لي قضيتين أرقتاني ، فلا بأس من قراءته كاملا ، ولقد كان الكتاب من الكتب النادرة التي تسحر الإنسان ، فيقرؤها من الغلاف إلى الغلاف ، ثم يشعر بعد الانتهاء من قراءتها أنها فتحت آفاقاً جديدة ، وأضافت إلى معلوماته الجديد ، فقررت أن أشرك أصدقائي القراء معي في الفائدة والمتعة

المؤلف روبرت فولجهم ، حاول أن يلخص في هذا الكتاب خبرة حياته ويصوغها في كلمات وجمل أصبحت عنده أشبه ما يكون بالعقيدة . جميع محتويات الكتاب تدور على مدار السنين ، وهي عبارة عن مجموعة من الملاحظات ، كتبت على طريقة قصص وانطباعات قصيرة ، يبدؤها برواية الأسباب التي جعلته يؤلف هذا الكتاب والتي استمد عنوانه منها يقول :

لقد جاءني الالهام بانجاز مذكراتي يوم كنت أملأ خزان وقود سيارتي القديمة المتهالكة بأحسن أنواع البنزين ، ولكن يبدو أن الوقود كان من القوة والجودة ، بحيث ضاقت به سيارتي ولم تتحمله !! فبدأت تنفث الدخان الأسود من مؤخرتها حيناً ، وتفرقع عندما أتوقف عند مفترق الطرق حيناً آخر ، وتتجشأ كلما صادفني منحدر في الطريق ، ففهمت من سلوك سيارتي أشياء كثيرة ، وتعلمت منها حكمة من حكم الحياة . فالإنسان حاله حال سيارتي ، إذا أخذ من العلم أحسنه وأرفعه ، ومن المعلومات أصدقها وأوثقها ، سوف يضيق ذرعاً بما حصل عليه ، ولا يلبث أن يلفظه وينساه ، ولا يبقى في ذاكرته منه إلا ما يحتاجه فعلا في حياته اليومية ، والحياة ليست معقدة

إلى الحد الذي يتصوره البعض ، وما يحتاجه الإنسان ليحيا حياة سعيدة يعرفه منذ كان طفلا !!

ثم يعدد الكاتب مجموعة من الأوامر والنواهي التي يتعلمها الطفل وهو صغير ، من بينها : شارك الآخرين في كل شيء ، تصرف حسب الأصول ، لا تعتد على الناس ، أعد ما تأخذه إلى المكان الذي أخذته منه بعد الانتهاء من استعماله ، نظف مائدة طعامك بنفسك ، لا تأخذ ما ليس لك ، إن آذيت أحداً اعتذر له ، اغسل يديك قبل الطعام ، العب دون إفراط كل يوم . . . إلى آخر هذه النصائح العامة المتعلقة بالتعامل مع الآخرين والاعتناء بالنفس والتعامل في الشارع والمدرسة .

يقول المؤلف إنه يعتقد أن كل شيء نحتاجه موجود وراء هذه الكلمات أو النصائح ، وهي قواعد ذهبية ، تحمل في طياتها الحب ، والمحافظة على الصحة ، ومجموعة أخرى من المبادىء . وبدون هذه القواعد لا يستطيع أحد أن يلم بالأمور السياسية ، أو يتعلم قواعد المساواة ، أو يتصرف بحكمة وتعقل .

ثم ينقل الكاتب في مجموعة من الفصول القصيرة بعض تجارب الحياة ، وكل قصة أو فصل قصير يعلمنا حكمة بالغة . ومن الصعب أن أنقل للقارىء مجموع هذه الفصول التي تبلغ أربعين فصلاً ، ولكني سأختار بعضها ، وأرجو أن يعذرني القارىء ويتسامح معي في هذا الاختيار . دعونا نقرأ :

لا تصرخ في وجوه الناس .. فالصراخ يكسر القلب ويميت الروح



في جزائر سليمان في جنوب المحيط الهادي ، اعتاد القرويون على استخدام طريقة غريبة ، إذا أرادوا قطع شجرة ضخمة لا يستطيعون قطعها بالوسائل المتوافرة لديهم . . فيصعد الحطابون إلى قمة الشجرة ثم يصرخون جميعاً دفعة واحدة ، وبأعلى أصواتهم حتى يتعبوا . ويعيدون الكرة في كل يوم ، فإذا حل اليوم الثلاثون ماتت الشجرة وسقطت . . !

فهم يعتقدون أن الصّراخ يقتل روح الشجرة ، وقد جرّبوا هذه الطريقة عدة مرات . . وفي كل مرّة كانت التجربة تنجح .

مساكين أولئك الأبرياء السُّذّج ، إنهم يتبعون عادات توارثوها عن أجدادهم ، يصرخون على الأشجار حتى يميتوها بدل أن يستخدموا الوسائل الحديثة والتقنية المتقدمة لقصّ الشجر .

أما نحن ، فكثيراً ما نمارس عادة الصراخ للتنفيس عن غضبنا ، أو

للتعبير عن تبرّمنا وعدم رضانا ، فنحن نصرخ على الهاتف إذا لم نحصل على الرقم الذي نريده ، ونصرخ على جزّازة العُشب إذا لم تعمل بشكل يُرضينا ، وكثيراً ما نرفع قبضاتنا ونصرخ في وجه أي شيء نصادفه إذا ما حصل لنا مكروه ، وأحياناً نصرخ على زوجاتنا إذا ما تصرفن تصرُّفاً لا يعجبنا .

بعض الناس يصرخون على سياراتهم ، كما سمعت أحدهم يصرخ على سُلّم نقّال ، وبعضنا يصرخ إذا تضايق من ازدحام حركة المرور ، أو لم تعجبه صفّارة حكم المباراة ، أو المبلغ الذي سُجّل على « الفاتورة » أو قائمة حساب البنك . . وأحياناً نصرخ على الآلة إذا لم تؤد عملها على الوجه الأكمل والآلات لا تتأثر بصراخنا ، والأشياء لا تسمعنا ، وحتى لو رفسناها بأرجلنا فلن نستطيع أن نغيّر منها شيئاً ، أو نحسّن أداءها .

نعود إلى سُكان جزائر سليمان ، فصراخهم على الأشجار فيه شيء من الحكمة ، وإن كان لا يؤدي إلى أي نتيجة . .

فالصّراخ على الأحياء من الناس يعمل على قتل أرواحهم . خلاصة القول : « أن ضرب الناس بالحجارة أو بالعصيّ قد يكسّر عظامهم ، ولكن الصُّراخ في وجوههم يكسر قلوبهم ، ويميت أرواحهم » .

الحب الحقيقي لا ينتهي بموت من نحب

قد تكون هذه القصة شخصّية ، وقد يكون فيها من الحب أكثر مما يحتمله القارىء ، ولكنها حقيقية ، يكون بيننا من يحمل الدرجة نفسها من الحب ، ويُسرّ لقراءتها ، وهذا ما دفعني إلى كتابتها ، مع أنها لم تحدث لي ، بل لشخص آخر يدعى تشارلز بوير .

كان تشارلز شاباً رقيق الحاشية ، أنيقاً بشوشاً ، يحب النظر إلى معظم الممثلات اللاتي يظهرن على شاشة السينما ، أو على صفحات المجلات الترويحية ، أما في حياته الحقيقية فكان حُبّه من نوع آخر ، لا يقتصر على النظر ، بل يتغلغل إلى أعماق القلب ، ولم يكن في حياته إلا حب حقيقي واحد ، إنه حبه لزوجته باتريشا ، فلقد كان حب دام الحياة كلها ، دام أربعاً وأربعين سنة ، كانت باتريشا بالنسبة له ليست مجرد زوجة ، بل صديقة وحبيبة ورفيقة حياة . لم يقلّ حبه لها في العام الرابع والأربعين لزواجهما عن حبه لها في السنة الأولى من زواجهما .

وما لبثت باتريشا أن أصيبت بسرطان في الكبد ، وأطلع الطبيب زوجها على حقيقة الأمر ، ولكن تشارلز لم يجد في نفسه الشجاعة لإعلامها بالنبأ ،

فاكتفى بملازمة فراشها ، يبُثُّ في نفسها الأمل ، ويبعث في قلبها البهجة . وظل يلازم فراشها ستة أشهر كاملة ، ولم تفلح ملازمته لها طوال هذه المدة في منع القدر من أن يأخذ مجراه ، فماتت بين ذراعيه ، وما لبث تشارلز أن لحق بها إلى الرفيق الأعلى بعد يومين فقط من وفاتها .

لقد وضع حداً لحياته بيديه ، وترك قصاصة ورق كتب عليها أنه لا يريد أن يستمر في الحياة بدونها ، فحبُّه لها كان هو الحياة بالنسبة له .

هذه ليست قصة سينمائية ، إنها قصة من واقع الحياة ، وحقيقية بكل تفاصيلها .

أنا لا أريد أن أحكم على الطريقة التي عالج بها حزنه على حبيبته ، ولكنني أجد أن من حقي أن أعبِّر عن مقدار تأثري بتلك الطريقة ، والراحة التي شعرت بها عندما علمت بها .

لقد تأثرت حين اكتشفت بأن للحب عمقاً آخر ، لا تستطيع أن تبلغه أفلام هوليود التي تعرض أنواعاً زائفة من الحب ، وشعرت بالراحة حين أدركت أن الرجل والمرأة يمكن أن يُحبَّا بعضهما إلى تلك الدرجة طوال تلك المدة .

إنني لا أعرف كيف كنت سأعالج حزني لو مررت بتلك الظروف نفسها ، وأتمنى أن لا أجد نفسي في مثل هذا الموقف ، ولكن هناك لحظات تمرُّ بي وأنا أمعن النظر في أرجاء غرفتي ، وأسرح بفكري في رتابة ما يجري حولي في حياتي اليومية ، ثم أنظر إلى زوجتي وصديقتي ورفيقة حياتي ، فأدرك لماذا تصرف تشارلز بوير بتلك الطريقة ، وأزداد يقيناً بأن الدرجة التي بلغها حبه لزوجته كانت ممكنة ومعقولة ، وأن حبَّ الرجل لرفيقة حياته لا ينتهي بموتها ، فقد يرافق الحبيب حبيبته إلى الدار الآخرة ، وهو احتمال وارد وأنا متأكد منه .

مازالت الدنيا بخير



بعض الناس يسيئون الظنَّ في كل شخص ، ويقولون بملء أفواههم : « لم يعد هناك أحد يمكن أن نثق به ، فالأطباء دجالون ، والسياسيون انتهازيون ، والتجار لصوص ، إنهم جميعاً يعملون على سلب أموالك ، أليس كذلك ؟ » .

لا ، أيها السادة ، فقد قام رجل يدعى (ستيفن بل) بتجربة لاستكشاف مدى صحة هذا التعميم ، وجعل ميدان الاختبار مدينة

نيويورك ، والفئة التي اختارها لإجراء تجاربه عليها هي سائقو سيارات الأجرة . . !

تظاهر (بل) بأنه أجنبي ، واستخدم لغة انجليزية ركيكة ليوهم السائقين بأنه غريب ، واستخدم عشرات من سيارات الأجرة ، تنقل بها في مختلف شوارع نيويورك وأحيائها ليعرف كم من هؤلاء من يحاول النصب عليه ويأخذ أجراً أكثر مما يستحق ، وكان أصدقاؤه قد تنبأوا سلفاً بأن معظم الذين سوف يتعامل معهم سوف يغشّونه ويتقاضون منه أجراً مضاعفاً .

ولكن المفاجأة حدثت ، فسائق واحد ، منْ بين سبعة وثلاثين سائقاً تعامل معهم ، احتال عليه ، وأخذ منه أكثر مما يستحق ، أما الباقون فقد أخذوه إلى المكان الذي حدّده مباشرة دون لفّ أو دوران ، وتقاضوا أجورهم الصحيحة . العديد من سائقي (سيارات الأجرة) كانوا يرفضون تلبية طلبه عندما يكون المكان الذي يحدده لهم قريباً من مكان الركوب ، حتى أن بعضهم كانوا ينزلون من سياراتهم ويشيرون له إلى المكان المقصود . والغريب أن كثيراً منهم حذّروه من اللصوص والمحتالين الذين تمتلىء بهم شوارع نيويورك .

قد يقول البعض إن الصحف تزخر بأخبار اللصوصية والسّلب والنهب والاحتيال ، وكثيراً ما نقرأ خبراً عن رجل شرطة اقترف جرائم يعاقب عليها القانون ، كالكذب على الناس والسرقة ، أو عن طبيب يجني أرباحاً هائلة ، دون أن يقوم بعمل جاد وحاسم يستحق عليه ما يتقاضاه من أجر ، أو عن سياسي يخوض مغامرة من أجل مكسب آني . ولكن هؤلاء ينسون أن من يقوم بمثل هذه الأعمال من شواذ المجتمع ، ولولا أنهم شواذ لما كتبت عنهم الصُحف ، والشاذ لا حكم له ، فكل الأدلة تشير إلى أن الغالبية العظمى من الناس هم موضع ثقة ، وهناك إحصائية (لجالوب) تشير إلى أن ٧٠٪ من الناس يعتقدون أن غالبية الناس أمناء وصادقون ويمكن الثقة بهم ، فالدُّنيا مازالت بخير ، والعالم يحفل بالأناس الطيبين ، ومن يقول غير ذلك مخطىء ، وعليه أن يغير رأيه .

ليس نوع العمل الذي نقوم به هو المهم ، بل إتقانه

بعض الناس يقومون بأعمال شاقة ، حتى وهم داخل بيوتهم يشغلون أنفسهم بتنظيف مزاريب تصريف مياه الأمطار ، أو حتى أنابيب المجاري ، فإذا انتهوا من ذلك ولم يجدوا عملاً يقومون به انصرفوا إلى تنظيم أوقاتهم ، فكل عمل يقومون به يخضع لعملية ترتيب وتنسيق ، ويحتفظون بملف لكل

شيء ، حتى يستطيعوا أن يجدوا مطلبهم بسهولة ويسر .

وأنت تلمس النظام في بيوتهم حيثما توجهت ، بدءاً بحوض الاستحمام ومروراً بالمرحاض ، وانتهاءً بصناديق سياراتهم . هؤلاء الناس موجودون في كل مكان ، وبعضهم يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع .

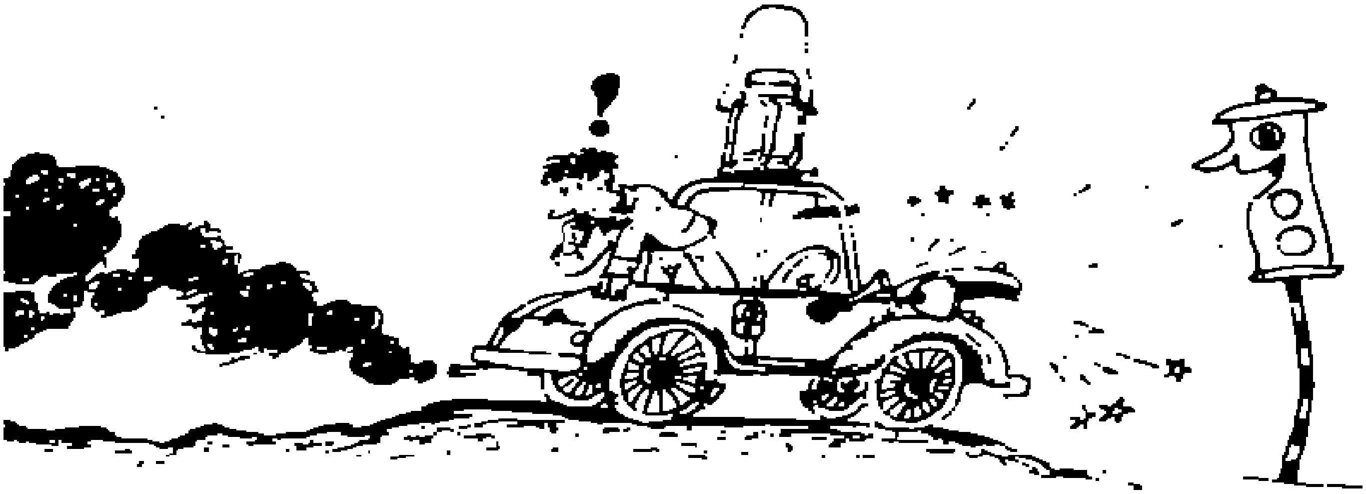
يقول الكاتب إنه لا ينتمي إلى هذا الصنف من الناس ، فإذا اضطر لاستعمال المقلاة مثلاً تركها متسخة حتى يأتي من ينظفها ، وإذا سكب في كوبه شيئاً من الحليب فغالباً ما يسكب منه بعضه حول الكوب ، فالأعمال الكثيرة التي لابد من إنجازها تلهيه عن الاهتمام بهذه الأمور ، غير أن له هواية لا يمل منها أبداً ، فإذاما فرغ إلى نفسه انصرف إلى عصاه ، وراح يصقلها ويلمعها ، حتى تصبح كالمرآة . وهنا قد يتساءل البعض : أليس هناك عمل آخر مفيد يعمله هذا الرجل بدل أن يقضي الساعات الطويلة في صقل عصاه ؟

وينبري للإجابة عن تساؤلهم قائلا : إن العمل لا ينتهي أبداً ، ولو شغلنا ساعات ليلنا ونهارنا في محاولة إنجازه ، فكلما أنجزت شيئاً اكتشفت عملاً جديداً يتطلب الإنجاز . إننا نعيش في حالة سباق دائم مع الزمن ، فلماذا لا نعطي أنفسنا راحة ، نمارس خلالها عملاً نحبه ، خاصة عندما نكون من الأشخاص الذين لا يتمتعون بقضاء أوقاتهم في تنظيم الأشياء ووضع كل حاجة في مكانها الصحيح ؟

وقت ممارسة الهواية بالنسبة له يعد وقتاً مقدساً ، لا يسمح لأحد أن يتدخل فيه ، ولا للأعمال الأخرى أن تلهيه عنه ، وعند انصرافه له لا يعير اهتماماً لاجتماعات اللجان ، ولا لتسديد قوائم حساب متأخرة ، ولا للمراسلات ، ولا للرد على مكالمات الهاتف . كل ما يهتم به عند ممارسة هوايته أن يكون المكان الذي يجلس فيه هادئاً ، وأن يكون هناك من يقوم بخدمته وتلبية طلباته ، وإعداد طعام جيد له ، وهو عادة يمضي أسبوعاً كاملاً في ممارسة هذه الهواية .

يقول الكاتب إنه ليس الوحيد الذي يمارس هذه الهواية ، فهناك العديد من أمثاله . ولذا تشكلت لجنة للتحكيم تقوم بالمرور على أصحاب هذه الهواية ، وتتفحص أعمالهم ، فإذا أعجبهم عمل أحد ملمعي العصي ، وتأكدوا أنه أنجزه بإتقان تام ، قاموا بنشر صورة الرجل في الصحف ، وظهر على شاشات التلفزيون ، واكتسب شهرة في طول البلاد وعرضها ، ونال احترام أسرته وجيرانه ومعارفه ، فإذا ما حصل على كل ذلك نتيجة تلميع عصا ، فما الداعي لأن يقوم بعد ذلك بتنظيف ميازيب الأمطار ، أو تسليك





المجاري ، أو تنظيم الملفات والأدراج ، أو حتى الاهتمام بترتيب صندوق الأمتعة في سيارته ؟ !

لقد نال الشهرة التي يريدها لمجرد قيامه بتلميع عصا ، وعليه أن يزهو بذلك ويفخر ، لأنه تفوق على غيره في عمل واحد على الأقل . يقول الكاتب : ليتني أكون واحداً من هؤلاء المتفوقين ، فالمهم ليس نوع العمل الذي تقوم به ، بل درجة إتقانه .

كلنا من التراب . وإليه نعود

لي جار ، امتهن تنظيف الأرض من أوراق الشجر المتساقطة وتسويتها في الصيف ، وجرف الثلوج المتراكمة في الشتاء . وهو يحب عمله ، ويقبل عليه بهمة ونشاط . وأنا أرى في عمله هذا تدخلاً في عمل الطبيعة ، فأوراق الأشجار تتساقط في الصيف منذ آلاف السنين ، وقبل أن تخترع أدوات تمشيط الأرض وتنظيفها وتسويتها ، والأوراق تمكث حيث هي ، حتى تحولها الطبيعة إلى تراب جديد يزيد خصوبة الأرض ، ويعوضها عما يسلبه الإنسان من ترابها ، أما الثلج الذي يقوم هذا الرجل بجرفه فهو الوسيلة التي يوحي بها الله للإنسان أن يتمهل في عمله ، ويخلد إلى شيء من الراحة في فراشه الدافىء يوماً أو بعض يوم ، ثم إن الثلج الذي ينهك نفسه في جرفه لا يلبث أن يذوب من تلقاء نفسه ، ويمتزج بأوراق الشجر ، ويتحول المزيج إلى تراب جديد .

إن لي فلسفتي في الحياة ، وله فلسفته . فحديقته أنظف من حديقتي ، وهو لا يتعثر حين يشق طريقه في الصباح نحو سيارته كما أفعل أنا ، كما أنه

رجل طيب ، بغض النظر عن نوع العمل الذي يقوم به ، إلا أن حديقتي تبدو كالسجادة الشرقية الزاهية الألوان ، بعكس حديقته الحالية من كل أنواع الزهور . وأنا أقوم بجمع الثلج المتساقط برفق وأضعه في زجاجات أحكم إغلاقها ، لاستخدامها في إعداد عصير البرتقال المجفف في شهر يوليو من العام التالي ، كما أقوم بتسجيل صوت تساقط الثلوج ، وأستخدم أشرطة التسجيل هذه في حزم هدايا عيد الميلاد .

أهديته مرة زجاجة من ماء ثلج الشتاء المعتق في أحد أعياد الميلاد ، وحرصت على لفها بشريط تسجيل سجلت عليه صوت تساقط الثلج ، فأهداني مجرفة لتمشيط الأرض . كل منا يغني على ليلاه ، ويعطي جاره درساً في فلسفته في الحياة . أنا أعتقد أن جاري لا فلسفة له ، وأنني بطريقتي هذه أحاول هدايته . وهو يعتقد أن لدي من الفلسفة ما يفوق حاجتي ، ويعمل على الحد منها وإنقاصها .

ولكن ما الذي سوف يحدث في النهاية ؟ سوف أكون أنا الرابح حتماً لسبب بسيط ، وهو أننا جميعاً ـ أنا وهو وقارىء هذه السطور ـ سوف يحل بنا نفس المصير الذي تلاقيه الأوراق المتساقطة من الأشجار والثلج المتساقط من السماء ، سواء جرفناها أو أبقيناها حيث هي . ستتحول جميعاً إلى تراب . .

إحصائيات تظهر عجائب الكون

كل إنسان عاش في هذا الكون ترك أثراً فيه وحمل معه أثراً منه

الاحصائيات ليست شيئاً جديداً على العالم ، فهناك إحصائية في المتحف البريطاني ، محفورة على لوحة من الصلصال ، يرجع تاريخها إلى عام (٣٨٠٠ ق . م) عن البابليين ، احتوت على معلومات عن عدد السكان ، كان يستخدمها الحكام لتقدير دخلهم من الضرائب التي تفرض على الشعب . وهناك احصائيات أخرى عن المصريين القدماء والرومان ، وكذلك عن وليام الفاتح تعود إلى عام ١٠٨٥ م .

أول إحصائية معروفة في أمريكا تعود إلى عام ١٧٩٠م . والاحصائيات تطلعنا على أشياء غريبة وملفتة للانتظار ، وتجعلنا نستقرىء ما سوف يحدث في المستقبل . ولنأخذ واحدة من هذه الاحصائيات . فلو أن سكان الأرض استمروا يتزايدون بالنسبة الحالية نفسها ، فسوف يصبح وزن الكتلة البشرية التي تعيش على سطح الأرض معادلاً لوزن الكرة الأرضية نفسها في عام ٣٥٣٠م ، وسوف يصبح وزن الكتلة البشرية في عام ٦٨٢٦ معادلاً لوزن

الكون المعروف . إنها حقائق تجعل الإنسان يجفل رعباً .

هناك حقائق أخرى نستطيع استقراءها من الإحصائيات . فمجموع سكان الكرة الأرضية كان في أيام يوليوس قيصر لا يتعدى (١٥٠) مليون نسمة ، أما اليوم فعدد سكان الأرض يزيد في كل عامين (١٥٠) مليون نسمة !!

ولنأخذ حقيقة أخرى مستخلصة من الإحصائيات أيضاً ، ففي الوقت الذي سوف تقضيه في قراءة هذا الكلام سوف يموت من سكان الأرض (٢٠٠) شخص وسوف يولد (٤٨٠) مولوداً جديداً . كل هذا سوف يحدث في دقيقتين اثنتين فقط . . !

يقول علماء الإحصاء : إنه ولد حتى الآن (٦٠) بليون نسمة . . فكم سوف يبلغ هذا العدد في المستقبل ؟؟

لابد أنه سوف يكون رقماً فلكياً . أما أغرب الاحصائيات فتقول إن كل واحد من هذه البلايين التي سكنت سطح الأرض كان مختلفاً عن كل المخلوقات الأخرى ، وكل من سيخلق من الآن وحتى قيام الساعة سوف يختلف عن غيره ، ولن تجد اثنين متشابهين تماماً أبداً ، كما أن أوجه الشبه بين أنواع الجنس البشري عموماً أكثر منها بينه وبين المخلوقات الأخرى .

وأخيراً وليس آخراً ، طلع علينا أحد العلماء المختصين في أبحاث الجرائم (أميل لوكارد) قبل خمسين عاماً بمبدأ أو نظرية علمية تقول إن أي شخص يمر من أي مكان لابد أن يترك أثراً في المكان الذي يمر به ، وأنه يحمل معه أثرا من ذلك المكان . (نظرية فوليهم في تبادل الآثار) . وبناء على هذه النظرية فإن كل إنسان عاش فوق هذا الكون قد ترك أثراً فيه ، وهذا الشيء لا يمكن رؤيته أو سماعه أو تعداده ، وهو شيء تعجز الإحصائيات عن جمعه ، ولكن لا قيمة لأي إحصائية لا تأخذ هذه الحقيقة في الحسبان .

□□□

هذه بعض القصص والطرائف التي أراد الكاتب أن يخرج القارىء منها بحكمة بالغة ، وقد يتفق بعضنا ـ أو يختلف ـ حول عمق هذا النوع من الكتب وأهميته ، ولكن الكتاب ـ والمؤلف ـ يريد في إطار التقدم التقني الماثل في حضارة الغرب ، التي ينبهر بها بعضنا ، يريد أن يقول : إن العلاقات الإنسانية والتفكير بالإنسان كإنسان هو الأهم من كل الزخرف المحيط ، فإن افتقد الإنسان إنسانيته لا تستطيع كل التقنية المحيطة به أن تعوضه عنها .

محمد الرميحي





(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

صفحة من الخمسينيات

بقلم : الدكتور عبد العزيز المقالح

للذكريات - على امتداد العمر - أدغالها ومتاهاتها الموحشة كتلك التي لا تتحرك ولا تسطع فيها الأقمار ، ولها - على امتداد العمر أيضا - فضاءاتها المفتوحة المقدسة التي تعدو في شوارع النفس بأقصى ما تستطيع من سرعة ، فأي صفحة منها أدعو ؟ وعند أية فترة من العمر أتوقف ؟ وما الذي يقصد إليه « العربي » من وراء دعوته الكريمة المحرجة ؟ ثم لماذا لا تموت الذكريات أو تجف كي تحل ذكريات الحلم وحلاي الجسد ؟ ، ولماذا كل شيء منقوش بل محفور على خريطة الذاكرة ومسجل في تلافيفها النوعية بالصوت والصورة ، بالألوان السوداء والبيضاء والحمراء والخضراء ، وبكل الألوان المألوفة للعين وغير المألوفة ، أتراني منها والكبر ؟

ولأن اسم (العربي) يذكرني بالعرب وبالعروبة ، ويذكرني بفترة ميلاده الذي جاء متزامنا مع أخصب سنوات الأمة التي حاولت أن يكون واحدا من منابرها المضيئة ، فإنني أرغب أن أعود بصفحة ذكرياتي إلى تلك المرحلة ، بل إلى نفس العام ١٩٥٨ ، وهو في تقديري الخاص أهم الأعوام في تاريخ العرب الحديث . في هذا العام قامت الوحدة بين مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة) ، وفيه قامت ثورة ١٤ تموز في العراق ، وفيه دخلت اليمن مكرمة ما سمي باتحاد الدول العربية ، الذي ضم مصر وسوريا واليمن ، وفتح - كما سنرى - نافذة صغيرة للنور في جدار السجن الذي كان اليمنيون يسمونه وطنا . وصفحة الذكريات هذه تقع في الشهر الأخير من ذلك العام ، وبالتحديد في السابع

عشر من ديسمبر عام ١٩٥٨ . وهي عن أول يوم لي في بور سعيد . وإذا كان الشاعر اليوناني الاسكندراني « قسطنطين كافافي » قد شغل نفسه في قصيدته الشهيرة « إيثاكا » في الحديث عن الحنين الى « إيثاكا » وفي وصف الطريق إليها فإن الحنين الى مصر قد كان بالنسبة لي هو الطريق الى بورسعيد . وقد بدأ ذلك الحنين معي منذ الطفولة الباكرة . وتكونت ملامحه الأولى عبر حصص المدرسة الابتدائية . مع القراءة الرشيدة . ومع أقاصيص كامل كيلاني . ثم ازداد مع دخول أول جهاز مذياع الى منزل الأسرة في منتصف الخمسينيات بأصوات عبد الوهاب وأم كلثوم وحليم وغيرهم . وارتفعت حمى الحنين مع الاقتراب من طه حسين والرافعي والعقاد ومندور وأحمد أمين وتوفيق الحكيم .

وفي عام ١٩٥٦ اختزل العرب - وأنا واحد منهم - حبهم لمصر من خلال الاعجاب ببورسعيد التي أصبحت اسما عربيا ارتبط منذ ذلك الحين بأسماء المدن التي صمدت في وجه العدوان والفاشية كلينينغراد وباريس ومدريد . ولم يأت عام ١٩٥٨ بمفاجآته القومية والمحلية إلا وكنت قد كونت في وجداني لبورسعيد صورة لا أبهى ولا أجمل ولا أدق منها . صرت أعرف ميادينها ميدانا ميدانا ، وأحصي شوارعها . شارعا شارعا . وأحفظ عن ظهر قلب كل الشعر الذي قيل فيها ، وكل الأغاني التي تحدثت عنها . لم يكن ممكنا حتى ذلك الحين من زيارة بورسعيد فمثلث سبب وحيد تختزله العبارة الشعبية التي تتردد كثيرا في أرجاء الوطن العربي وهي (العين بصيرة واليد قصيرة) !!

وفجأة خرج الزمن العربي من دورته الرتيبة الراكدة ، وحدثت المعجزة . فقد قامت في فبراير ١٩٥٨ أول وحدة بين قطرين عربيين هما مصر وسوريا . وسارع - في اليمن - نظام الإمامة المتخلف العتيق الى التشبث بقطار الوحدة انطلاقا من القاعدة الإمامية التي حددها شاعر اليمن الكبير الأستاذ محمد محمود الزبيري في بيته الشعري الشهير :

يبهرون الدنيا بزورة موسكو
وعليهم غبار دنيا ثمود !

كان جمال عبدالناصر زعيما واقعيا بعيد النظر . فلم يتردد في قبول اليمن في إطار وحدوي فضفاض أطلق عليه (اتحاد الدول العربية) ، وفي ظل ذلك الاتحاد الموهوم المزعوم نشأت أول كلية حربية في اليمن ، وتساقطت عن جدران السجن الكبير بعض الأحجار تاركة وراءها نافذة صغيرة للنور . وعبر تلك النافذة الصغيرة حملتني أشواقي الى بورسعيد . لقد أصبحت بين عشية وضحاها مواطنا في اتحاد الدول العربية . وكانت إذاعة صنعاء يومئذ وهي اذاعة ناشئة وناطقة باسم « المملكة المتوكلية » أو بالأصح باسم إمام هذه المملكة العريقة في التخلف ، كانت هذه الاذاعة تقول عن نفسها « هنا اذاعة الدول العربية المتحدة » . وفي ظل هذا التقارب المؤقت جرت أول مسابقة أدبية وعلمية من نوعها في القراءة الصيفية الحرة بين شباب دول الاتحاد : مصر ، سوريا ، اليمن ، وكنت حسن الحظ واحداً من ثلاثة من المتسابقين حالفهم الحظ بالفوز في المسابقة وجائزتها رحلة الى مصر مع زيارة لبورسعيد المدينة العربية البطلة الخارجة من جحيم العدوان الثلاثي .

كيف وصلت الى القاهرة ؟ كيف قضيت الليلة الأولى ؟ ماذا قالت الميادين والشوارع ؟ وأسئلة كثيرة أخرى . قد تحتاج الاجابة عنها الى عشرات الصفحات أتركها لاحتمالات المستقبل . وأمضي الى حيث كانت النفوس تهفو الى بورسعيد . ها هي تستيقظ من قاع الذاكرة وتقف جبينة مغسولة بأضواء الشمس الشتائية الدافئة المبللة برذاذ خفيف - نشعر به ولا نحس وجوده - من مياه البحر الأبيض . إن بوسعي الآن - وبعد ثلاثين عاما بالتمام والكمال - أن ألتقط صورة خاطفة لبورسعيد ، للناس ،

للبيوت ، للشوارع ـ للنصب التذكاري ـ للمتحف الذي يضم صور الأبطال وأسماءهم ، للأطلال التي كانت شوارع ، فأصبحت خرائب محروقة سوداء . وعند تلك الأطلال أحسست بموجة من الألم تعتصر روحي ، ولم أتحرر من وطأتها إلا عندما وقفنا عند تمثال « ديلسبس » . كان جسد التمثال البرونزي المحطم منكفئا على الأرض والأطفال يعبرونه بأحذيتهم الصغيرة في خيلاء ، والآباء والأمهات يلتقطون صورهم بالقرب من قاعدته الضخمة .

تناولنا طعام الغداء في مطعم قريب من الميناء ، ثم توجهنا صوب مدينة « بورفؤاد » الواقعة في الضفة المقابلة لبورسعيد . وقد وصلنا إليها في « عبّارة » تقطع القناة وتقوم بدور الجسر المتحرك بين المدينتين ، وبورفؤاد مدينة تترقرق بالسحر ، وشوارعها النظيفة الصغيرة تحمل أسماء بعض المبدعين العرب أمثال : أحمد شوقي ، وخليل مطران ، وجبران خليل جبران . توقفنا قليلا على الشاطيء ، حيث كان عدد من المصورين يتسابقون في تحقيق رغبة من يريد أخذ صورة فورية تكون خلفيتها بورسعيد ، أو المبنى الأبيض لإدارة قناة السويس . ومن الشاطيء ركبنا زورقا بخاريا طاف بنا عرض القناة ، حيث كانت البواخر تسير في نظام ، بعضها قادم من البحر الأبيض والبعض الآخر من البحر الأحمر ، وكنا كلما اقتربنا من احدى هذه البواخر رفع ركابها أيديهم تحية . كما استمعنا الى المرافق وهو يتحدث عن المزاعم الاستعمارية التي كانت تشكك في قدرة المرشدين العرب على إدارة القناة . كان قد مر عامان ويزيد على عودة القناة الى مصر ، وهي تسير بأيدي أبنائها كالساعة الدقيقة الانضباط ، إنهم ـ واقصد المستعمرين ـ لم يكونوا يكتفون باحتلال أرضنا وحسب ، وإنما كانوا يسعون كذلك الى التشكيك في قدرتنا على حمايتها وإدارتها . وعندما رجعنا الى الشاطيء كانت الشمس تقترب من الغروب ، وكان يومنا في بور سعيد يقترب من النهاية ويستقر في الضمير بتفصيلاته ، وايماءاته الفياضة بألف إيحاء وإيحاء . □

من أمثال الأمم والشعوب



- بالنار امتحان الذهب ، وبالذهب امتحان الرجال . (مثل صيني)
- إنك لن تستطيع أن تمنع طيور الهم أن تحلق فوق رأسك ، ولكنك تستطيع أن تمنعها أن تعشش في رأسك . (مثل صيني)
- حب الخير للناس هو أدب القلب . (مثل فرنسي)
- ابنك على ما تربيه . (مثل شعبي)
- إذا كنت لا تستطيع الابتسام فلا تفتح دكانا . (مثل صيني)
- ثلاثة أشياء لا يمكن تعلمها : الكرم ، والشعر ، والصوت الطروب . (مثل ايرلندي)
- إذا ذهب الجهل حل البلاء . (مثل شعبي)

من الأفكار الشائعة عن الفكر السياسي العربي
خلوه من المعالجة النظرية لفكرة الدولة ،
ونشأتها ، وعلاقة السلطة بالأفراد ،
ولكن القراءة المتأنية للإنتاج الفلسفي والفقهي العربي الإسلامي
تؤكد اهتمامه المبكر بهذه القضايا ، بتخريجاتها النظرية .

السلطة والدولة

في الفكر الإسلامي

بقلم : الدكتور رضوان السيد

بدأ المتكلمون والمفكرون السياسيون والمؤرخون يؤلفون في نظرية السلطة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري . نعرف ذلك من أسماء وعناوين الكتب التي يذكرها ابن النديم في الفهرست ، والتي تحمل أسماء الإمامة أو مسائل في الإمامة . ويغلب على المؤلفات الأولى في موضوع السلطة (المصطلح المتعارف عليه لها : الإمامة) الطابع التاريخي . إذ يتحدث هؤلاء ، وأكثرهم من المتكلمين ومؤرخي الفرق ، عن تاريخ ظهور كل فرقة ، وأهم رجالاتها ، ثم أهم تفرعاتها ، وآرائها العقيدية والسياسية والفقهية . وهم ينطلقون في ذلك من رؤية متعارف عليها ، ظهرت مبكرا فيما يبدو ، وتعتبر الإمامة أو قضية السلطة والصراع عليها القضية الرئيسية في التاريخ الإسلامي الأول . يتكرر ذلك لدى مؤرخي الفرق في القرن الرابع وما بعده ، كالأشعري ، والناشىء الأكبر ، والبغدادي ، والشهرستاني ، ونقرأ ما يفيد ذلك عند الشافعي في الرسالة ، أواخر القرن الثاني الهجري ، مما يشعر بوجود هذه الرؤية منذ البداية .

ثلاث مسائل

وعلى الرغم من الطابع التاريخي للمؤلفات الأولى في قضية الإمامة ، فإن هذه المؤلفات تتضمن ثلاث مسائل في نظرية السلطة ، أولاها القول بضرورة السلطة أو السلطان (نظرية وجوب الإمامة فيما بعد) ، والثانية ضرورة وحدة السلطان . ويذكر المتكلمون لضرورة السلطة أو الإمامة أدلة وبراهين بعضها عقلي والآخر شرعي تاريخي ، وتذكرنا الأدلة العقلية على ضرورة الإمامة لدى المتكلمين الأوائل بتلك المعروفة « كلاسيكيا » عند الاغريق والرومان ، مثل القول بعمى غرائز البشر ، وتناقض مصالحهم الخاصة ، وإقبالهم على التصارع والتخاصم من أجل إرضاء الغرائز والنوازع . ثم عرف

المتكلمون والفلاسفة الإسلاميون الأخلاق لارسطو، والجمهورية لأفلاطون، وبعض المتحولات الهيلينية، فتطورت عندهم أدلة ضرورة السلطة من الناحية العقلية، إذ قالوا بأن البشر يحتاج كل منهم للآخر لقضاء حاجاتهم الأساسية، فيجتمعون من أجل ذلك. لكن الخصومات تنشأ بينهم لرغبة كل منهم في الحصول على أكثر من حاجته (الحاجات الأساسية في نظر الحكماء : الغذاء والكساء والبناء)، والعمل والانتاج أقل مما يعمل وينتج، فتنشأ أعراف ومبادىء وسنن ونواميس لتنظيم العلاقات بين البشر، بعضها من اصطلاحهم، وبعضها ذو أصل ديني. ثم يكون ضروريا وجود سادة أو سائس، بعد واضع أو واضعي الأعراف والنواميس، ليشرف على حسن التطبيق والرعاية، وليوقع العقوبة بالخارجين على الناموس أو السنة. وهذا السائس هو الإمام أو السلطان. أما الأدلة التاريخية الشرعية فتذكر أن المسلمين سارعوا بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى تعيين إمام، ولم يترددوا لحظة واحدة في ذلك. كما لم يفكروا - كما ذكر بعض المتكلمين - في أن الشريعة التي يؤمن بها الجميع قد تكون كافية بذاتها للاستغناء عن إمام أو سلطان. إذ أن الله سبحانه وتعالى - كما ذكر عثمان بن عفان - يزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن. وقد قال الإمام علي ردا على الخوارج الذين قالوا : لا حكم إلا لله ! كلمة حق أريد بها باطل. بل لا بد للناس من أمير يأخذ به الله للضعيف من القوي، ويجمع به الفيء، ويجاهد به العدو... الخ. والمتكلمون وفقهاء السياسة يردون بذلك على الخوارج، وعلى بعض المتكلمين الذين «شذوا»، فلم يروا ضرورة السلطان. في مقدمة هؤلاء هشام بن عمرو الغوطي الذي اشترط لصحة إمامة أي إمام إجماع الناس عليه. ولأن الناس لم يجمعوا بعد عثمان على أحد، فلا حاجة لمتابعة تجربة السلطة التي أثبتت فشلها في تمثيل مصالح الناس جميعا. ثم منهم أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم الذي قال : «إذا تكاف الناس عن التظالم استغنوا عن السلطان».

وتأتي المسألة الثانية بعد «وجوب الإمامة» وهي ضرورة وحدة السلطان. ومن المعروف أن بعض الفلاسفة الإغريق رأوا إمكان تعدد السلاطين ضمن الأمة الواحدة. وقد أخذ عنهم ذلك بعض فلاسفة الإسلام. لكن الحديث عن ضرورة وحدة السلطان ظاهر في الرسالة للإمام الشافعي (- ٢٠٥ هـ)، مما يدل على أن القضية طرحت في سياق آخر غير السياق الاغريقي. وقد عاصر الشافعي صراع الأمين والمأمون الذي هدد بظهور إمامين. كما أن الأمويين بالأندلس كانوا قد استقلوا عمليا، وإن لم يتسمّوا بإمارة المؤمنين. أما المفكرون المسلمون فقد فهموا من مصطلح الأمة الواحدة في القرآن، وسيرة السلف الصالح وحدة في السلطان، ووحدة في الأرض، ووحدة في الجماعة. ولم تتساو الوحدات الثلاث في نظرهم في الأهمية، لكنها كانت المثل الأعلى المطلوب، الذي تحقق أيام الراشدين والأمويين. فلما ظهرت الدويلات وانفصلت الخلافة عن السلطة (الشرعية عن القوة السياسية) عاد المفكرون للتمسُّك بالوحدة المطْلَقة للدار، والوحدة الضرورية للأمة، مع اعتراف بإمكان تعدد الأئمة إذا تباعدت الأقطار.

وكانت المسألة الثالثة المتصلة بنظرية السلطة التي جرت معالجتها منذ البداية : مسألة شرعية السلطان أو متى يكون الإمام شرعيا. ومتى يكون متغلّباً غير شرعي. وهنا أيضا كان للتجربة التاريخية العربية الاسلامية تأثيرها البالغ على فقهاء السياسة والكلام. فقد تمسك بعض بمبدأ الشورى باعتباره الطريق الأوحد للوصول إلى الإجماع حول رجل من قريش يتولى السلطة، بينما نظر آخرون لشكل التجربة، فقالوا : إن

البيعة العامة ـ بقطع النظر عن كيفية حدوثها ـ هي التي تفترق بين الشرعي وغير الشرعي . وذهب فريق ثالث إلى أن الحكم على شرعية أي سلطان ينبغي أن يستند إلى مدى تحقيقه للأهداف العليا للأمة ، بغض النظر عن طريقة وصوله للسلطة . والأهداف هي : الجهاد والدعوة وحماية دار الإسلام ، والعدالة في قسمة الفيء ، والحفاظ على الوحدة الداخلية ، والحيلولة دون الفتنة . ولا تنتفي شرعيتهُ عند فريق الأكثرية هذا حتى إن لم يحقق بعض هذه الأهداف ، مادام يحقق هدفين منها : حماية الدار ، ومنع الفتنة . ولكن ذلك تفصيلات ليس هذا الموجز موضعا مناسبا لها .

الدولة وأشكالها

درس الفقهاء والمتكلمون والكتّاب الاداريون والفلاسفة والمؤرخون إذن مسائل كثيرة متعلقة بأصل السلطة أو نظريتها ، ضرورةً ووحدةً وشرعيةً . وفي الوقت نفسه بدأ الاهتمام بدراسة تجربة الأمة التاريخية مع سلطتها أو سلطاتها ، ومقارنة ذلك بما قرءوه من تجارب الأمم الأخرى . وقد كان ظاهرا لهم منذ البداية أن تجربتهم مع السلطة السياسية لديهم تختلف عن تجارب الأمم الأخرى الغابرة والمعاصرة ، وقد سموا نظامهم خلافة ، بينما سمىّ الآخرون نُظُمَهم ملكا ، وسموا ملوكهم أو لقبوهم قياصرة وأكاسرة وخواقين وما شابه . وإذا كانت سلطة الأمة عند العرب المسلمين قد تأسست على الإسلام أو في حضن دين جديد ، فإنه كان واضحا بالنسبة لهم أن ذلك لا يمكن قوله عن سلطة الروم الذين قامت دولتهم قبل المسيحية بقرون كثيرة . وليس واضحا كيف بدأت العلاقة بين دولة الفرس القدامى الاخمينيين والزرادشتية ، بل إن هناك من العلماء من يقول : إن الزرادشتية لم تصبح دين الدولة الرسمي عند الفرس إلا أيام الساسانيين . ثم ما معنى الدين ؟ هل هو الدين السماوي أو الموحى في نظر المسلمين ، أم أن المفكرين المسلمين يعتبرون كل منظومة تقوم بوظيفة الدين ، دينا ، وإن يكن باطلا في نظرهم ؟ وإذا كانت علاقة الدين التأسيسية بالسلطة في مجالهم الحضاري واضحة بالنسبة لهم ، فكيف رأوا علاقة الأديان الأخرى بالنظم السياسية في المجالات الحضارية للأمم التي عرفوها ، أو وصلتهم آثارها الكتابية ؟ كل هذه الأمور بحثها الفكر السياسي الإسلامي تحت عنوان « تدبير الدول » أو « أنواع الدول » .

والدولة كما هو معروف لا ترادف السلطة أو الإمامة في المذاق اللغوي العربي ، والفكر السياسي الإسلامي . فالدولة تعني تنقل الأمور من حال إلى حال ، وانحياز الزمان لقوم على قوم في السلطة أو في الثروة . وقد أطلق العباسيون على دعوتهم الثورية ضد الأمويين اسم الدولة تفاؤلا بالظفر وأن يقضي لهم الزمان . لذلك فإن السلطة واحدة في أصلها ، وعلل قيامها الأولى لدى الأمم كلها . أما ما تختلف فيه فطريقة القيام ، وطرائق الاستمرار ، ومن هنا تأتي الدول وأشكالها . ومن هذا المنطلق كانت السلطة واحدة وثابتة . والدول متعددة ومتغيرة في نظرهم .

قال ابن المقفع (ـ ١٤٢ هـ) : « إن الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى » . وليس بالوسع بسبب الصبغة الأخلاقية الاعتبارية التي تغلف الأمر كله عند الكاتب في الأدب الكبير ، القول ما إذا كان يقصد هنا أشكال الدول ، أو مجرد الإرشاد والاعتبار . ونحن نعرف منذ زمن أن الترجمات بدأت عن اليونانية والسريانية أيام الأمويين وكذا عن الفهلوية . فهل عرف ابن المقفع سماعا أو قراءة شيئا عن تقسيم ارسطو لاشكال تجلي السلطة في دول ديمقراطية ، وارستقراطية ، وملكية . . . الخ ؟ كل ما ذكرناه أمور لا يمكن القطع بشيء فيها . ومع ذلك فإن هذه العبارة القصيرة تبقى

شديدة الأهمية ، إذ الواضح أن الرجل يرى أن الملك (السلطة) ممكن ، وإن لم يتأسس على دين . وهو إن كان كذلك انقسم إلى قسمين : ملك حزم أو ملك هوى واستبداد . والغالب أن الدولة الايرانية التي ترجم ابن المقفع كثيرا من مأثوراتها لم تقم على دين ، بل قامت على التدبير العقلي (الحزم) . وقد استمرت في نظر ابن المقفع وأضرابه من الكتاب آلافا من السنين ، بسبب بيروقراطيتها الطبقية الشديدة ، والعدل بين تلك الطبقات لدى الأكاسرة . وقد عظمت المأثورات التي ترجمها ابن المقفع وغيره من شأن العدل الفارسي ، حتى سمى المسلمون كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٨ م) الساساني : « الملك العادل » ، تبعا للمأثورات الفارسية . فكأن العدل يمكن أن يكون أساسا للشرعية ، وإن لم تكن هناك شرعية إلهية تتأسس عليها السلطة ، وتقوم على تطبيقها . ويتضح من عروض الدينوري والمسعودي . وصاعد الأندلسي لتواريخ الروم والاغريق والهنود والصينيين أن المسلمين كانوا يعرفون أمماً غير الفرس ، لم تتأسس نظمهم على الدين ، بل على المصلحة المدركة بالعقل ، والسياسة المستمرة بالعدل » . وربما كان هذا الانطباع عن الدولة الفارسية القديمة ، والدولة الرومانية وراء ظهور المأثور الذي يقول : يبقى الملك مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ! .

ويزعم ابن الطقطقي في « الفخري في الآداب السلطانية » أن هولاكو جمع علماء بغداد بعد قتله للخليفة العباسي ، وتدميره للمدينة ، وسألهم أيٌ أحب إليهم ، وأقرب لدينهم : المسلم الظالم أو الكافر العادل ؟ ! لكن ما لم يفكر فيه صاحب الفخري إمكان وجود السلطان المسلم العادل ؟ وهذا ما لاحظه أبو الحسن العامري (ـ ٣٨١ هـ) الذي أنكر قبل ابن الطقطقي بقرون دعوى العدل الفارسي والرومي . صحيح أن الدولة الفارسية والأخرى الرومية قامتا على غير دين ، لكنها من أجل تلك لم تكونا عادلتين . ثم إن ضرورة السلطة للمجتمع ، وعدل الفرس المزعوم لم يمنعا انهيار الدولة الايرانية على يد المسلمين الذين قدموا نموذجا جديدا للدولة ، قام على ضرب النظام الطبقي غير العادل ، وأنشأ مجتمعا مفتوحا الناس فيه أكفاء متماثلون .

دولة القوة

أفاد أبو الحسن الماوردي (ـ ٤٥٠ هـ) من هذه النقاشات كلها ، وعرض للمرة الأولى ـ فيما أعلم ـ نظرية متكاملة لنشوء الدول وانهيارها ، وذلك في كتابيه : « نصيحة الملوك » ، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر » . أما كتابه الثالث « الأحكام السلطانية » فقد درس فيه الشكل الاسلامي للسلطة ، أي الخلافة . وبالوسع تبين مصادر رؤية الماوردي أو نظريته ، فهناك التجربة العربية الاسلامية مع السلطة . وهناك الترجمات عن التجارب الفارسية والاغريقية والبيزنطية ، وهناك أخيرا الجدل بين الفرق الاسلامية المختلفة ، وقد تناول فيها تناول مسائل تتعلق بنظرية السلطة وأشكال الدول كما سبق أن قدمنا .

قال الماوردي في « نصيحة الملوك » : إن المجتمعات البشرية كلها تتأسس أو تقوم على الدين . وليس ضروريا أن يكون هذا الدين مُوحىً أو حقا ، بل المهم إجماع الناس في المجتمع على الإيمان بعقيدةٍ معينةٍ أو دين معين . وهذا هو الأساس العام . فإذا قام المجتمع واتجه لإنشاء سلطة تنظم أموره ، وتحفظ كيانه ، وتدفع عنه شرور الأعداء ، فإن الأشكال المحتملة للسلطة فيه ثلاثة : دولة الدين ، ودولة القوة ، ودولة المال والثروة . ويوضح الماوردي في « تسهيل النظر » ماذا يعني « بدولة الدين » فيقول : إنها تلك السلطة التي تعتبر أن الدين الذي قام عليه المجتمع لم تعد أحكامه مراعاة أو مطبقة ، وأن

الأهداف العامة للمجتمع السياسي لم تعد مقصورة ، فتنهض جماعة بدعوة وباسم الأمة ودينها ، وتقاتل بها السلطان القائم باسم انحرافه عن الدين أو عن عرف الأمة ، وباسم الثورة على الظلم والطاغوت ، وتنشيء عهداً جديداً (دولة) ترى أنه أقرب لمضامين دين الجماعة . وتقوم « دولة القوة » في نظر الماوردي في ظروف استثنائية تحدث أزمة في السياسة العامة للدولة القائمة . ويكون الأمر غالباً أمر اعتداءات خارجية عجزت السلطة القائمة في المجتمع عن التصدي لها . فإذا كانت الدعوة الدينية تعطي دولة الدين التي تقوم عليه أساس شرعيتها ، فإن دولة القوة أو سلطة العصبة العسكرية تكتسب الشرعية من خلال قدرتها في الأوقات العصيبة على التصدّي للعدوان الخارجي ، وإعادة الأمور في الداخل إلى نصابها . وتأتي دولة المال والثروة في حقب التراخي والانفلات ، إذ تصل للسلطة في المجتمع عصبة من الأثرياء عن طريق رشوة المتنفذين ، واستخدام المرتزقة .

دولة الدين

أما « دولة الدين » فإن مثلها الأوضح لدى الماوردي الخلافة الإسلامية التي تأسست مباشرة على الدعوة . وهو يرى أن كل دعوة دينية تتحول إلى سلطة سياسية بعد وفاة مؤسسها . ومسوغ هذا التحول في نظر خلفاء « صاحب الدعوة » حماية الدعوة ، والعمل على نشرها في العالم .

لكن القائمين على الدين الذي تحول إلى مجتمع سياسي يتصارعون فيما بينهم ، إما على تأويل الشريعة ، وإما على السلطة نفسها أو زعامة المؤسسة . وخير مثل لدى الماوردي على دولة القوة الايرانيون القدماء من جهة ، والدولة السلطانية التي تبلورت في التاريخ الإسلامي مع ظهور البويهيين فالسلاجقة . فمن المعروف من « تاريخ الطبري » أن المسلمين كانوا يعرفون أن غزو الاسكندر للعالم الشرقي أسقط الامبراطورية الايرانية ، وقسم إيران نفسها . فلما مات الاسكندر قام في إيران « ملوك الطوائف » الذين تقاسموا الأرض والناس ، حتى جاء أردشير بن بابك بن ساسان بعصبيته العسكرية في منطقة اصطخر ، فوحّد ايران ، وتصدى للرومان والترك ، والشعوب الأخرى في بلاد ما وراء النهرين أفادوا من انهيار الامبراطورية الفارسية القديمة ، وأنشأوا ممالكهم الخاصة على حسابها . وفي الاسلام جاء السلاجقة موحّدين لدار الإسلام ، ومدافعين عنها في وجه البيزنطيين ، بعد أن ضعفت الخلافة وتناوشتها السيوف . لكن إذا كان مقتل رجالات الدولة الدينية يكمن في انقسامهم حول الدين ، تأويلاً وتطبيقاً ، فإن مقتل « دولة القوة » يكمن في أن شرعيتها خارجية . فإذا تراجع الخطر الخارجي ، وتوحد الداخل انتفت مسوغات وجود العسكر ، إلا إذا قام من بينهم سلطان متميز ، يربط الشرعية بالقوة في تدعيم سلطانه أما دولة المال والثروة فلاحظ لها في الاستمرار بنظر الماوردي . إنما هي انقلاب على حين غفلة ، يقضي عليه بعد فترة وجيزة العسكر والمرتزقة الذين أقاموه ، أو دعوة دينية جديدة . وليس في تاريخه مثل على دولة المال ، ولا في التاريخ الايراني القديم . لذلك رجحت أن يكون الماوردي قد أفاد في ذكرها من أرسطو الذي يعتبرها شكلاً من أشكال فساد السلطة في المجتمع ، ويسميها البلوتوقراطية .

يعتبر الماوردي إذن دولتي الدين والقوة دولتين عاديتين ، تحدثان على أرضية المجتمع المؤمن بدين واحد أو عرف عام معتبر اجتماعياً . والفرق بينهما أن دولة الدعوة الدينية ذات شرعية داخلية مستمدة من الدين مباشرة ، بينما « دولة القوة » ذات شرعية خارجية نسبياً . لذلك يرى أن الدولة الأولى تكون أثبت وأطول عمراً . *وتسقط عندما تعجز أو تحيد عن تحقيق الأهداف* التي قامت من أجلها : تطبيق الشريعة ، ونشر

الدعوة ومنع الفتنة ، وحماية الدار . بينما تكون دولة القوة أقل ثباتا . وتسقط عندما تعجز عن ربط نفسها أو سلطتها بدين المجتمع أو عرفه العام . فقد سقطت الدولة الإيرانية بعدما عجزت عن التصدي للبيزنطيين والعرب المسلمين ، كما عجزت عن ربط نفسها بالزرادشتية التي استندت إليها بعد قيامها منذ أيام أردشير (- ٢٤١ م) إلى أيام كسرى أنوشروان (- ٥٧٨ م) . والأمر نفسه يحكى قوله عن البويهيين الذين شهد الماوردي سقوطهم على يد السلاجقة عندما دخلوا بغداد عام ٤٤٤ هـ . بعد أن اكتسحوا الدولة البويهية في مهدها في بلاد فارس .

ولا يخفي الماوردي هدفه من وراء تعميمه لكيفيات قيام الدول ، وكيفيات انهيارها . فهو يريد من وراء ذلك الوصول لعرض الشكل الإسلامي للسلطة (الخلافة) ، باعتباره الشكل الأصلح والأبقى للأمة . صحيح أن رؤيته لأشكال السلطة أو الدولة - كما يسميها - تدخل في باب فلسفة السياسة ، لكنه فقيه بالدرجة الأولى ، لذلك يخص السلطة الإسلامية بكتاب كامل ، هو « الأحكام السلطانية » ، يدرس فيه طريقة قيام السلطة الإسلامية كشكل من أشكال الدعوة الدينية ، ثم يتتبع تطور مؤسسات الدولة الإسلامية ، وقيامها الثنائية : الخلافة ، السلطنة ، معتبراً السلطنة ، أي دولة القوة ، تحولاً مفهوماً ، لكنه غير مستقر وغير مستمر .

ولأنه يستند في تنظيره إلى التاريخ ، والتاريخ الإسلامي على الأخص ، فهو يحاول أن يفهم قوانين قيام الدول وانهيارها من ضمن التاريخ دونما جبرية أو ميكانيكية حاكمة ، لذا فهو ينصح لها إن أرادت البقاء - وكأنه ينصح السلاجقة وهم السلاطين الجدد - أن يربطوا أنفسهم بعرف الأمة الداخلي ، أي بالإسلام ، بعد أن نجحوا في التصدي للبيزنطيين ، عدو الإسلام الأول حتى أيامه .

رأي ابن خلدون

استشهد الماوردي بتصور هيلينستي يشبه الدولة بالشجرة التي تبدو أول ظهورها قوية صلبة ، ثم تورق وتثمر ، ثم تتحجر وتسقط . لكنه لم يتابع في رؤيته التي عرضناها هذا التصور الميكانيكي ، لكن ابن خلدون قد ذكر المأثور ، وأضاف إليه تشبيها عضويا مثل فيه بين تطور الدولة المعينة وأفراد النوع البشري فالإنسان يكون فتى قويا ، ثم يكتهل وينضج ، ثم يشيخ ويفنى ، لذلك فإن عمر الدولة عنده أربعة أجيال كعمر الرجل الواحد المعمر . وهو يقول مثل الماوردي بدولة الدعوة الدينية ، ودولة القوة ، لكنه يهتم أكثر من الماوردي بالأساس الاجتماعي للسلطة ، وهو يرى أن كل نوع الدولة فيه تقوم على عصبية قبلية أو عشائرية ، ثم تنمو فتكون ملكا ، ثم تشيخ وتسقط . □



دهـــاء

● غضب الرشيد على حميد الطوسي ، فأمر بإحضار السيف ، فبكى الرجل ، فقال الرشيد . ما الذي يبكيك ؟

قال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت ، لأنه لابد منه ، وإنما بكيت أسفا على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علي .

فضحك الرشيد ، وعفا عنه ، وقال . إن الكريم إذا خادعته انخدعا



الأربعــون

شعر : خالد عادين

من أينَ جئتَ وخانقي تعبُ … لا النارُ تسكنه ولا الخشَبُ

وأصابعي أوتارُها نهبتْ … هيهاتَ في عينيكِ تصطخبُ

من أينَ جئتِ وليس يُوقظني … ما تُرسلُ الأجفانُ والهُدُبُ

قد سُدّتِ الأبوابُ من زمنٍ … وتوالدي لم تفتقدْ شُحُبُ

وتكسّرت في خاطري صُوَرٌ … وتخاطفتْ مرآتي الحُجُبُ

إنّي وإن أمطرتِني دِيَماً … صحراءُ لا يخضلّ بها العُشُبُ

لا تطرقي بابي فما جَسَمٌ … هذي التي من خلفه تثِبُ

لكنّها خيلي وأعرفها … لا تشتهي أرضاً ولا تهَبُ

الأربعون وكيف أنكرها … مُذْ أبحرت وتكسّر القصبُ

لو أن في وسعي مكابدةً … لاخترت أنْ يجتاحني اللهبُ

وأمدّ من روحي له سبباً … إنْ مُدّ لي من روحه سَبَبُ

يا واحةً ما أتعبتْ سفري … ماذا إذا قد جئت والتَّعَبُ

ماذا إذا أحببتُ ظامئةً … واجتاحني من رملها السُّغُبُ

وتوسّلت كفّي لتشربها … فإذا الذي ترجّوهُ ما شربوا

الأربعون ونارُها وَجَعٌ … والأربعون ونارُها كَلَبُ

والأربعون رمالُها شُعَلٌ … والأربعون هُتُونُها صَخَبُ

مُدّي يديكِ ثيابي اشتعلتْ … ومواقدي لو جئتها حَطَبُ

وتوسّدي صدري فما مطرٌ … هذا الذي لو هبّ ينسكبُ

إنّي على كفّيكِ في سفرٍ … وأخاف أن يغتالني التعبُ

« البيريسترويكا »

.. اعـــادة البنـــاء

بقلم : أمين هويدي

تثير قرارات الرئيس السوفيتي « جورباتشوف » في معالجته لشئون شعوب الاتحاد السوفيتي الداخلية ، وعلاقاتها الخارجية مع دول العالم ، الكثير من الآراء والتعليقات والتفسيرات حول دوافعها ونتائجها المحتملة .

ولإدراك « العربي » أن ما يجري في الاتحاد السوفيتي ـ كدولة عظمى ـ سيكون له تأثير عميق في العلاقات الدولية التي أصبحت شديدة التشابك ، كما سيكون له انعكاساته على الوطن العربي ، لذا تفسح المجال لمحاولات تفسير هذه التغييرات ودلالاتها .

لاشك أن فترة الثمانينيات تعتبر نقطة تحول كبرى في النظام العالمي الذي يتحكم في الكوكب الذي نعيش فيه ، فالدول الاثنتا عشرة الأعضاء في السوق الأوربية المشتركة تخطو خطواتها الثابتة لإعلان « الولايات المتحدة الأوروبية » بسوقها الموحدة عام ١٩٩٢ .

والصين بقيادتها الجديدة تعلن وتخوض ما يسمى ثورة التصحيح الكبرى التي تطلق عليها اسم « الجاي جي GAI — GI » ، وفي الاتحاد السوفيتي يعلن ميخائيل جورباتشوف عن « إعادة البناء » أي « البيريسترويكا » التي يركز فيها على إحداث تغييرات جذرية داخلية ، يغلفها بتغييرات في السياسة الخارجية ، جعلت العالم يعيد حساباته ، ويرتب أوراقه من جديد . ومن الضروري لنا ـ وكما يفعل غيرنا بوعي ـ أن نتابع ما يجري في الاتحاد السوفيتي وغيره ، لأنه سيؤثر فينا حتما ، ولذلك سنحاول إلقاء بعض الأضواء على بعض الأفكار الرئيسية لميخائيل جورباتشوف عن « البيريسترويكا » .

البيريسترويكا لماذا ؟

حينما قفز « جورباتشوف » إلى قمة السلطة أيقن « أن السيارة لم تكن تتجه إلى حيث يعتقد من يجلس إلى عجلة القيادة ، وهذا أمر سبق أن حذر منه « لينين » في أوائل أيام الثورة البلشفية ، فالعالم كله يتغير ، هذا الاتحاد السوفيتي الذي وضع نفسه في إطار « أيديولوجي » ، لايريد أن يتحرر منه ، فالتطورات الاجتماعية غيرت طبيعة المجتمعات وعلاقاتها بعضها ببعض .

إن عالم العشرينيات حينما بدأت الثورة في روسيا ليس هو عالم الثمانينيات أو التسعينيات، والاتحاد السوفيتي اليوم ليس هو «روسيا القيصرية» التي حطمها «لينين» ورفاقه بعد الثورة.

والثورة ليست عملا «استاتيكيا» «Static»، يحدث في لحظة ثم يلقي الثوار بعدها أسلحتهم ويستريحون، تظللهم أكاليل الغار بعد النصر، بل الثورة عمل «ديناميكي» تسعى إلى التغيير والتطوير نحو الأفضل. وبذلك فهي تعني التدمير والبناء. وبدون تدمير، لا يمكن تنظيف الموقع لقيام البناء الجديد. إن «البيريسترويكا» تعني إزالة جذرية وحازمة للعقبات التي تعرقل التنمية الاجتماعية والاقتصادية، كما تعني التضحية بالفروع من أجل انطلاق الجوهر.

إن النظرية «الماركسية» تنادي بالتغيير المستمر، على أساس أن وسائل الانتاج وعلاقاته، تتطور بصفة دائمة، الأمر الذي يحتم على البناء السياسي الذي يمثلها أن يتواءم مع التغيير وإلا ينهار من أساسه، إذ يصبح البناء مرتكزا على أساس تغير كلية عن الأساس الذي أنشيء فوقه في مبدأ الأمر. لينين نفسه واجهته هذه المشكلة بعد الثورة مباشرة، حينما اصطدم بالأمر الواقع، فنادى «بالخطة الاقتصادية الجديدة» التي فتح عن طريقها مجالا للقطاع الخاص والاستثمار الأجنبي، لأن البلاد في حاجة إلى التقاط الأنفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام.

وبناء على هذه النظرة أقدم جورباتشوف على تنفيذ إجراءات غير معتادة: انتخاب مديرين في المؤسسات والمكاتب، تعدد المرشحين لانتخابات السوفييتات، المشروعات المشتركة مع الشركات الأجنبية، مصانع ووحدات ومزارع جماعية وحكومية تسير نفسها بالتمويل الذاتي، رفع القيود عن المزارع التي تغذي مصانع المواد الغذائية، اتساع النشاط التعاوني، تشجيع النشاط الفردي في الإنتاج الصغير الحجم، إغلاق الوحدات الخاسرة، صحافة أكثر وضوحا، تأجير المزارع للعائلات فترة تصل إلى ٥٠ عاما.

ولكن مازال السؤال قائما: لماذا البيريسترويكا؟ ما الذي حدث بالضبط في الاتحاد السوفيتي لإعلان الثورة على الثورة مع الاستمرار في التوجه والأهداف؟

اختلال التوازن

والذي حدث في الاتحاد السوفيتي حتى بداية عصر «جورباتشوف» ثورة ضخمة، بكل المقاييس، في ظل الظروف التي سادت في تلك الفترة. فقد انتهت الحرب العالمية الثانية بنظام عالمي جديد، «أحادي الأقطاب»، سيطرت فيه الولايات المتحدة على العالم في ظل «الاحتكار النووي» وكان هذا خطرا ماحقا على العالم الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي، إذ أصبح للولايات المتحدة القدرة على فرض «السلام الامريكي»، كما تراه على الكوكب الذي نعيش فيه، ولم ينس الاتحاد السوفيتي ما فعلته قنبلتا «هيروشيما» و«نجازاكي» باليابان، ولم يجد إلا خيارا واحدا أمامه، وهو خوض معركة حياة أو موت، لتحقيق «التعادل النووي» مع الولايات المتحدة، لتحويل العالم إلى عالم «ثنائي الأقطاب» بدلا من «أحادي الأقطاب»، ونجح الاتحاد السوفيتي، وأصبح يملك «ترسانة» من الأسلحة التقليدية والنووية هائلة ورادعة.

وحينما وصل الاتحاد السوفيتي إلى غرضه، وجد نفسه في نقطة حرجة، اختل فيها التوازن بين قوى الثلاث: العسكرية والاقتصادية والسياسية، وأيقن جورباتشوف أن قدرة الاتحاد السوفيتي الداخلية هي التي تحدد مدى سياسته الخارجية ومصداقيتها، وأن رجلا قوية واحدة ـ وهي القوة العسكرية ـ لاتكفي للتحرك في العالم الذي نعيش فيه.

ووجد جورباتشوف أن القوة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي تتآكل ، فليس معقولا أن الاتحاد السوفيتي الذي بلغ الذروة في التقنية العسكرية ، ووصل إلى القمر ، وعسكر في الفضاء ، عجز في الوقت نفسه في مجالات التقنية المدنية ، وعاجز عن توفير المواد الغذائية لشعبه ، ويضطر لاستيراد النسبة العظمى من احتياجاته من أسواق منافسيه . ويفتقر شعبه إلى كثير من المواد الاستهلاكية . بل لقد تولدت لدى الشعوب السوفيتية عقدة من جودة المنتجات الغربية وليس معقولا أن يستمر الاتحاد السوفيتي في قياس معدلات التنمية بحجم الاستثمارات المتزايدة ، وكمية المواد الأولية ، والطاقة المستخدمة في الانتاج ، وليس بزيادة الانتاجية ورفع مستوى الانتاج ، أو أن يظل غائبا عن الأسواق العالمية في كثير من المجالات ، فلا يتمكن من الحصول على العملة الصعبة لعجزه في مجال الصادرات . ليس معقولا أن تكون قوته العسكرية جبارة كاسحة ، وقوته الاقتصادية متواضعة عاجزة ، في عالم لاتقل فيه المنافسة الاقتصادية أهمية عن المنافسة العسكرية بأي حال من الأحوال .

وفي الوقت نفسه ليس معقولا في ظل قوته العسكرية الهائلة ، أن يظل الوضع السياسي للدولة والفرد على الوضع الثقيل نفسه الذي تطلبته مرحلة التحول العظمى ، وأن يصبح الحزب الشيوعي فوق الشعب وليس مع الشعب ، مسيطرا على كل السلطات ، وخاصة بعد أن ترهل ودخله بعض الفساد . إن المزيد من الاشتراكية لايمكن تحقيقه إلا بمزيد من الديموقراطية ، وإشراك الجماهير في عمليات التحول . إن العمل وحده هو الذي يحدد المكان الحقيقي للمواطن في المجتمع ، وكذلك وضعه الاجتماعي ، فالاشتراكية ليس لها علاقة بالمساواة الكاملة ولايمكن أن تضمن ظروف الحياة والاستهلاك وفقا لمبدأ « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » ، إذ سيكون ذلك في ظل الشيوعية . أما الاشتراكية فلها معيار آخر لتوزيع المزايا الاجتماعية . وهو « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » . للعمال الحق في اختيار مديريهم ، وينبغي على اللجان النقابية أن تكون ذات أنياب ، وإلا تكون شريكا طيعا للإدارة .

إن الجلاسنوست ، أو العلانية والنقد ، والنقد الذاتي ، لابد أن تمارس على أساس من معرفة الحقيقة . فلا يجوز أن تستمر أجهزة الإعلام والثقافة على صورتها القائمة في ظل ثورة الاتصال التي جعلت الدول عارية بعضها أمام بعض . وليس معقولا أن تتضخم القوة العسكرية وتتآكل حقوق الانسان .

وفضل جورباتشوف أن يواجه النقطة الحرجة ، لا أن يتجاهلها كما فعل غيره . فكان عليه أن يجد حلا للمعادلة الصعبة : كيف يدعم القوتين ، الاقتصادية والسياسية ، دون المساس بالقوة العسكرية ؟ لقد وصل الاتحاد السوفيتي الى حد الكفاية في وسائل الدفاع ، بحيث أصبح قادرا على تدمير الولايات المتحدة عشر مرات ، وأصبح واثقا أن الشعب الأمريكي أصبح رهينة في يد الكرملين ، كما أن الشعب السوفيتي رهينة بدوره في يد البيت الأبيض ، وبذلك أصبح قادرا على أن يحافظ على السلام في ظل قوته الرادعة . ولكن ما فائدة ضمان المحافظة على السلام في ظل الشك في القدرة على المحافظة على النظام ؟! لم لايوقف سباق التسلح حتى يدفع ماء الحياة في شرايين الأبنية الاقتصادية والسياسية ؟ لم لا يستغل قوته العسكرية التي وصل إليها وحققها في عملية اعادة البناء ؟ هكذا فكر وأقدم على التنفيذ . ولكن ما كان يمكنه القيام بذلك إلا في ظل القوة العسكرية التي حققتها الأجيال السابقة في ظل قياداتها المتتابعة بما لها وما عليها .

البيريسترويكا : كيف ؟

لم يكن ميخائيل جورباتشوف أول من حاول « إعادة البناء » من قادة الاتحاد السوفيتي . فقد

حاول ذلك « خروشوف » في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي بعد وفاة ستالين ، وتمكن من الانفراد بالسلطة ، إلا أن « ليونيد بريجنيف » قام ضده بانقلابه المشهور ، بمساعدة كل من « بودجورني » و « كاسجين » . وجرت محاولة أخرى لإعادة البناء بدأها « أندروبوف » ، لكنه كان يعلم أن الوقت لن يتسع له للسير في الطريق الطويل ، بسبب أزمته الصحية التي كان على علم بمدى خطورتها ، فاكتفى بدق ناقوس الخطر ، والحملا بعض الخطوات لتطهير الحزب ، وتهيئة المسرح لجورباتشوف ، عسى أن يتمكن من تنفيذ ما حال القدر دون قيامه هو بتنفيذه

وفي الخطوات الإصلاحية المحدودة التي تمت قبل « جورباتشوف » كان النقد يوجه لزعيم دون الحزب ، فصب خروشوف نقده على ستالين ، مشوها صورته بطريقة بشعة ، وكرر «اندروبوف» نفس « السيناريو » بتركيز نقده على « بريجنيف » وجمود سياسته وفساد إدارته .

إلا أن جورباتشوف كان هو الوحيد الذي تجاسر على أن يوجه نقده ضد الحزب « إذ يجب أن نبدأ بأنفسنا ، وعلى كل فرد في المكتب السياسي ، ومن الهيئات المحلية ، ومن منظمات الحزب القاعدية أن يتحمل المسئولية ، كما ينبغي أن نكون أفضل مما نحن عليه ، وسوف نساعد من لا يستطيعون تقويم أنفسهم . . . يجب أن يتخلى بعضنا طواعية عن الامتيازات التي لا يستحقها ، والتي كسبها بشكل غير مشروع ، وعن الحقوق التي عرقلت تقدمنا . . . لقد ضعف توجيه الحزب ، وانعدمت المبادرة ، وضعف أداء المكتب السياسي وسكرتاريته ، وكذا جهاز الحزب ، وساد العبث في توزيع الجوائز والألقاب والمكافآت ،ونشأ مناخ أن كل شيء على ما يرام ، وفترت المطالبة بالانضباط والشعور بالمسئولية ، وبذلت المحاولات لتغطية ذلك بحملات صاخبة ومشروعات ضخمة ، وعجزت منظمات الحزب عن الدفاع عن المبادىء أو في التصدي للاتجاهات الخاطئة ، وأصبح العديد من أعضاء الحزب في المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد ، مما أدى إلى ممارسات خاطئة وخطيرة ، وساد بين هؤلاء عدم احترام القانون ، مما أدى إلى سخط الجماهير العاملة على سلوك الأشخاص الذين يحظون بالثقة والمسئولية ، والذين يسيئون استخدام السلطة . ويقمعون النقد ، ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا إلى شركاء في أعمال إجرامية إن لم يكونوا منظمين لها » .

ثم نجد أن « جورباتشوف » يرتكز في كل أقواله وإجراءاته إلى « لينين » الذي بقيت أعماله معينا لا ينضب للفكر الابداعي الجدلي ، والاثراء النظري . وقد حدد الرجل مركزه بدقة بالنسبة إلى « لينين » ، فكما يقول « ديف موراركا » في كتابه القيم « جورباتشوف وحدود السلطة » . « إن التاريخ سجل لنا الدور المهم الذي لعبه الأنبياء في تقدم البشرية ، وأن بعضا من الحواريين والفلاسفة والقادة كانوا مجرد وسائل لنشر رسالة الأنبياء ، وإن جاز لنا تطبيق ذلك على ما نحن بصدده فإن جورباتشوف حدد دور « لينين » في أنه « النبي » الذي بلغ الرسالة التي لا يجوز تغييرها . وما على « جورباتشوف » بصفته أحد الفلاسفة والقادة إلا تبليغ الرسالة وتأصيلها . ونجده في كتاباته وأحاديثه يرجع دائما إلى « مؤلفات لينين » ، فهي بمثابة وصيته السياسية كان لينين عندما اشتدت وطأة المرض عليه شديد القلق على مستقبل الاشتراكية » .

وإذا نظرنا إلى التاريخ أيضا وجدنا أن « الأفكار الجديدة » لا تجد قبولا ، إلا إذا قدمت على أنها ليست جديدة تماما بل لا تتعدى كونها إحياء لأفكار قديمة ، تم تجاهلها ونسيانها في زحمة الحياة . وجورباتشوف يؤكد دائما بأنه لا يوجد جديد فيما يقول ، فكل ما يفعله هو مجرد إحياء لمبادىء لينين التي أكد عليها منذ سبعين عاما ، فقد تحدث لينين عن الانفتاح في « الخطة

الاقتصادية الجديدة » ، وعن توجيه الرأي العام ، والنقد ، والنقد الذاتي ، ومطابقة ما يقال على ما يفعل ، والطهارة الحزبية .

إصرار ومصاعب

وفوق كل ذلك فإن جورباتشوف كان مقدرا تماما الطريق الصعب الذي كان عليه أن يقطعه .

كان مقدرا تماما مقاومة « رجال الحرس القديم » ، ثم « أصحاب المصلحة في الإبقاء على الأوضاع دون تغيير » ، وكذلك الأغلبية الصامتة التي تنتظر تحديد اتجاه الريح . ولم يكن أمامه إلا خيار واحد لمواجهة كل ذلك ، وهو « المحافظة على الغرض » فهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق « البيريسترويكا » ، مع إجراء تعديلات في الوسائل بين وقت وآخر ، تبعا للظروف والأحوال . ولذلك فقد صرح وهو يقدم سياسته « إعادة البناء » : « لابد من تنفيذ التحول المطلوب ، فلا بديل عن ذلك ، ولا مجال للتراجع ، بعد أن بدأنا ، فليس هناك مكان ننسحب إليه » . وحتى الآن ظهر الرجل على أنه قادر على ذلك ، فهو رجل « ذو ابتسامة جذابة ، تكشف عن أسنان حديدية » ، كما وصفه اندريه جروميكو قبل أن يدفع به إلى زوايا النسيان .

وحتى يكشف عن « العفن » ويحقق الديموقراطية التي يسعى إليها نادى أيضا « بالجلاسنوست » . فالعلانية والرقابة الحقيقية من أسفل هما طريقا الاصلاح الذي ينشده . وتوسع في الاتصالات المباشرة بالجماهير بزياراته الميدانية المتتالية ، واعتنى بالرسائل التي تصل إليه من القاعدة بصفتها التغذية الخلفية للمهمة التي تربط القيادة بالجماهير ، كما أولت الصحف والمجلات اهتماما فائقا للرسائل التي ترد على هيئات تحريرها وتنشر الكثير منها .

وبعد ذلك بدأ في تغيير القيادات في كل المواقع ، لأنه لا يمكن تنفيذ البيريسترويكا بالقيادات نفسها التي عملت في الماضي . وكان التغيير بالانتقاء وبالانتخاب . وعمل على تدريب القادة الجدد في دورات قصيرة أو طويلة ، حسب التخصصات المطلوبة ، ثم عمل على تقليص سلطة الحزب بزيادة سلطة الحكومة والسوفيتيات ، ثم انتهز هبوط « الهر رست » بطائرته في الميدان الأحمر متخطيا كل الدفاعات المضادة للطائرات ، فانقض على المؤسسة العسكرية ليدخلها في موضعها الصحيح .

ولكن لم يكن من الممكن لجورباتشوف أن يفعل كل ذلك بالجبهة الداخلية إلا إذا عمل على تهدئة الجبهة الخارجية ، وخاصة مع الولايات المتحدة ، مركزا على نزع السلاح ، وتهدئة النقط الساخنة الإقليمية تدريجيا . فاستمر طوال السنوات الثلاث الماضية في محاولاته مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وقدم كثيرا من التنازلات حتى حصل على اتفاقية إزالة الأسلحة النووية المتوسطة والقصيرة المدى من أوربا ، وحقق الكثير لاسترخاء الحرب الباردة على المستوى العالمي ، ولتبريد النقط الساخنة على مستوى الصراعات الإقليمية ، بل نجده يعلن يوم ١٩٨٨/١٢/٧ أمام الأمم المتحدة عن مبادرة جريئة ، اقترح فيها « إلغاء أو خفض وجدولة ديون بعض دول العالم الثالث ، وخفض القوات السوفيتية في أوربا الشرقية ، ومن جانب واحد بمقدار نصف مليون جندي ، ١٠٠٠٠ دبابة ، ٨٥٠٠ نظام مدفعية ، ٨٠٠ طائرة مقاتلة ، خلال العامين القادمين » .

إن جورباتشوف لا يريد أن يحارب في جبهتين في وقت واحد ، لأنه يريد تخفيض نفقات الدفاع ، بعد أن وصل إلى حد الكفاية من الأسلحة النووية والتقليدية ، ليضمن السلام ، ثم ليزيد الموارد المتاحة ، ليقوي الجبهة الداخلية ليحافظ على النظام . □

الصهيونية غير اليهودية

أول انجليزي يدعو إلى الاستيطان في فلسطين

بقلم : الدكتور نبيل ابراهيم مطر

من الشائع أن الدعوة الصهيونية بدأت على أيدي بعض اليهود في القرن الثامن عشر . لكن البحث العلمي يؤكد أن غير اليهود من الأوربيين كانت لهم المبادرة ، كهنري فنش ، الانجليزي الذي كان يحلم لوطنه انجلترا بسيطرة كاملة على وطننا العربي فكانت دعوته إلى اليهود لاستيطان فلسطين !

يظن كثيرون أن فكرة استيطان اليهود في أرض فلسطين تعود إلى وعد بلفور عام ١٩١٧ . ومع أن الرسالة التي وجهها اللورد إلى الثري اليهودي روتشيلد في ٢ نوفمبر من ذلك العام كانت أول وثيقة حكومية تؤكد لليهود دعم الامبراطورية البريطانية في استعمار فلسطين ، إلا أن المخطط نفسه لم يكن وليد ساعته ، وأن مشروع استيطان فلسطين من قبل اليهود يعود إلى ثلاثة قرون مضت ، حين ظهر في لندن أول كتاب عن هذا الموضوع عام ١٦٢١

إن عنوان الكتاب الذي ظهر عام ١٦٢١ هو : «الإحياء العظيم للعالم ، أو ، دعوة اليهود» . بقلم هنري فنش (١٥٥٨ — ١٦٢٥م) . ولد فنش في عائلة سياسية وابتدأ تعليمه الجامعي في (كمبردج) ، حيث نال شهادة البكالوريوس عام ١٥٧٦ . ثم انضم إلى كلية المحاماة في لندن ، وبعد أن أنهى دراسته انتخب عضوا في البرلمان . وتعاون فنش مع اللورد فرانسيس بيكون في محاولة فاشلة لجمع قوانين المملكة وتصنيفها . وفي عام ١٦٢١ ، أنهى كتابه عن اليهود . ووجد نفسه في مأزق أدى إلى اعتقاله : حيث كانت دعوته لليهود لاستيطان أرض فلسطين بإقامة امبراطورية تطغى على كل الممالك في العالم لا تناسب وإرادة جيمس الأول الذي رأى في فنش داعية للثورة على حكم عائلة ستيوارت . وحين وجد فنش أن كتابه سيؤدي به إلى السجن ، تراجع عن أجزاء الكتاب التي أزعجت الملك وشجبها

علناً لكن الملك لم يكتف بهذا، فأمر بجمع نسخ الكتاب واحراقها، وطلب من أحد المقربين منه أن يهاجم الكتاب وموضوعه. وفي تموز من العام نفسه ١٦٢١، قام وليام لود الذي أصبح فيما بعد رئيس أساقفة كانتربري بانتقاد قاس لفنش ودعوته اليهود باقامة مملكة على أرض فلسطين. وأصبح الكتاب نادراً جداً ولا توجد اليوم منه الا نسخ قليلة، احداها في مكتبة المتحف البريطاني في لندن ولقد افتتح فنش كتابه باهداء: « إلى أبناء يعقوب المشتتين في أقاصي الأرض. أكتب لكم هذا حيثما تكونون. إنها بريق من جوهرة. عن عودتكم واستجدادكم في مملكة عظيمة » بعد هذا انتقل فنش الى تحليل دقيق للنبوءات اليهودية التي كتبت في القرن السادس ق م، والتي وصفت لليهود استيطانهم القدس وفلسطين. فقد كان اليهود قد سبوا من أرض فلسطين الى الامبراطورية البابلية عام ٥٨٦ ق م، من قبل الامبراطور نبوخذ نصر. وخلال فترة السبي تلك، ظهر في تاريخهم عدد من الانبياء الذين وعدوا اليهود أن إلههم « يهوه » سيعيدهم إلى أرض فلسطين. وقد تمت العودة عام ٥٣٧ ق م على يد الامبراطور قورش الفارسي الذي عطف عليهم. ولا يزال اليهود حتى يومنا هذا يحتفلون كل عام بعيد عودتهم، ويذكرون صداقة الفرس لهم.

نبوءات اليهود.. وشهوة الاستعمار

أراد فنش أن يطبق هذه النبوءات على زمنه وحاضره. ومع أن هذه النبوءات تخص يهود القرن السادس ق م. فقد أصر فنش أن يطبقها على يهود القرن السابع عشر. ومع أنه لم يكن يهوديا، ولم يعرف يهودا، إذ أن إنجلترا كانت قد طردت اليهود من المملكة في القرن الثالث عشر (م) إلا أنه أراد لليهود استيطان فلسطين. وهنا تكمن بعض الغرابة: رجل ينادي شعبا لايعرفه لاستعمار بلد لايعرفه، وطرد شعب لايعرفه، لاقامة امبراطورية عالمية يهودية تسيطر على كل ممالك الارض. لماذا نادى فنش بكل هذا؟ إن السبب الرئيسي الذي دفعه في ذلك الزمان البعيد لدعوة اليهود لاستعمار فلسطين هو نفسه الذي دفع اللورد بلفور باصدار وعده المشئوم: الا وهو محاولة بريطانيا ايجاد قوم في وسط العالم العربي والاسلامي ليساعدوها على السيطرة والاستعمار. ذلك أنه إذا نظرنا إلى القرن السادس عشر وبداية السابع عشر نجد ان بريطانيا كانت تقف مرتعبة أمام القوة العثمانية الاسلامية. فالقرن السادس عشر شهد أعظم انتصارات العثمانيين، ووصول جيوشهم الى حدود النمسا، وسيطرتهم على جميع جزر البحر المتوسط. أمام هذه القوة العسكرية والدينية وجدت بريطانيا نفسها تتساءل عن كيفية مواجهة الخطر العثماني، ذلك أن المحاولات الأوروبية كانت قد باءت بالفشل.

رأى فنش الخطر العثماني أمامه وقدر أن بلده لن تستطيع الدفاع عن نفسها. فبدأ بقراءة النبوءات اليهودية باحثا عن مخرج هذا المأزق الدولي، وعن وسيلة لإزالة الخطر العثماني. وما كان إلا أن وجد نبوءات العودة الى فلسطين فقال: إن فلسطين اليوم لايسكنها يهود، بل عرب واتراك، مسلمون ومسيحيون. لذا، فإن اليهود حسب نبوءاتهم، لامحالة عائدون بمساعدة إلههم « يهوه » وإذا عادوا، فإنهم لامحالة سيحاربون الاتراك في المشرق وينتصرون عليهم. لذا، إذا استوطن اليهود فلسطين، فذلك سيكون بعد التغلب على العثمانيين وإزالتهم من الوجود، أي بعد انهاء الخطر العثماني والاسلامي. وعندها سيكون هناك شعب يهودي في فلسطين ولا يكون خطرا على أوروبا بل سيؤازر بريطانيا، لأن بريطانيا ستكون الامبراطورية التي ستساعد اليهود على هذا الاستيطان.

من الواضح أن فنش أراد استيطان اليهود لفلسطين ليس محبة بهم ، بل خوفا من العثمانيين ، فالمعركة ستكون ضارية بين الاتراك المسلمين واليهود ، ولكنها ستنتهي بالتغلب على الاتراك . وكتب شعرا : « سيسيطر الطغيان التركي مدة ٣٥٠ سنة . سيعودون (اليهود) الى أرضهم .

سينضب نهر الفرات أمامهم ليجعل طريقهم سالكة ، مثلما فتح أمامهم قبلا البحر الاحمر .

سترعب أخبار تقدمهم القوى التركية .

سيحدث اقتتال عظيم بينهم وبين الأتراك .

وسيكون هذا الاقتتال في أرضهم ، أرض يهودا .

وسينالون انتصارا نبيلا .

وسيتلقى العثمانيون ضربة موجعة قرب مدينة القدس .

وسيكون انتصار اليهود كبيرا على الجيش التركي . قرب بحيرة طبرية .

وسيكونون بعد ذلك في بلادهم . »

فكرة خاطئة

من الغريب أن فنش استعمل دائما كلمة « بلادهم » عن فلسطين ، كأن فلسطين لم تكن في القرن السابع عشر بلاد العرب الذين سكنوها لاجيال واجيال ، لا بلاد اليهود . ولكن فنش أصر على استيطان اليهود ، وعلى استيطان حقيقي وبكل معنى الكلمة ، وأضاف . وهذه كانت الاضافة التي أودت به الى السجن : —

« سيأتون قريبا الى القدس ، وسيصبحون ملوك ورؤساء العالم ، ويحكمون الجميع » .

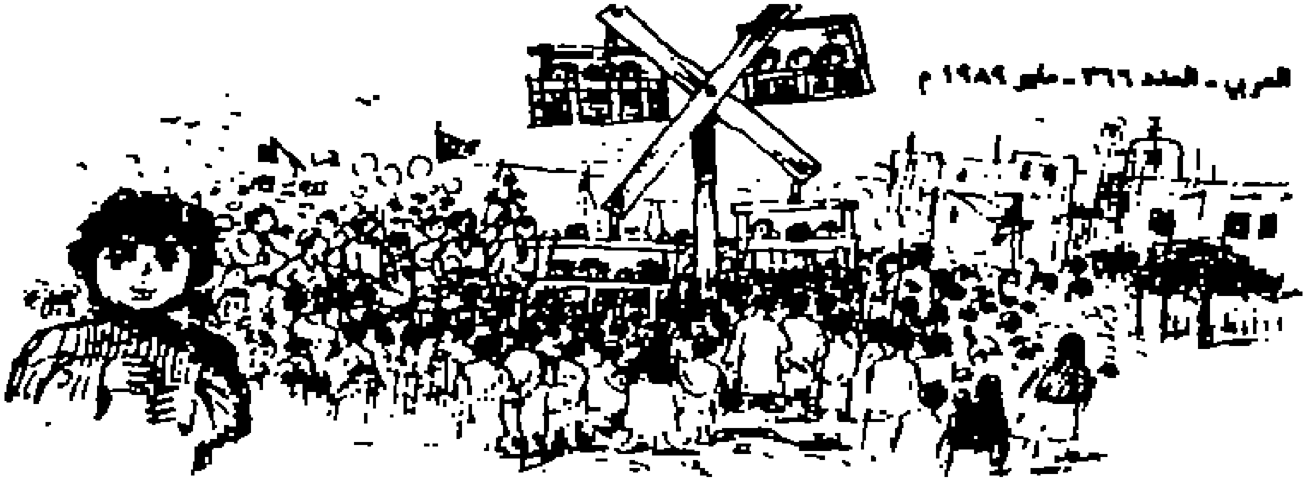
حاول فنش أن يحدد الوقت الذي ستتم به كل هذه الآمال ، فحسب أن القوة التركية ستبدأ بالانحلال عام ١٦٥٠ ، وستنتهي عام ١٦٩٥ بعد ذلك ، واعتقد أن اليهود سيعيدون بناء مدينة القدس ويعيدون اقامة امبراطورية داود . ومن ثم كانت استعانته بالنبوءات اليهودية ، فقال : « إن أرض فلسطين ستثمر بعد الاحتلال اليهودي ، وسيكثر فيها اليهود ، وستحل فيها السعادة والرخاء ، وستصل حدودها إلى أكثر مما كانت عليه من قبل ، وستخضع جميع الشعوب المجاورة للمملكة اليهودية ، وأما الرافضون فسيقضى عليهم ، وسيبدأ زمن جديد في التاريخ البشري . وبهذا يزول الخطر التركي عن بريطانيا ويحل محله حليف الى الابد » .

كما ذكرنا استاء الملك جيمس من كتاب فنش ، وطلب من لورد مهاجمته ، وتناول لورد الموضوع في عظة تمسه عيد ميلاد الملك ، فنبه الى أن أفكار فنش عن دولة يهودية في فلسطين وعن استيطان اليهود في القدس ، وبناء المعبد وكل ما الى ذلك من ظواهر الاستعمار ما هي إلا أفكار مرفوضة تماما من قبل المعتقدات الدينية ، وما هي إلا أخطاء يهودية واجتهادات رجال « في القمر » ـ أي مجانين ـ

ومع أن فنش تنصل من دعوته اليهود لاستيطان فلسطين ، إلا أن فكرته وجدت العديد من الكتاب والشعراء الذين أقبلوا عليها ، والعديد الآخر الذي رفضها بشدة . وامتد بين هذين الفريقين جدل طويل ، ومتشعب امتد من أوائل القرن السابع عشر حتى القرن العشرين انتهى بانتصار الكتاب الذين آزروا فكرة فنش وقلم « كيان الدولة » التي زرعت في فلسطين . . ! □

● لو أن الكلام يعاد لنفد. (الإمام علي)

● المرأة الجميلة خيال، والمرأة الدميمة حقيقة. (شوبنهور)



موّال حُزن

على أنقاض عيدٍ عتيق

بقلم : سليمان الفهد*

العيد له معان متعددة كثيرة ، أفضلها ما لصق في ذهن الإنسان أيام الطفولة ، ومع تغير الزمن يتغير الإحساس بالعيد ، والكاتب الذي عرف بأسلوبه المتميز لايكتفي برسم صورة العيد التي رسخت في ذهنه أيام الطفولة ، لكنه يحاول أن يرسم صورة للعيد في سني القرن الواحد والعشرين . ترى ماذا يقول ؟

لو كنت موجودا في الكويت إبان عيد الأضحى الماضي ، لكنت لاحظت أن العيد قد حل دون حضور المعيدين ، أو دون حضور كثير منهم على الوجه الأدق ، إذ احتفى بالعيد قلة من المواطنين ، وأعني بالاحتفاء الوجود والحضور ، لأن العيد أصبح لمعظمنا مناسبة للسفر إلى الخارج ، أما من لم يتمكن من السفر من المواطنين والمقيمين فهم وحدهم الذين يحتفلون بالعيد .

هذه الصورة عكس صورة العيد في الكويت قديما ، فقد كنت تدخل المسجد الجامع الذي يهتز بالمكبرين والمهللين يملأون صحنه ويفيضون خارجه ، أما اليوم فإن صلاة العيد لا يحضرها ذلك العدد الكبير من الناس .

ومع أننا لسنا بصدد كتابة بحث عن « العيد في الزمن النفطي » ، إلا أنه يمكن لنا إبداء بعض الملاحظات والافتراضات حول أسباب قلة أعداد المحتفين بالعيد ، وغياب مشاعر البهجة والفرح وقيم التواصل والتراحم ومظاهر الاحتفالات الشعبية !

---

* كاتب كويتي عرف بأسلوبه المتميز ، يشغل حاليا منصب رئيس القسم الثقافي بصحيفة الوطن اليومية الكويتية .

ولعل « العبدلله » ليس بحاجة إلى الإشارة بأن الظاهرة ليست نبتا بريا ظهر من فراغ ، لأن الناس كافة يشعرون بأن عيدهم الذي خبروه في كويت البحر والغوص ، وكد البر والصحراء ، ذلك العيد المترع بالحب والفرح والذكر والعبادة لاحتفالية الشعبية قد تأثر « بعوامل التعرية النفطية » ، ففي اللحظة التي تم فيها هدم أول بيت طيني من الديرة العتيقة إبان عقود الخمسينيات من العصر النفطي « تطيّر » عيدنا نحن الجيل المخضرم ـ فضلا عن جيل الآباء والأجداد ـ من بشارة « مقدون هدم »، « وعيدية » تثمين البيوت القديمة ثم هدمها وبناء كويت « الكويكريت والكنديشن* » ... [illegible] الحديثة ! وبدأ [illegible] لاعتقاده بأن [illegible] متهدم بيوت الطين وقيمه وتقاليده وعاداته ! وقد وصف المتحضرون حينئذ [illegible] ـ بأنهم [illegible] بالفقر ، ولا تختلف عن الغربان التي تعشش بين الأطلال ووسط الخرائب العتيقة ! وقضية الغربان هذه تعي وتؤمن بأن المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، وأن فتنة « مقسوم » التثمين وإغراءه تصعب مقاومتها ، لكنها ـ مع ذلك ـ لا تخفي خشيتها من أن تكون زينة الحياة الدنيا هي « المال والمصارف » ! لا سيما أن البنين يرقدون في أحضان المدينة الأجنبية !

غاب العيد وحضر النفط

« والعبدلله » هنا لا يريد ممارسة العادة « العربانوية » الأصلية الكامنة في وضع مسئولية ما حدث للعيد على كاهل غيره ، أو أن يعلقها على مشجب النفط « طال عمره » ، فمثل هذا المنحى قد يكون مقبولا و « مبلوعا » وسط سياق سجالي يتمحور حول التساؤل العتيد عمّا إذا كان حضور النفط في حياتنا اليومية نعمة أم نقمة ؟! وهو لا يريد ممارسة العادة المذكورة ، لأن السجال ـ بداية ـ قد أشبع بحثا وقولا عبر دروس الإنشاء في حصة اللغة العربية ، ومن خلال المؤتمرات والندوات ، فضلا عن هذرة الديوانيات والمنتديات وغيرها !

زد على ذلك أن السجال نفسه لم يؤد إلى طائل ، بل إلى « طل » لا جدوى منه سوى تسجيل المواقف والنوح على الأطلال « واللعنة » بالمواعظ التي تضيع وسط تضاريس الخريطة الاجتماعية الجديدة للكويت الحديثة « الطافحة » بالنفط والمال والمصارف وغيرها من « رموز الكويت النفطية » !

عيدنا وعيدهم

إن « العبدلله » يعتقد ـ [illegible] ـ أن كل جيل يجد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الذين [illegible]



* الكنديشن : لفظة شعبية ، يسمى به مكيف الهواء Air — Condition

أقول : إن عيدنا خير وأنفع وأمتع وأبهج وأزين وأثرى ، لأنه عيد تحتشد له الجوارح والمشاعر ، وتترقبه النفس بشوق وحنين ، وتحتفي به صبغة شمولية تشبع الروح والوجدان والمعدة ! كيف ؟ سأقول لك كيف لم لاتلحقني مرتدا إلى عقود الخمسينيات حيث توقف الزمان ، وتكون الساعات بدون عقارب ، ونعيش عيدنا على الورق ! عيدكم مبارك .

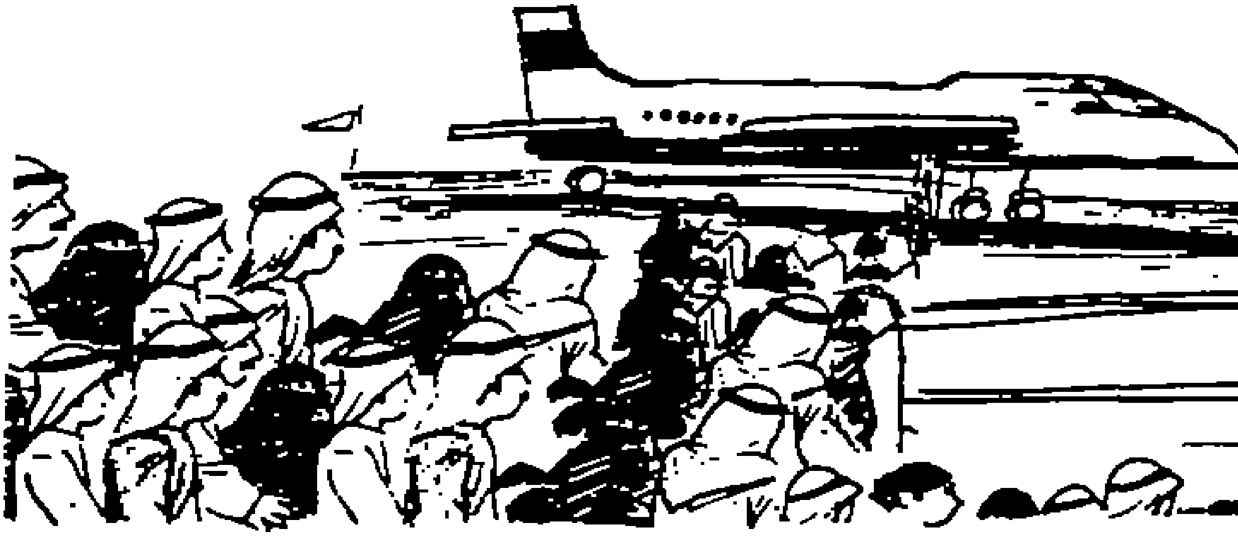
السكون يخيم على بيوت الطين ، لايعكر صفوه سوى نباح كلاب « المرقاب » وقولة « صاحي » يهتف بها « النواطير » بين حين وآخر . زد على ذلك - إن شئت - أصوات الديكة ونهيق الحمير وشخير الناس الآمنين أو المصابين بجيوب أنفية ! وغير ذلك من إيقاعات كويت الخمسينيات التي لم تلق بعد « حلاوة » خيرات النفط !

نور الفجر يضيء السماء والأرض متشحا بالفرح والسكينة ، ونداء « الله أكبر ، الصلاة خير من النوم » يشنف الأسماع ، ويوقظ الناعسين ، ويتسلل إلى مراقد المتكاسلين ، محرضا إياهم على النهوض والإسراع نحو « المطلاة » في المسجد .

عبق البخور وأريج العطور يسكنان نسيج ملابسنا الجديدة ، وخطواتنا نحو المسجد - نحن الأطفال والصبيان آنذاك - تتراقص فرحا ووجدا ، وتملأ الأسماع « تهليلة العيد » ، لتغمر النفس بمشاعر وجدانية لا تحيط بوصفها الكلمات ! يحتضنك المسجد الجامع العامر بالتوحيد والتواصل والحب ، والدعاء والبسملة والحوقلة ، والكلمة الطيبة ، والطيب والبخور والعطور ، وعبق التهجد والذكر ، وكان الواحد يسمع ويشهد ملحمة التوحيد وعبودية المسلم لله سبحانه ، وما أن تنتهي خطبة العيد والصلاة حتى تتصافح العيون وتحضنك وكذلك القلوب والأيدي ! ومن القلب يتفق اللسان بقوله « عيدكم مبارك ، وعساكم من عواده » ، لأن « عيدنا » محبة وتواصل وتراحم ، ونفي لأي مشاعر أو عادات « نفطية » أو سلبية لافرق ، الأمر الذي يوجب علينا أن نطرح سؤالا حيويا ، أو ندعه يطرح بحكم السياق ، وهو : ماذا بقي واستمر من روح عيد الكويت الطينية ونكهته وملامحه وصفاته وقيمه وعاداته وتقاليده وطقوسه في التسعينيات بعد مرور حوالي أربعين عاما على ولادة الديرة الجديدة الحديثة ! وهل ثم عيد يفرح له وبه الأطفال والصبيان في زمن الهروب الجماعي الكبير من البلد أثناء إجازة عيدي الفطر والأضحى وغيرهما ؟ إلى آخر الأسئلة التي تقفز إلى الخاطر كلها حق هلال العيد ! .

وحسبنا أن نلاحظ أن الطفل الكويتي - وكذلك أقرانه في الديار العربية الخليجية النفطية - لا يشعر بحضور العيد ! ربما لأن المرافق الترويحية ، ووسائل التسلية والفرحة موجودة طوال العام ، الأمر الذي يجعل أيام العيد مثل بقية الأيام ، ولأول وهلة تشي هذه الجملة بأن الحياة اليومية للأطفال والصبيان جميعها « عيد » وفرح وترويح ! والحق أنها ليست كذلك ، لأن الفرق بين أيام العيد وبين الأيام العادية يكمن في كم ممارسته للترويح ليس إلا ، فعلى سبيل المثال ، تجد الأطفال يلعبون الألعاب الترويحية في « المدينة الترفيهية » إلى حد التخمة ، بفضل « مقسوم » وايراد « العيدية » الذي يمكنه من زيادة اللعب بدون أن يتبع عن ذلك المنحى - بالضرورة - زيادة في كم المتعة والسرور وما إلى ذلك من مشاعر إيجابية تفجرها أيام العيد التي خبرناه - نحن الجيل المخضرم - في شوارع كويت ما قبل النفط وحاراتها وأسواقها وساحاتها . ومن هنا تجد أن الكثيرين يهجرون الوطن ويهرعون نحو المطار لقضاء العيد في صفاة* لندن « هايد

* نسبة إلى ساحة الصفاة ، الساحة الرئيسية في الكويت .



بارك » ، أو في التسكع والصعلكة والتسوق والبحلقة في خلق الله في أسواق باريس وجنيف وغيرهما !

وصار العيد - في السنوات الأخيرة - مناسبة للهروب من البلد ، وفرصة لامتطاء الطائرات وعبور الحدود ! حتى أن الفرد بات يخشى من ذلك اليوم الذي « نعيِّد » فيه بواسطة البرقيات والتلكسات والهواتف الدولية المباشرة ، دون الحاجة إلى التواصل مع الآخرين ! ومن يدرى ماذا سيحدث بعد عدة سنوات ، فقد نختفي ونحتفل بالعيد بواسطة « الريموت كونترول » ، وعدة التقنية الحديثة ! كأن يتم نحر الأضاحي (وفق الطريقة الإسلامية) بالاستعانة « بجزار روبوت » ياباني أصيل ! وترسل « العيدية » بالبريد المستعجل عبر حوالة مصرفية دسمة ! وكفى الله المعيِّدين « عناء » التواصل وتبادل الزيارات والتراحم .

العيد القطري سنة ألفين !

تأسيا بالدراسات والبحوث المستقبلية التي تستشرف آفاق الغد الآتي من رحم المستقبل !

في عيد الأضحى الماضي الذي تزامن حضوره مع موسم الهروب الكبير من الديرة لتمضية الإجازة الصيفية للمدارس والمعاهد والكليات الجامعية في البلاد السياحية العربية والأجنبية ! أقول في ذلك العيد (خيّل إليّ في اليوم الثالث منه أننا نعيش حالة منع تجول ! كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر ، و « السيارة » تطوى شارع المطار طيًّا ، كأنها فرن ملتهب من شدة القيظ والحر ! ولأول مرة أشعر بأن الأخ الزميل « غازي الجاسم » ، رئيس التحرير « الصيفي » بصحيفة « الوطن » ، غير قلق أو خائف من مغبة قيادتي للسيارة ، لأن الشوارع - ولله الحمد - خالية من المارة و « السيارات » ، فالناس هجروها إما إلى بيوتهم اتقاء للحر والهروب من منغصاته بقيلولة ينام فيها الفرد على وسادة محشوة بأحلام السفر وللذاته الطيبة أو الخبيثة حسب نيته ! أما النوع الآخر من المهاجرين الذين تسببوا في ظهور حالة منع التجول السالفة الذكر فإنه يكمن في الفئة المهاجرة حقيقة لا حلماً .

قال لي صاحبي وهو يحاورني - بينما نحن نتربع متململين على مقاعدنا التي قدّت من نار - ، أو هكذا بدت لنا !

قال : أراك ساهما ، هائت ، كلها كم دقيقة فنصل إلى داري وتعود أنت إلى دارك لترتاح وترقد . . و . . قاطعته - برما بسؤاله التقليدي الذي « يدحرجه » على مسامعي كلما رآني واجما أو

ساكتا أتصبب عرقا أو أبحلق في إشارات المرور - وقلت : الحق أنني أفكر في « ديكارت » ، قال : ديكارت ، ما خبره ؟ وهل هذا وقت ذلك ؟ سبحان الله في طبعك . . ديكارت مرة واحدة (قال ذلك وهو يصفق الباب مهرولا نحو منزله) . قلت لنفسي : لو كان الفيلسوف الفرنسي « ديكارت » مواطنا عربيا خليجيا نفطيا ، فربما غير مقولته الشهيرة (أنا أفكر ، فأنا موجود) بأخرى غيرها تناسب واقع الحال ! كأن يقول « أنا أضارب بالأسهم والأوراق المالية ، إذا أنا موجود ! » أو « أنا حاضر في سوق الأوراق المالية . . إذا أنا موجود وحي يرزق يكسب الملايين في طرفة عين » !

أقول ذلك لأن للآثار التشويهية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية لنكبة سوق الأوراق المالية « المناخ » ● من الآثار السلبية التي عقبت الأزمة والمعالجة من قبل الحكومة والمواطنين على حد سواء .

فقد كانت هذه البلية بمثابة الامتحان على وضع الإنسان العربي في الكويت على المحك لاختبار معدنه ومواطنيته وقيمه . وكل ما يشكل وجدانه !

وقد أثبتت الوقائع والأحداث التي اكتنفت هذه البلية أن العلاقة الإنسانية بين الإخوة والأقارب والأصدقاء مثل العلاقة التي بين الدول ! حيث تدوم وتستمر بدوام حضور المصلحة وتزول بغيابها . ومن هنا يقال بأن الصداقة بين الدول ليست دائمة وأزلية ، بل إنها مرهونة بتبادل المصلحة المادية !

علاقات مجتمع النفط

وقد أزعم بأن العلاقات في مجتمع كويت النفط والمال ، وهي النمو السريع الذي لايكلف كدا ولا جهدا ولا عملا ، فأقول : إن العلاقات بين الكثيرين منا قد نخرتها سوسة المصلحة المادية الذاتية ، إلى درجة أن بعض المعزين الموجودين في المقبرة للقيام « بواجب » التعاطف مع ذوي المرحوم وأقاربه لا يجدون غضاضة في ممارسة لعبة المضاربة بين القبور ، لأن القوم مسكونون بلعبة المغامرة المقامرة ، ولا يقدرون على الفكاك منها حتى في مناسبات الأفراح والأتراح التي تستوجب من اللاعبين قطع اللعب والتوقف عن ممارسته فترة وجيزة ! ومن ثم يعوضون « الوقت الضائع » في المجاملات الاجتماعية بتمديد فترة اللعب إلى وقت متأخر من الليل . !

ومن هنا يمكن أن نحدس ونستشرف أفق اللعب خلال سنة ألفين !

إن آثار فتنة « سوق المناخ » السلبية نفسها ستصبح متلاشية بمدة قصيرة قريبة عن الإنسان الخليجي الذي خرج من بحر [illegible] منذ . ليرصع القيم والتقاليد والعادات الحميدة التي سكنت المدينة الخليجية الحديثة التي قامت على أنقاض الكويت العتيقة . والتي نخبرها جيدا نحن الجيل المخضرم ! ما علينا . أما الذي عنيت هذه الساعة فهو أن تنطلق بي لنسبق الزمن لنحط رحالنا ومناخنا في « الكويت سنة ألفين » وإن شئت التحديد والتفاصيل هذا « السيناريو المستقبلي » نورد لك التفاصيل على النحو التالي :

الزمن : القرن الحادي والعشرون .

التاريخ : النصف الثاني من رمضان الواقع في سنة ٢٠١٥ م .

المكان : مقر ديوان الموظفين « المؤقت ! » .

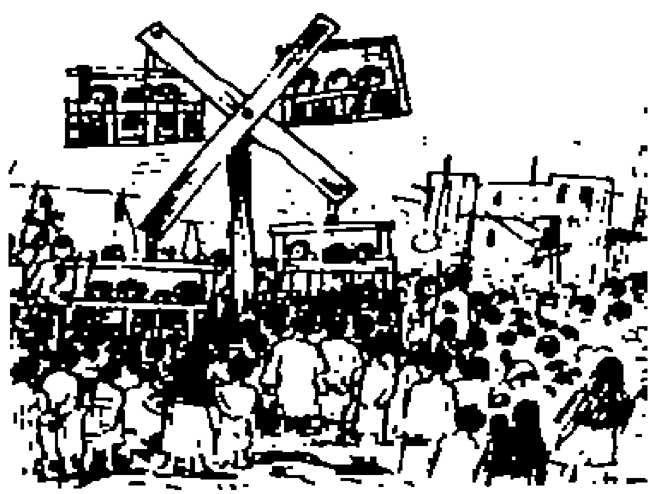
المجتمعون : هيئة الرؤية الإدارية .

الموضوع : تحديد زمان عطلة إجازة عيد الفطر القادم ومكانها

الخبر . اجتمعت هيئة الرؤية الإدارية لاختيار الأماكن المناسبة لتمضية إجازة العيد خارج حدود

● سوق المناخ : هو سوق الأوراق المالية بالكويت

الوطن ! وأعلن مصدر مسؤول في الهيئة بأن النية تتجه إلى اختيار ثلاث مدن سياحية تضم في متجعاتها السياح الكويتيين كافة . وقد تم اختيار هذه المدن بناء على رصد ومسح وتقويم لخدماتها المتقدمة في الاتصالات السلكية واللاسلكية ، الأمر الذي يمكن كل المواطنين من الاتصال بأهلهم وذويهم وأصدقائهم عبر الهاتف المرئي الملون بالالوان الطبيعية ، ومن ناحية أخرى فإن محطات التلفزة في هذه المدن السياحية ستقوم بنقل مباشر لشعائر صلاة العيد من « الوطن الأم » ، ليتمكن الإخوة السياح من أداء المشاركة الوجدانية والروحية عبر الأقمار الصناعية ! وأفادت الهيئة بهذا الصدد بأنه لاصحة إطلاقا للإشاعة التي راجت بين عامة المواطنين السياح حول مشاركة الأهل في الديرة صلاة العيد التلفازية ! بمعنى أن يؤدي المواطن هذه الصلاة وهو قابع في فندقه أو شقته ، بحيث تتزامن مع صلاة العيد المنقولة تلفازيا عبر الأقمار الصناعية من مسجد الدولة الكبير في الكويت ! وتستطرد الهيئة قائلة : بأنه على الرغم من أن الإفتاء في مثل هذه الأمر منوط بالجهات المختصة ، إلا أنها تعتقد بأن أي تلميذ في المرحلة الدراسية المتوسطة ، يحفظ « شروط صلاة الجماعة في العيد ، ويتذكر مغزاها وحكمتها ومنافعها » .



● العرضة : رقصة شعبية كويتية .

ومن هنا فقد تكون الإشاعة السالفة الذكر « مطبوخة » في محطات التلفاز السياحية التي ستتولى نقل شعائر صلاة العيد . إذ استطاعت الحصول على كم كبير من الإعلانات التجارية التي ستبثها بعد الصلاة مباشرة !

وقد أهابت الهيئة بالمواطنين بضرورة المحافظة على جوازات السفر المصنوعة من « الليزر » المتعذر تقليدها وتزويرها حتى إشعار تقني آخر ! فقد لاحظت الهيئة أن بعضهم يسيء استخدام هذه الجوازات الليزرية ، وكأنهم يتباهون باقتنائها ، الأمر الذي يثير حفيظة وحسد « الأجانب » الموجودين في المدن السياحية المختارة لتمضية إجازة عيد الفطر !

وقد اتفقت الهيئة مع بلديات هذه المدن على إقامة الزينات الوطنية والألعاب الترويحية للأطفال والصبيان ! كما تعاقدت مع الفرق الفنية المختصة على تقديم عروض فنية لكل الفنون الغنائية « الفلكلورية » الخاصة بالعيد ، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الفرقة الموسيقية السيمفونية ستتولى عزف « ملحمة رقصة العرضة »*، رقصة الحرب والحب والأعياد والمهرجانات ، بمصاحبة « كورال » وراقصين « للباليه » معتبرين ! باختصار : ان العيد سينقل إليهم بقضه وقضيضه بالاتفاق مع الجهات السياحية المعنية في الدول المضيفة لمهاجري الديار النفطية !

هكذا كان الخبر (التعميم) الصادر عن « هيئة الرؤية الإدارية » بمقرها « المؤقت » في مبنى ديوان الموظفين .

التعليق : يسأل عنه إدارة الاعلام في شركة نفط الكويت وأخواتها !

الختام : عيدكم مبارك ، نقولها بكل اللغات الحية والمتحضرة والمقبورة ، نعم ، « عيدكم مبارك ، وعساكم من عواده » . □

أرقام

بقلم : محمود المراغي

«ترمومتر» للعلاقات العربية

هذه محاولة لرصد العلاقات العربية بالأرقام ، ربما كانت المحاولة الأولى من نوعها ، وربما كانت غير كافية لاتخاذها كدليل على التحسن أو التردي في العلاقات العربية ، لكنها ذات دلالة على أي حال .

يقول التقرير « الاستراتيجي » العربي الصادر عام ١٩٨٨ ، عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام : إن عام ١٩٨٧ كان عام وقف التردي ، ثم يدلل على ذلك بمجموعة من الشواهد ، بينها : حفنة أرقام عن اللقاءات العربية - العربية .

في ذلك العام الذى اتخذه المركز عينة للدراسات الرقمية :

* كان هناك (١٣٨٦) لقاء عربيا .
* بينها (٢٩٩) مؤتمرا .
* وبينها (١٤٤) لقاء على مستوى رؤساء الدول أو من يمثلهم .

وبتحليل الأرقام التي أوردها التقرير ، وقال : إنها « حصر بقدر الممكن والمتاح من المعلومات » نجد :

١ - أن هناك لقاء عربيا - عربيا كل ست ساعات . قد يكون سياسيا أو اقتصاديا أو ثقافيا : لكن المهم أن دورية الاجتماع : كل ربع يوم ! كذلك هناك مؤتمر عربي كل ثلاثين ساعة ، ولقاء قمة كل ستين ساعة أو نحو ذلك ، سواء في شكل لقاءات ثنائية أو جماعية .

٢ - معظم اللقاءات يتم من خلال الزيارات ، فهناك (٦٦١) زيارة ، تبادلها المسئولون العرب ، وهى زيارات على ثلاثة مستويات :

الوزراء : ويحتلون معظم المساحة ، ورؤساء الدول : ويحتلون المساحة التالية ، ثم رؤساء الوزارات : ويحتلون المساحة الأقل ، مما جعل التقرير يتوقف أمام ذلك ، ويقول : إن النظام العربي قد اعتبر رؤساء الوزارات مسئولين - في الأساس - عن قضايا الداخل - القضايا المحلية - بينما شغل الرؤساء بالسياسة العربية والخارجية .

٣ - عدد المؤتمرات (٢٩٩) مؤتمرا ، أي أن هناك - على وجه التقريب - مؤتمرا كل يوم . وبالتحليل نجد أن النصف للسياسة ، والقليل للاقتصاد ، والبقية لمنظمات ولقاءات وظيفية .

٤ - كانت أكثر الدول نشاطا وحضورا في

اللقاءات بشتى أنواعها هي المملكة الأردنية (١٣٥ لقاء) .

وللمقارنة ، وعلى الرغم من أن « العلاقات المصرية ـ العربية » لم تكن قد استؤنفت بكاملها ، فقد كان الحضور المصري في (١١٨) لقاء ، وكان ترتيب مصر في الحضور الثاني بعد الأردن ، وتليها المملكة السعودية (١١١ لقاء) . وكانت الصومال في آخر القائمة (١٨ لقاء فقط) .

٥ ـ ونتيجة للترتيب السابق كان الملك حسين هو الأكثر حركة ، فقد قام في ذلك العام وحده بـ (٢١) زيارة للأقطار العربية ، واستقبل رؤساء أقطار عربية ثلاث مرات ، فضلا عن انعقاد مؤتمر القمة في عمان .

ماذا يبحثون ؟

طبقا للعناوين التي سجلها التقرير فإن السياسة تحتل المكان الأول ، وتليها شؤون الاقتصاد ، وكذلك فإن العلاقات الثنائية تأخذ « كمّاً » أكبر من الاهتمام ، لكن الهموم الجماعية ذات نوعية أخطر ، فمنها : حرب الخليج ، وقضية فلسطين ، والخلافات العربية ـ العربية التي أخذت العديد من أشكال الاهتمام . ومحاولات رأب الصدع .

في تقرير مركز الدراسات « الاستراتيجية » أن عام ١٩٨٧ وحده قد شهد (٤٢) اجتماع وساطة ، (أي بمعدل اجتماع كل تسعة أيام) ، وان من بين هذه الاجتماعات ستة عشر اجتماعا على مستوى رؤساء الدول . أما موضوعات الخلاف التي تجرى بشأنها الوساطة فهي عديدة :

* فهناك الخلاف الفلسطيني ـ الفلسطيني .
* وهناك الخلاف اللبناني ـ اللبناني .
* وهناك العديد من الخلافات السورية مع العراق ، وتركيا ، ولبنان ، ومنظمة التحرير الفلسطينية . (ولم يسجل التقرير الخلاف مع مصر ، حيث كان ذلك في سياق المقاطعة العربية حينذاك) .

* وهناك الخلاف الجزائري ـ المغربي .
* وهناك حرب الخليج وأحد طرفيها عربي .

وقد نشطت الوساطات العربية لتصفية هذه الخلافات . وحول الخلاف العراقي ـ السورى قام الملك حسين بست زيارات للبلدين في ذلك العام ، كما تحرك الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات لنفس الغرض ، ولكن مازال الخلاف كما هو .

الشيء نفسه بالنسبة للخلاف السوري ـ الفلسطيني ، ولكن هناك خلافات جرت تسويتها ، أو في سبيل التسوية .

بتأمل الأرقام السابقة يمكن القول إن نتائج جهود الوساطة لم تكن صفرا ، ولم تكن مائة بالمائة ، إنها في نقطة وسط بين الإخفاق والنجاح ، لكن هناك تقدما على أي حال . من خلال ذلك يمكن تصور النتائج المتواضعة للعمل السياسي المشترك ، والعمل الاقتصادى الأكثر تواضعا .

لقد كان العرب ـ ومازالوا إلى حد ما ـ مشغولين بخلافاتهم وصراعاتهم الجانبية ، ومازالوا يتحركون أكثر مما ينجزون ، ويطرحون للبحث أكثر مما يحسمون .

واذا قلنا : إن النظام العربي قد أنجز (١٣٨٦) اجتماعا في عام ، وبمعدل اجتماع كل (٦) ساعات ، كما أوضحنا ، فإن ذلك معناه أن أحدا لايستطيع أن ينكر تلك الرابطة التي نسميها « عروبة » ، لكن أحدا ـ أيضا ـ وبإستثناءات تاريخية ، لم يستطع أن يجسد هذا الرباط ، فيحيل هذا الكم الهائل إلى مجرى النهر العظيم ، النهر العربي الذي يضم كل الأقطار . هكذا بدت الصورة عام ١٩٨٧ ، ومازالت ونحن في عام ١٩٨٩ . □

النظـــريّـــة

قصة قصيرة بقلم :

سعيـــد ســـالم

- ١ -

لحظات من العمر معدودة ، إن غفلت الذاكرة عن شيء فلا تغفل عنها طول العمر . تجيء كما يجيء الصفاء لتنير البصيرة وتعتق القلب من همه والنفس من حيرتها . في البدء ظننتها تمتنع عني فلا تجيئني إلا بمشيئتها المجردة مهما اشتدت حاجتي إليها ومهما بلغ مني العزم على إرادتها ، لكن السنوات علمتني أن استدعاءها بالصبر والدربة والمثابرة أمر ممكن .

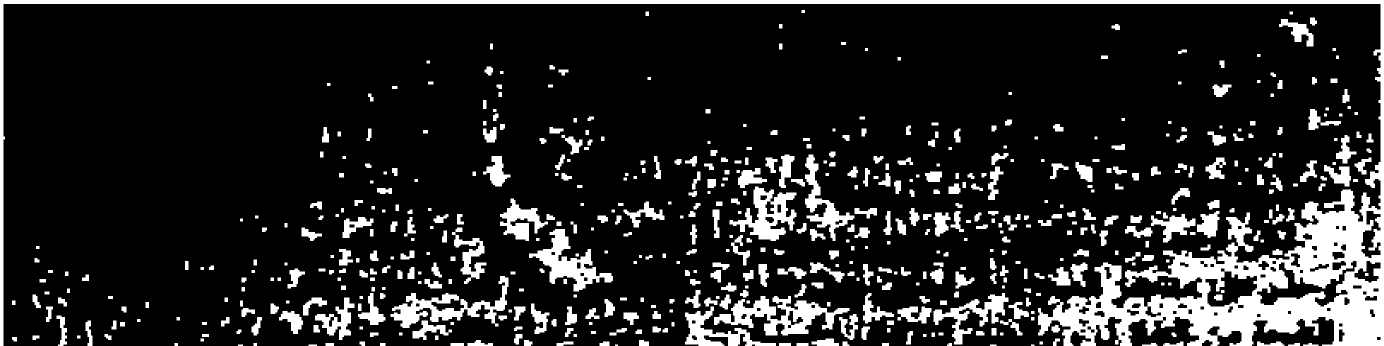
اليوم جاءتني تلك اللحظات الشفيفة الخارقة لتنبئني بما يشبه اليقين ، إن الحياة الكريمة في زماننا قد أصبحت مستحيلة إلا في حالتين لا ثالثة لهما : أن تتمتع إما بالسلطة وإما بالثروة وإما بكلتيهما ، أو أن تتمتع بعبقرية فذة للتعامل مع الحياة في غيبة هذين الشرطين .

والحقيقة أن هذا المعنى كان راسخا في ضميري منذ سنوات . لكن الجديد في الأمر أنني ألهمت اليوم فقط - ولأول مرة - بصياغة هذا الاحساس الصامت المنكمش صياغة لفظية ، في ثنايا حوار عابر مع صديق يمر بأزمة . استمعت الى شكواه وأنا الشاكي ، فكنت على دراية عجيبة بالتفاصيل الدقيقة لقصته المؤلمة أثناء روايتها ، وقبل أن يصل الى نهايتها المأساوية دون أن أعرف عنها شيئا من قبل .

ولقد شعرت بارتياح شديد عندما نطق لساني بهذه الصياغة ، وكأنما بتصريحي هذا قد اكتشفت - دون أن أدري - حلا جذريا لمشكلة وجودي على قيد الحياة ، في المكان والزمان الآنيين . حينئذ لابد أن تمحى من الذاكرة كل الأفكار والأحداث والأسماء الأدمية التي لا تساهم في اكتشاف حلول جذرية أخرى مماثلة .

« يعز من يشاء ويذل من يشاء » ، يهمس لي قلبي أحيانا بالحكمة من وراء ذلك « ويرزق من يشاء بغير حساب » .

لكنني - كشأن معظم المثقفين - أكتفي بالقول دون الفعل . أقدم التفسير والتبرير لشقائي ، ولم أجرؤ قط على تجاوز النظرية الى التطبيق ، فسمات الفاشلين دائما هي كثرة الكلام وقلة الانجاز ، وأنا خجل من نفسي لأنني لم أفكر من قبل ولو للحظة واحدة في امكانية الجمع بين النقيضين . لماذا لا أكون أديبا وصاحب سلطة أو ثروة أو أن أجمع بين الثلاثة معا ؟ . من المؤكد أنه ليس بالأمر المستحيل ، بل إنه الاختيار الوحيد ، لكل من لا يدعي لنفسه التمتع بعبقرية التعامل الفذة مع هذه الحياة بلا سلطة أو ثروة . لقد تبوأ كثير من زملاء الدراسة الأغبياء مناصب كبيرة ، كما أن الأشقياء الذين كانت تحذرني أمي من الاختلاط بهم والذين كانوا يكتبون أسماءهم بعناء شديد ، قد أصبحوا اليوم من أثرى أثرياء



[illegible] القمة من [illegible]
يعلو [illegible]
وتراجع الكهولة في [illegible] أمام الشباب ،
التي لم تعد هناك زينة لاسترجاع يوم في
أيامه ، وصرنح [illegible] غير مطلوب
هذا المكان . بضاعتي راكدة بكثرة لا طلب
عليها ، وهي في النهاية مجرد سطور مكتوبة ، لا
يعنى بأمرها سوى قلة من المهووسين ومعظمهم من
الفقراء . على الرغم من ذلك فإنني أتشبث بها
بأسناني وأظافري ، وإلا أصبح وجودي غير مبرر
على الاطلاق ، وهذا مالا أرتضيه لنفسي لأنه
يهدد باختلال توازني فاكتابي لقضاء أيامي
الأخيرة في مصحة نفسية .

وأمسك بتلابيب تلك اللحظات ، قبل أن
تهرب مني وتتركني للهم المعتاد ، هدفي أن أبدع
وأعيش حياة كريمة في آن واحد ، وهو فيما أحسب
هدف مشروع . فلماذا تغاضيت عن عائق الكهولة

[illegible]
وهذا ما لا أستطيعه على وجه اليقين
حتى لو استطعت ونجحت ، فهناك عقليات
شرسة تتطلع للقمة فمها الكريه كاشفة عن
أنيابها السامة . فالجالسون على المقاعد المزازة لن
يسمحوا لي بالاقتراب ، والجالسون على خزائن
الذهب والفضة لن يسمحوا لي بمجرد التفكير في
الاقتراب ، فالمحاسبة على النوايا أمر وارد ،
والغوص في سراديب السرائر أمر وارد ، حتى
زملائي الأدباء الذين أنتمي الى قبيلتهم سوف
يتهمونني ـ وما أكثرهم ـ بالردة والخيانة وبجريمة



السعي الى السلطة او الثروة من قبل ان اخطو خطوتي الأولى لتحقيق أحد الهدفين المشروعين . .

ـ ٢ ـ

في غمرة شرود ، عبر الطريق الرئيسي بالمدينة دون أن يرقب العربات من حوله ، كان حمله ثقيلا فتمخضت قدماه على الأرض ، وارتبكت خطواته مثلما ارتبكت أفكاره وتبعثرت شتاتا في فضاء حيرته الفسيح . أمامه مباشرة تمكن سائق « الشيفروليه » من إيقاف عربته المسرعة قبل أن تدهسه . أفاق صاحبنا لنفسه ونظر فزعا إلى العربة ، ليلمح صاحبها جالسا على المقعد الخلفي يدخن سيجارا ضخما . خطرت بباله فكرة أن يعتذر له عن خطئه فهو وحده المسئول عن قدميه المتخبطتين وذهنه الشارد . أطل الرجل بسيجاره من نافذة العربة وقال له بعجرفة هادئة تكاد تخلو من أثر انفعال :

ـ حاسب يا حيوان

ومرت العربة في طريقها حين تسمرت عيناه على اللوحة المعدنية الخلفية كمن يرى طوق نجاة بين أمواج بحر عاصف . كان رقمها مائة بالتمام والكمال . اي أن صاحبها ذو حيثية في المجتمع ممن لا تعطى مثل تلك الأرقام المميزة إلا لعربإتهم . لم يستمتع بلذة النوم كما لم يحظ بيقظة صافية وفي الصباح توجه الى ادارة المرور . جلس الى مكتب صديقه يدخن سيجارة في انتظار نتيجة الفحص ، بعينة المنال أنت أيتها الذرا العالية ، على الرغم من ذلك فكم من جرذان تلهو فوق قمتك الشاهقة . لم تطل فترة الانتظار . أغلق الصديق الملف وقال بانبهار :

ـ إنها عربة الخربوطلي بك يا رجل !

منحك الله الموهبة وأنعم عليك بالقدرة على الإبداع في أتعس ظروف انسانية على هذا الكوكب الغريب . عليك أن تدرك هذا وتحمله .

ـ ومن هذا الخربوطلي إن شاء الله ؟

ـ يبدو أنك لا تعيش معنا ، ألا تعرفه حقيقة ؟

بل إنني أعيش معكم أيها التعس منذ زمن طويل ، ولكني لست أعرف دليلا حقيقيا يؤكد على ذلك .

ـ ومن أين لي أن أعرفه ؟ ، اسألني مثلا عن نجيب محفوظ أو نيكوس كازانتزاكيس .

ـ يا أديبنا العظيم ، هذا الرجل يمتلك ما لا يقل عن خمسين مليونا من الجنيهات ، هات أذنك ، اذن فأنا أعيش بينكم لا معكم ، موجود وغير موجود . حياتي ميتة بكم ، وبدونكم يشوب موتي الحياة .

ـ وهل يحول هذا دون إمكاني أن أقدم بلاغا ضده بتهمة السب العلني ؟

تلقى صديقه السؤال باهتمام مشوب بالحذر ، ثم قال بهدوء وثقة :

ـ هذا السؤال إجابتان . أفترض في الأولى أنك تعيش معنا فأجيب بنعم ، وأجزم في الثانية بانك مغيب عنا تماما فأجيبك بلا .

هام في الطريق وتمخطت قدماه من جديد . أي مخلوق على هذه الأرض يمكنه الآن أن يدرك مدى ألمه أو أن يستشعر مرارة غضبه ؟ حيوان ؟؟ .

ـ ٣ ـ

لم أكن مستعدا للاستماع الى عبارات المجاملة والمسائلة من أصدقائي الأدباء بلعن أهل الثراء وسبهم وإلصاق كل الصفات الرذيلة بهم ، لأنني مؤمن بقضية الرزق والرزاق ، ولأنني أيضا لست أعتقد حتى هذه اللحظة في أن كل الأثرياء لصوص ، ما أحراني اذن أن أجنب نفسي نظرة شماتة ماكرة أو حكمة ناعمة خبيثة أسمعها من أحدهم حين ينصحني مؤكدا أنه لا عليم فوق علمه ولا عارف فوق معرفته ، فلمن أتوجه الآن بقهري وهزيمتي وأدميتي المنكرة ؟ .

فالحتي قدماي الى عم إبراهيم بائع المجلات والصحف العجوز ، حياني بحرارة وقال :
ـ وحد الله يا أستاذنا ودع عنك هذا الكدر .
حاولت الاستجابة الى دعوته فوقفت أتصفح بعض الكتب التي وردت إليه مؤخرا . كنت أقرأ العناوين والفهارس دون أن أفهم شيئا ، أما الزحام فكان شديدا ، ولقد عجبت أن يزداد الزحام أمام بائع الكتب وفي مثل هذا القيظ الشديد . أنا لا أفهمكم أيها الناس . تساقط عرق غزير من جبيني فمددت يدي تلقائيا إلى جيبي الأيسر لألتقط منه المنديل ، بينما تعلق بصري بجريدة عربية غالية الثمن . كنت أنوي أن أتصفحها ثم أعيدها الى مكانها استنادا الى علاقتي الطيبة بعم إبراهيم .
فوجئت بشاب عملاق البنية يقبض على يسراي بعنف بإحدى يديه ثم يمسك بقميصي من صدري بيده الأخرى صائحا في ثوره وهياج :
ـ تريد أن تسرقني أيها اللص ؟
لم ادر ماذا حدث لي . فجأة وجدت نفسي واقفا أمام المحقق بمبنى الشرطة والصفعات تنهال على وجهي وقفاي من كل الجهات الأصلية . العملاق يجلس أمامي يحتسي القهوة من فنجان أنيق ، والذهول قد استبد بي وبقهري وهزيمتي وآدميتي التي سبق إنكارها مرة أخرى من قبل .
قال المحقق بلهجة ساخرة :
ـ أتترك كل من بالميدان وتسرق « همام » بك ؟
ـ هذا جنون . أنا لسرق ؟
ـ لا داعي للإنكار . لقد أخرج يسراك من جيبه وهناك شهود على ذلك
ـ سوف أبرق إلى وزير الداخلية بما لحقني من إهانة وأذى على أيديكم
انفجر المحقق والعملاق في الضحك معا وقال الثاني :
ـ صحيح إنك لص وقح
ثم لم يكتف بذلك ، وإنما قام ولكمني في وجهي بينما انهمك المحقق في حوار هاتفي . بعد قليل أقفل للمحضر وأمر المحقق أن أبيت محتجزا في « التخشيبة » مع اللصوص والمجرمين حتى تبت النيابة في أمري ظهر اليوم التالي .

ـ ٤ ـ

أصدر أمرا قاطعا بإلقاء القبض على كل من الخربوطلي وهمام ، مع تجريد الأول من أمواله والثاني من رتبته الوظيفية المهمة . قادهما ضابط كبير إلى مكتبه بالوزارة . حاول الضابط أن ينافقه بأن يسب المتهمين أمامه فنهره وطرده من مكتبه . وقفا أمامه برأسين منكسين . قال لنائبه بهدوء :
ـ لن نجري التحقيق هنا
ـ أين نجريه إذن يا سعادة الباشا ؟
ـ في عزبتي بالفيوم
قرر على كل منهما عندا عددا من مؤلفاته القصصية ، عليه أن يقرأها ويعيد استيعابها قبل ان يبدأ التحقيق معه . ولقد أمر لهما بالطعام والشراب وحسن المعاملة خلال فترة استضافتهما بالضيعة حين أن ينتهيا من دراسة الكتب المقررة . وعندما انتهى المتهمان من القراءة الإجبارية لهذه المؤلفات تأكد بنفسه من ذلك ثم سأل أولهما بثبات شديد
ـ هل يستطيع حيوان قراءة ما كتبت ؟
ثم سأل الثاني
ـ هل يمكن للص أن يضيع عمره في كتابة ما قرأت ؟
فكانت اجابتهما بالنفي المؤكد .
بلغت سعادته ذروتها إذ ثبتت صحة نظريته بما لا يقبل للشك مجالا . خلع ملابسه وراح يرقص نشوان بين أشجار المانجو ، ولعله بكى من شدة السعادة حتى انهارت قواه فرقد تحت شجرة ثرية الظل ونام نوما عميقا .
لم يستيقظ الا عندما جلبه الشرطي من قفاه وألقى به في العربة « البوكسفورد » التي تحمل المتهمين الى النيابة . ☐

ملف



نجيب محفوظ

عالم واحد ورؤى متعددة

من بين كل الممالك ، تبقى مملكة الأديب وحدها بدون خريطة نهائية ، تبقى كل خرائطها الفكرية والفنية قابلة لأن تتسع أو تضيق أو يعاد تلوينها طولاً وعرضاً وعمقاً مع كل قارىء جديد ، يحمل نظرة فكرية أو نقدية جديدة .

لعل من أهم نتائج فوز أديبنا الكبير نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، أن خريطة أدبه بخاصة ، بل وخريطة الأدب العربي بعامة ، سوف يعاد فيها النظر ، عندما يبدأ قراء جدد قراءة هذا الأدب ، ويتجولون في مملكته الواسعة .

وحين تقدم مجلة « العربي » ملفاً عن أديبنا الكبير نجيب محفوظ ، فإن المسألة تتعدى مجرد المشاركة في الاحتفال بمناسبة كبيرة ، بل إنها في صميمها مشاركة في الجهود التي بذلت - وما تزال تبذل - لاكتشاف معالم جديدة في خريطة المملكة الأدبية لهذا الأديب .

ومن هنا كان حرصنا في هذا الملف على تنويع التناول لجوانب مختلفة من أدب هذا الكاتب الأديب وعالمه .

والآن نتركك - عزيزي القارىء - لرحلة نأمل أن تكون ممتعة ، بقدر ما هي مفيدة مع هذا الملف .



نجيب محفوظ مبدعا

«وجهة نظر نفسية»

بقلم الدكتور : شاكر عبدالحميد سليمان *

« إن تاريخ الحضارة ، في جوهره ، سجل لقدرة الانسان على الإبداع »

« عالم النفس أ . أوسبورن »

لعل مقولة « الأسلوب هو الرجل ذاته » التي أطلقها المفكر الفرنسي « جورج بوفون » في القرن الثامن عشر في مقالة شهيرة تجد « مصداقها » الحقيقي في شخص نجيب محفوظ ، والأسلوب الجيد في رأي بوفون يتطلب خاصتين رئيسيتين هما الوحدة والخطة المحكمة ، فالأسلوب ليس إلا النظام والحركة اللذين يضع المرء فكره في إطارهما . فإذا ما قيدهما وضيقهما فسوف يكون الأسلوب مغلقا ، متوترا مقتضبا ، وإذا ماتركهما تتوالى حركتهما في هدوء ولا يلحق بهما إلا ما كان وثيق الصلة من الكلمات ـ أيا كانت أناقتها ـ فسوف يكون الأسلوب منبعثا وسهلا ومسترسلا .

« إن الروح الانسانية » لا تستطيع أن تخلق شيئا من العدم ، ولن تنتج إلا بعد أن تكون قد أخصبتها التجربة والتأمل » .

ويقول برفون : لكي يكتب المرء جيدا ، ينبغي أن يهيمن أولا على موضوعه ، وينبغي أن يفكر فيه بالقدر الذي يسمح له أن يرى بوضوح نظام أفكاره ، وأن يصوغ ذلك النظام ، في قالب متتابع ، وسلسلة متصلة ، تحمل كل حلقة منها فكرة ، « إن الانتاج الذي يعرف صاحبه جيدا

---

* استاذ مساعد بقسم التربية وعلم النفس كلية التربية والعلوم الاسلامية ـ جامعة السلطان قابوس ـ مسقط .

كيف يكتبه ، هو الذي يبقى للأجيال القادمة . »

هل يمكننا أن نقول : إن ما يسميه علماء النقد والبلاغة الأسلوب هو ما نسميه في علم النفس الشخصية ، باعتبار أن الشخصية هي مجموعة الخصائص والسمات المميزة لشخص ما ، والتي تستمر معه ثابتة فترة طويلة من حياته ؟ هل يمكن أن نقول : إن الأسلوب هو الشخصية باعتبار أن الأسلوب يكشف الكثير من الخصائص العقلية والمزاجية والإيقاعية لصاحبه ؟ هذا ما نحاول أن نتعرف عليه في هذه الدراسة ، من خلال تركيزنا على شخصية كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، صاحب الأسلوب الخاص والشخصية المميزة

الأساليب المعرفية :

يتحدث العلماء في دراسات الشخصية عما يسمى « الأساليب المعرفية » ، ويقصدون : كيف يحصل الناس على المعلومات من البيئة المحيطة بهم ؟ ثم كيف يعالجون هذه المعلومات ؟ فبعضهم يحصل على المعلومات بسرعة ويفقدها بسرعة ، ويسمى النوع المندفع ، وفي مقابل ذلك ، هناك نوع آخر من البشر يتأمل ويتريث وينتظر قبل أن يجيب ، وعلى هذا البعد يمكن أن نضع نجيب محفوظ دون تردد في فئة المتأملين . إنه يفكر كثيرا في الحياة والواقع والناس . نعرف أنه عندما يبدأ في كتابة رواية ما ، يضع ملفا لكل شخصية ، ويكتب فيه كل ما يطرأ عليها من تغيرات . (لاحظ فكرة الملف وارتباطها بتراث الموظف المصري) .

ميز الشاعر الأمريكي « ستيفن سبندر » في كتابه « إنتاج القصيدة » بين نوعين من التركيز الإبداعي . فبعض الكتاب يكتبون أعمالهم بطريقة مباشرة ، وعندما تكتب فإنها نادرا ما تحتاج إلى المراجعة . أما بعضهم الآخر فيكتبون عدة نسخ ، وعلى مراحل ، بحيث أنهم عندما يصلون إلى النهاية تكون علاقة النسخة الأولى بالنسخة الأخيرة علاقة ضعيفة . وضرب « سبندر » مثلا لذلك اثنين من كبار الموسيقيين العظميين - باعتبار أن الموسيقا تحتاج إلى كتابة وتأليف ، مثلها مثل الأدب ، وإن اختلفت رموز الكتابة وطريقتها في الحالتين - هما « موزارت » و « بيتهوفن » . فالأول كان يكتب بسرعة بطريقة مباشرة ، وأثناء رحلاته ، وخلال تعامله مع عديد من المشكلات . يكتب « السيمفونيات » كاملة غير منقوصة . أما « بيتهوفن » فقد كان يكتبها شذرات متفرقة من الموضوعات في مفكرته ، ويحتفظ بها بجانبه ، ويكملها عبر السنين . وغالبا ما كانت أفكاره الأولى غير بارعة ، لكنه كان قادرا على أن يصنع منها أشياء عظيمة بعد ذلك . والفرق بين الأسلوبين أن الأول قادر على أن يسبر الأعماق بطريقة خاطفة ، وبمجهود خارق سريع متواصل ، أما الثاني فيحفر طبقة وراء طبقة ، أعمق فأعمق ، والمسئول عن أي من الحالتين هو الرؤية الفنية التي ترى وتواصل حتى تصل إلى الهدف ، وهذا هو منطق العمل الفني . هذا هو الأسلوب ،

وهذا هو الرجل ذاته . الأسلوب الأول أنتج لدينا في الأدب كاتبا مثل « يوسف ادريس » ، وربما كان تفضيله لشكل القصة القصيرة السريعة الموجزة المكثفة فيه بعض التفسير لهذا الأسلوب . أما الأسلوب الثاني فأنتج لنا ذلك الحفار في أعماق المجتمع والبشر ، وهو نجيب محفوظ ، وكلاهما من أصحاب الأساليب ، وكما نعرف فقد يجرب الكاتب الأسلوبين ، التأملي والمندفع في أوقات مختلفة من حياته ، لكنه يظهر تفضيلا خاصا بشكل عام لأحدهما على الآخر . هذا اذن هو الأسلوب المعرفي للرجل ، الانتظار والتريث والصبر والدأب والعمل والكدح . فالشخص التأملي أكثر ميلا للاستمرار في عمله من الشخص المندفع ، فالتأملية هي التي تؤدي وتدفع نحو الاستمرارية في العمل ، لأن هناك خطة محكمة ونظاما ووحدة على الرغم من التنوع . وهذا هو أشد ما تحتاجه شعوب مثل

شعوبنا ، لذلك فقد كشف لنا نجيب محفوظ ـ النموذج والقدوة ـ عن أهمية دافعية الانجاز والانتاج والتمكن والسيطرة على العمل ، أي أهمية دوافع التفوق والابداع . هذه الخصائص المزاجية التي أرى أن من بينها التواضع والانطواء والتحفظ ، على الرغم مما يظهر عند المستوى السطحي من انبساطية وحب للظهور وسخرية ومرح . إنه أقرب إلى الانطوائي الذي لا يعلن عن نفسه إلا بالعمل والانتاج ، ومثل هذه الشخصيات العظيمة ليست شخصيات أحادية البعد ، بحيث يمكن أن نصفها بكلمات قليلة موجزة ، إن الأمر يحتاج منا إلى أن نحفر أعمق فأعمق في الطبقات الداخلية لهذه الشخصية . وإحدى الوسائل الأساسية للحفر ـ في طريق هذا الفهم ـ أن نحاول استكشاف الآليات الأساسية التي تتحرك من خلالها هذه الشخصية . ونتقف أولا برهة عند أهم محطات الصراع التي مر بها هذا الكاتب الكبير عبر حياته .

محطات للصراع :

في البداية كان هناك صراع في نفس نجيب محفوظ ، ما بين الأدب والفلسفة ، « كما ذكر هو نفسه لجمال الغيطاني في كتابه المهم « نجيب محفوظ يتذكر » ، واستمر هذا الصراع فترة طويلة ، وبعد تخرجه من قسم الفلسفة بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٣٤ ، ظل يكتب بعض القصص القصيرة . ومنذ سنة ١٩٣٧ كرس نفسه للفن الروائي ، لقد حسم الأمر لصالح الرواية ، أو هكذا قال .

محطة أخرى توقف عندها نجيب محفوظ ، هي محطة التاريخ ، وكانت والدته ذات أثر كبير في هذه الناحية ، حين كانت تأخذه دائما لزيارة المتاحف والأماكن الأثرية ، كالأهرام و « الانتكخانة » ، وأبي الهول . وقد حدث صراع في نفس كاتبنا ما بين كتابة التاريخ القديم وكتابة التاريخ الحديث . بحث محفوظ أولا عن المرحلة المضيئة ، مصر الفرعونية كما قال ، لأنه كان يرى أن الواقع في مصر في ذلك الوقت كان خافت الضوء حالك الظلام ، في ظل الاحتلال الانجليزي والوالي التركي . وفي النهاية قرر نجيب محفوظ أن يتخلى عن كتابة التاريخ القديم من خلال الأدب ، وأن يحفر أكثر فأكثر في عمق الحاضر المعاصر .

المحطة الثالثة كانت هي محطة الوظيفة . . حدث صراع في نفس نجيب محفوظ ما بين الأدب والوظيفة ، ونتيجة للحاجة المادية التزم محفوظ بالوظيفة . واستمر يكتب الأدب ، بعد ذلك ، اكتشف محفوظ أن الوظيفة هي مصدر أو وسيلة للمشاهدة والتعامل مع نماذج مختلفة من الشخصيات ، لقد توظفت لمدة ٤٥ سنة والوظيفة شيء والأدب شيء آخر » .

المحطة الرابعة هي محطة السياسة : الوفد أم الثورة ؟ كان محفوظ ومازال وفديا أقرب إلى يسار الوفد أو الطليعة الوفدية . ثم عندما جاءت الثورة تحفظ محفوظ . ثم تحمس لها ، ثم انتقدها . تحمس لايجابياتها وتحولاتها لبناء المجتمع الجديد ، لكنه انتقد السلبيات العنيفة التي ترتبت على الحكم الفردي والاستئثار بالسلطة في مصر .

المحطة الخامسة حدث فيها صراع ما بين الزواج والأدب ، كان محفوظ يظن الزواج عائقا أمام الأدب ، ولذلك تأخر محفوظ في زواجه إلى ما بعد الأربعين ، ثم عندما تزوج اكتشف أن إنتاجه الأدبي لم يتأثر ، بل ربما ازداد . يمكننا القول إذن أن « الآلية » الأساسية التي كان يتحرك من خلالها نجيب محفوظ كانت كما يلي :

في البداية صراع من أجل الاختيار بين شيئين ، إما « أ » أو « ب » ، إما الفلسفة أو الأدب ، ثم يختار الأدب ، إما كتابة التاريخ أو الأدب ، ثم يختار الأدب إما الوظيفة أو الأدب ، وهنا لا يحدث اختيار تفضيلي ، بل يتم الجمع بين طرفي الصراع

بشكل واضح ، إما الثورة أو الوفد ، ثم الثورة بايجابياتها والوفد بإيجابياته ، إما الزواج أو الأدب ، ثم الزواج بايجابياته التي تدعم الأدب والكتابة ، إما المجتمع القديم أو المجتمع الجديد ، ثم المجتمع القديم والمجتمع الجديد وفي رأيي أن محفوظ لم يتخل قط عن الفلسفة ، بل لقد تخلى عن التخصص في الفلسفة . لكن الفلسفة ظلت كامنة في داخله ، تؤثر في رؤيته للأشياء ونفاذه وراء سطحها الظاهر ، مع احساسات خاصة بالدهشة ، ورغبة عميقة في الاستكشاف والمعرفة ، وكذلك الحال بالنسبة للتاريخ ، فنجيب محفوظ أشبه بالمؤرخ أو عالم الاجتماع لفترة خاصة من التاريخ العربي في مصر . ومع ذلك فهو ليس مؤرخا أو عالم اجتماع ، إنه كاتب مبدع ، والمنجم الحقيقي للكتابة ، يوجد لديه في الماضي (التاريخ - الطفولة - تاريخ الانسان الآن وهنا بدلا من تاريخ الأمة في الماضي وهناك » . كان محفوظ يتحرك من خلال التسوية أو الحل الوسط ، فبعد المرور من مرحلة إما « أ » أو « ب » ، وبعد التأمل وإعمال الفكر ، يكتشف محفوظ أن هناك إمكانية للتعايش ما بين « أ » و « ب » في مركب جديد . ووفقا « هيجل » فإن الوعي أو الروح خلال تطوره يمر بمرحلة من الفكرة إلى نقيضها إلى مرحلة أكبر شمولا هي مرحلة مركب النقيضين . كذلك كان الأمر في حالة نجيب محفوظ . فقد كان دائما ما يصل إلى مركب إبداعي خاص ، شديد الخصوصية ، لكل المتناقضات . هذه هي محطات الصراع . صراع « دينامي » يشير إلى الحركة والنشاط والعقل والاختيار والإبداع .

الاستمرارية والانقطاع :

لكن هناك في حياة نجيب محفوظ محطتين ، توقف فيهما مسار قطاره الإبداعي . ولم يكن « مركب النقيضين » فيهما ناجحا أو ناجعا في تسيير حركة هذا القطار لديه : المحطة الثانية كانت بعد هزيمة ١٩٦٧ ، واستمرت مدة عام ، وهذه يسهل تفسيرها ، وقد شاركه فيها أدباء عديدون في مصر والوطن العربي ، بسبب تلك الظروف الهائلة التي زلزلت أرجاء وطننا العربي ، ومازلنا نعاني آثارها حتى الآن . أما المحطة الأولى ، وهي موضع الاهتمام الأكبر هنا ، فهي تلك المحطة التي نلاحظها في قائمة مؤلفات محفوظ بشكل خاص في الفترة الزمنية التي تقع من من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٦ ، وكما يكشف لنا عنه بشكل واضح ذلك المنحى المصاحب للمقال الذي رسمناه للتعبير عن مساره الابداعي عبر خمسين عاما . فماذا كان يفعل نجيب محفوظ في هذه الفترة ؟

(١) أولا : في ابريل سنة ١٩٥٢ انتهى محفوظ من كتابة الثلاثية ، وكان قد ظل يعمل فيها ٤ سنوات ، إذن فالسنوات من ١٩٤٩ - ١٩٥٢ لم تكن سنوات توقف ، بل سنوات من الانتاج والعمل ، ولم تنشر الثلاثية (التي كانت في البداية عملا كثيرا - حوالي ١٢٠٠ صفحة - باسم بين القصرين) إلا عام ١٩٥٦ .

(٢) المشكلة الأساسية إذن في السنوات من ١٩٥٢ - ١٩٥٦ وهي سنوات اليأس الأدبي كما سماها كاتبنا ، وقد قال إنه كان خلالها يشتهي الموت . فماذا حدث خلال تلك السنوات ؟

أ - سنة ١٩٥٢ قامت ثورة يوليو ، وحدث صراع في نفس نجيب محفوظ ما بين إخلاصه القديم للوفد ، ومحاولة تبني مبادئ الثورة الجديدة . وقد ظل - ربما بتأثير الخوف أو التردد أو الترقب أو ما شابه ذلك من الانفعالات - ينتظر الوقت المناسب لتحديد موقفه ، وظل حتى النهاية وفديا ، لكنه ظل متحمسا أيضا لايجابيات الثورة على الرغم من قيامه بانتقاد عيوبها كما سبقت الإشارة .

ب - في سنة ١٩٥٤ تزوج محفوظ ، وكان قد تجاوز الأربعين ، وقد كان الأمر يحتاج منه إلى محاولات جديدة للتكيف مع حياة جديدة لم يعتد عليها .

ج ـ سنة ١٩٥٤ حدثت أزمة مارس ، حيث اشتد الصراع بين الجناح العسكري والجناح الذي يميل للمدنية في قيادة الثورة ، وقد انتهى الأمر بسيادة الجناح العسكري كما هو معروف .

د ـ كان المجهود الكبير الذي بذله محفوظ في الثلاثية يحتاج إلى توقف ما ، لإعادة ترتيب الأوراق ، والنظر إلى الأمور من خلال وجهة نظر جديدة .

هـ ـ ظل محفوظ يكتب حوالي عشرين عاما (ما بين ١٩٢٩ إلى ١٩٤٩) دون أن يذكره أحد ، وقد كانت أولى المقالات التي كتبت عنه تلك التي كتبها المرحوم سيد قطب والمرحوم أنور المعداوي . وقد كان ذلك كفيلا بدفعه إلى الأمام لا إلى الخلف .

و ـ إن ما ذكره محفوظ من أن الثورة حققت الأهداف التي كان يسعى إليها ليس صحيحا . بل ربما كان ذلك بمثابة « التقية » أو درء الشبهات (كما قال هو نفسه بعد ذلك) .

ز ـ قال محفوظ في كتابه « عشرة أدباء يتحدثون » لفؤاد دوارة « أتعلم ما الذي جعلني أستمر ولا أيأس ، لقد اعتبرت الأدب حياة لا مهنة . فحينما تعتبره مهنة لا تستطيع إلا أن تشغل بالك بانتظار الثمرة . أما أنا فقد حصرت اهتمامي في الانتاج نفسه ، وليس بما وراء الانتاج . كنت أكتب وأكتب لا على أمل أن ألفت النظر إلى كتاباتي ذات يوم ، بل كنت أكتب وأنا معتقد أنني سأظل على هذه الحال دائما » إنها الدافعية الداخلية ، دافعية العمل نفسه ، التي سماها « جوردون البورت » « الاستقلال الذاتي الوظيفي » ، فالصياد الذي كان يقوم بالصيد من أجل إشباع الاحساس بالجوع لديه ، أصبح يقوم الآن بالصيد ، لأنه يجد متعة في الصيد إنها أيضا الحالة التي يسميها علماء النفس الآن « الدافعية الداخلية » وهي الدافعية التي تظهر في لعب الأطفال ونشاطات المبدعين بشكل خاص .

الأعمال التي تعبر عن فرد منعزل في مقابل مجتمع كبير يكاد يبتلعه ـ كما في « اللص والكلاب » ١٩٦١ ، و « السمان والخريف » ١٩٦٢ و « الطريق » ١٩٦٤ ، و « الشحاذ » ١٩٦٥ ، كما أنتج عددا كبيرا من المجموعات القصصية بعد فترة التوقف هذه . إن الأمر قد يتضح لنا بشكل أفضل إذا ما نظرنا إلى الطبيعة الخاصة لتلك القدرات التي تقف وراء الابداع .

قدرات الإبداع :

يتحدث العلماء عن مجموعة من القدرات المميزة للمبدعين في المجالات المختلفة ، فيتحدثون مثلا عن طلاقة الأفكار ، أي كثرتها العددية ، ثم يتحدثون عن الأصالة ، أي جدة الأفكار وطرافتها ، ويتحدثون كذلك عن مرونة الأفكار ، أي تحررها من القوالب النمطية في التفكير ، من الأطر المتجمدة والقصور الذاتي والتكرار والاجترار . واعتقد أن الصراع الحقيقي في عقل محفوظ كان يدور أساسا بين الكثرة وبين



التنوع ، بين الكم وبين الكيف ، بين الطلاقة من ناحية - أي كثرة المؤلفات من الناحية العددية - وبين الأصالة والمرونة من ناحية أخرى . والتوقف يعني قلة الكم والكيف ، فالتوقف يعني عدم الانتاج ، لكنه قد يعني أيضا التفكير في إمكانيات جديدة للعمل (أصالة - مرونة) .

إننا نجد عبر التاريخ الأدبي والعلمي للبشرية امثلة واضحة لهذا التباين ما بين الكم والكيف ، فمثلا - نجد أن « مرجريت ميتشيل » - صاحبة رواية « ذهب مع الريح » - لم تنتج سوى هذا النص . كذلك كان الحال بالنسبة « لاميلي برونتي » مؤلفة رواية « مرتفعات وذرنج » قبل ذلك . ومع ذلك فقد سجلت هاتان الكاتبتان اسميهما في سجل الخلود الأدبي . اما الأسباني « لوب دي فيجا » (١٥٦٢ - ١٦٣٥) فقد أنتج ما يعادل ٢٠٠٠ نتاج إبداعي ، ومن ثم فهو اغزر الأدباء على مر التاريخ ، ويعرف من هذه الأعمال ٧٢٥ عملا . والموجود منها فعلا ٤٧٠ نتاجا ابداعيا فقط .

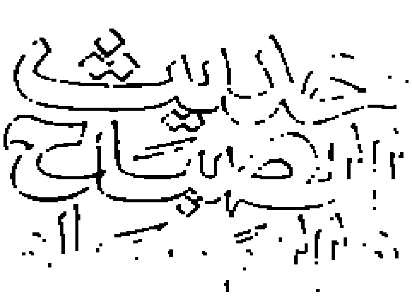
كذلك انتج « فرويد » ٣٣٠ عملا في ٤٥ سنة ، وانتج « بيكاسو » عدة آلاف من اللوحات والأعمال الفنية في ٧٥ سنة ، وأنتج « اينشتاين » ٢٤٨ عملا في ٥٣ سنة ، وأنتج « دارون » ١١٩ عملا في ٥١ سنة . إن هؤلاء المبدعين يقضون وقتا أطول من غيرهم في العمل من أجل هذا الانتاج الهائل .

إن درجة التزام المرء هنا بعمله قد تكون هي الفارق المهم الأساسي في التمييز بين المبدعين وغير المبدعين ، إن الدافعية العالية وحدها لا تكفي لتكوين مبدع كبير ، فالشخص قد تتوافر لديه دافعية كبيرة ، وينتج أعمالا كثيرة (طلاقة) ، لكنها لا تضيف جديدا لحل المشكلات المهمة ، أو لا يكون لها تأثيرها المقيم . هنا يدور الصراع بين الطلاقة والأصالة ، بين الكم والكيف ، هنا يكون لتغير وجهات النظر - أي للمرونة - دور كبير .

كميز عالم النفس الأمريكي « سلفاتور مادي » ما بين دافعين أساسيين للإبداع ، فيطلق على الدافع الأول اسم « الحاجة إلى الكفاءة » ويقصد به مجموعة الدوافع التي تقود المرء المبدع إلى المثابرة في التطوير والتعبير عن المواهب والقدرات ، هذه المثابرة هي التي تدفع المبدع نحو التعديل والتنقيح والتحسين المستمر للعمل ، وتكون مسئولة أيضا عن وفرة الانتاج وغزارته ، أما مجموعة الدوافع الأخرى فأطلق عليها « مادي » اسم « الحاجة إلى الجدة » ، وهي ما تجعل المرء الذي يملكها يرى في غير المألوف والنادر وغير المتشابه إشباعات خاصة . وليست الجدة هنا وسيلة لتحقيق المفيد والنافع فقط بقدر ما هي استجابة انفعالية مصحوبة بالدهشة ، إنها هي التي تتناقض مع السأم الذي اعتبره « بايرون » أشد درجات العذاب الانساني قسوة . إن الشخصية المبدعة تمر بخبرات « الحاجة للكفاءة » و « الحاجة للجدة » بشكل مكثف وعميق . وفي حالة ما إذا كانت الحاجة إلى الكفاءة هي السائدة ، والحاجة إلى الجدة هي الأضعف ، فإن الشخص قد يكون متوجها نحو الحرفية أكثر من توجهه نحو الإبداع ، أما إذا كانت الحاجة إلى الجدة هي السائدة ، والحاجة إلى الكفاءة هي الأضعف ، فإن الاتجاه النقيض قد يظهر .

كان توقف نجيب محفوظ أو يأسه الإبداعي الذي أشرنا إليه يكمن - في رأينا - في قبضة ذلك الصراع الذي احتدم في عقله ووجدانه ، ما بين الطلاقة (كثرة الانتاج) وبين الأصالة (تنوع وجدة الانتاج) ، ما بين الحرفية التي تمكن منها إلى حد كبير فوصل إلى قمة الكفاءة ، وبين الرؤية الجديدة التي كان يحتاجها في تلك الفترة ، حين أصبحت الرؤية القديمة تنفتح فترى أركان ذلك العالم القديم تتهدم وتتداعى ، وقد كان محفوظ قادرا دائما على تجاوز هذا اليأس ، والقيام بوثبة كبيرة على طريق الإبداع . □





البنية الروائية كمرآة للتفكك الاجتماعي

بقلم : الدكتور / صبري حافظ

« حديث الصباح والمساء » بلا شك أهم نصوص « نجيب محفوظ » منذ روايته الجميلة (الحرافيش) التي ظهرت قبل أكثر من عشر سنوات . وهذه الرواية الجديدة واحدة من أهم الروايات العربية في الثمانينيات ، ومن أكثرها ثراء بالدلالات والإشكالات معا ، لأنها واحدة من نصوصه الأخيرة الفنية التي تنطوي بنيتها على أهم محددات رؤيتها . والتي يستمر بجدل خصيب بين مبناه ومعناه عن كثير من القضايا التي يمكن الاختلاف فيها مع كاتبنا الكبير أو الاتفاق معه . حسب موقع القارئ على خريطة التذوق الأدبي أو خريطة التفكير السياسي . ولا مجاة من أن يتسم عمل له طموح هذه الرواية الكبير بقدر من الإشكالية والخلافية ، لأن الرواية تطمح إلى استيعاب حركة الواقع المصري منذ فجر مسيرته التحديثية حتى الآن .

جدلية الفضاءين النصي والاجتماعي :

بعد أن كان الفضاء الروائي التقليدي في الثلاثية مثلا ساحة للتفاعل الثري بين الشخصيات ، أصبح في هذه الرواية الجديدة التي تغطي مرحلة تاريخية أطول ، وتقدم لنا عددا من الشخصيات يفوق عدد شخصيات الثلاثية ، وفي أقل من سدس حجمها ، أصبح مجرد مكان للوجود المتجاور الذي اقتضى أن يحكم ظهور الشخصيات فيه لا دورها في حدث معين يجمعها مع بقية الشخصيات الأخرى ، فقد انعدم الدور وتلاشت الفاعلية ، وزال التفاعل الخلاق بينها ، وإنما مجرد وجودها في المكان ، أو انتسابها إلى شجرة تلك الأسرة الوارفة . ومن هنا كان الترتيب الأبجدي لظهور الشخصيات هو الترتيب الأمثل ، ليس فقط لأنه ترتيب يبدو على السطح أن له منطقا ما ، ولكنه في الواقع ترتيب

ما لا ترتيب له ، أو لا منطق له ، ولكن أيضا لأن منطق هذا الترتيب الغريب ينطوي على تقويض الزمن ، والتضحية بمسيرته المتتابعة الحلقات .

ولا يعني هذا أن الرواية بلا منطق أو بنية ، ولكنه يعني أن محتوى البنية نفسه هو أحد وجوه المعنى الأساسية في هذا النص الأدبي الجميل ، فالرواية لا تقول لنا إن الواقع المصري يعاني من التفكك ، وتنهشه الصراعات الداخلية المريرة ، ولكنها تجسد هذا التفكك والصراع وتحوله إلى واقع روائي ملموس ، إذ تقدم لنا سبعا وستين شخصية ، اختارتها مما يقرب من ضعف هذا العدد من الشخصيات التي تنتمي إلى ثلاث عائلات متصاهرة ومتشابكة بروابط الرحم والنسب ، على مر ما يقرب من قرنين من الزمان ، انتاب فيها أبناء الأسرة من التحول ما انتاب مدينتهم ، ولغتهم ، وتصوراتهم ، وقيمهم من زلازل . فالرواية تطمح إلى أن تكون ترمومترا لمجموعة كبيرة من التغيرات الاجتماعية والسياسية والتاريخية ، وأن تقدم لنا تلك المتغيرات من خلال تجسيدها عبر المتغير الروائي نفسه ، وهذا إنجاز يحسب لكاتبنا الكبير . وتوشك هذه الشخصيات السبع والستون ، أو فلنسمها « البورتريهات » الروائية السبع والستين ، أن تصنع لنا في نهاية الرواية شجرة عائلية وارفة لا يملك من يتأملها إلا الرثاء لما انتابها من ذبول ، ولما تساقط منها من أوراق ناضرة ، والإعجاب في الوقت نفسه بما قدمته من تضحيات ، وما حققته من انجازات فردية على الأقل . لأن الانجاز في العالم الذي يسيطر عليه التفكك لا يمكن إلا أن يكون فرديا . بل إن البنية الروائية نفسها ـ في اعتمادها على أسلوب السير أو « البورتريهات الفردية » ـ تطمح إلى طمس الإنجاز الاجتماعي ، أو تغييبه ، دون أن تتيح لنقادها فرصة اتهامها بتجاهله ، لأنها سدت الباب الذي يمكن له الولوج منه ، ومن هنا أصبح تناوله منافيا للبنية الروائية نفسها .

وحتى نتعرف على حقيقة العالم الروائي الذي تبلوره لنا هذه « البورتريهات » ـ التي يقترب بعضها من أسلوب « الاسكتشات » أو ضربات الفرشاة السريعة ، أو الصور القلمية الموجزة ـ لا بد لنا من التعرف على البنى الزمنية والاجتماعية والروائية التي تنطوي عليها هذه الرواية ، والتي تسفر عنها محاولة استقراء الرواية المحذوفة الثاوية في عمق الرواية المكتوبة . فلهذه الرواية ولا ريب ، رواية أخرى لم تكتب ، أو ربما كتبت خطوطها العريضة ، ثم أسقطها الكاتب ، ليقدم لنا عوضا عنها هذه المجموعة من الصور القلمية السريعة لأهم شخصياتها ، أو قل للشخصيات التي رأى الكاتب أنها قادرة على تلخيص كل من بنيتي الرواية الزمنية والاجتماعية . ذلك لأن وراء التفكك البادي على السطح ، والذي يجسده تكنيك السير المرتبة حسب حروف الأبجدية ، مجموعة من العلاقات المتشابكة التي تجعلها رواية وليست مجرد سجل أبجدي لشخصيات لا رابط بينها . وستكشف لنا تلك العلاقات من خلال تناول البنى المختلفة في هذا العمل الروائي .

البنيـة الاجتمـاعيـة

وإذا ما بدأنا بالبنية الاجتماعية سنجد أن هذه الرواية تبدأ بثلاث أسر تقدم لنا العناصر الأساسية الثلاثة الصانعة لنسيج المجتمع المصري العريض ، أو على وجه الدقة للشرائح المتعددة الصانعة لأهم طبقاته ، أي طبقته الوسطى .

أسرة « الشيخ القليوبي » التي تمثل الطبقة الوسطى ذات الأصول الريفية والتي ارتقت إلى تلك المكانة بسبب التعليم المجاني الذي وفره لها نظام التعليم الديني التقليدي في الأزهر . وأسرة « يزيد المصري » ذات الأصل الحضري ، أو الساحلي ، التي تمثل السواد الأعظم من الشعب المصري ، الذي يكسب قوته بعرق جبينه ، والذي تمتزج إيمانه الديني الأصيل بعناصر من

التراث الشفهي والخرافة الشعبية ، والذي يؤمن بأن السبيل الوحيد إلى تحقيق قدر من الارتقاء الاجتماعي يتحقق عن طريق تعليم أبنائه . وأسرة « عطا المراكيبي » التي تمثل ملاك الأراضي الذين كانوا كغيرهم من السواد الأعظم معدمين ، ولكن شاءت المقادير العابثة التي تحكم الملكية العقارية في مصر ، أن تنحدر ثروة معظمهم من المصاهرة . هذه الأسر الثلاث أو الروافد الاجتماعية الثلاث التي نتعرف عليها جميعا في الحملة الفرنسية تربطها معا أواصر الزواج والمصاهرة ، وتنحدر من أصلابها جميعا سلالات اجتماعية ثلاث لا تقل عنها تمثيلا لما جرى في المجتمع المصري . نرى على مدى صفحات الرواية تطورها وتحولات مصائرها على مدى قرنين من الزمان .

أولاها سلالة أسماك القرش الشرهة التي لا ترتدع ولا ترعوي ، والتي تبدأ من « عطا المراكيبي » الذي ارتفع بالمصاهرة من صانع مراكيب بسيط إلى أحد سراة القرن الماضي . وتستمر حتى قطط الانفتاح السمان ، مرورا بمحمود وحسن وماهر وعدنان المراكيبي ، ويبلغ معاوية حتى عقل القناوي ونادر المنهلوي وأدهم وحسني حازم وسرور . وهي سلالة شرهة للمال ، لا تعرف لها وطنا أو دينا سواه ، ولا تتورع عن المتاجرة بكل شيء وأي شيء . لا تعرف عن الوطنية شيئا ، ولا يهمها من أمور السياسة الا تأمين مصالحها أو توسيع رقعة مكاسبها . أما عن عالمها القيمي ومعتقداتها الأخلاقية فحدث ولا حرج ، أناس لا ضمير لمعظمهم ولا خلاق ، يتمركزون حول ذواتهم الصغيرة التي يتصورون أن الكرة الأرضية بأكملها لا تدور إلا حولها . ولا يعرفون من العواطف إلا الفظاظة والشره والأنانية المفرطة . أما بقية العواطف الإنسانية الأخرى من حب وأمانة ووطنية وغيرها فإنها خاضعة لديهم دائما لآخر أسعار الإقفال في « بورصة » مصالحهم .

أما السلالة الثانية فهي النقيض الكامل لتلك السلالة الشرهة الغريبة . إنها السلالة التي ينتمي إليها لحسن الحظ السواد الأعظم من الشعب المصري ، سلالة الإنسان البسيط القانع الهادىء الذي لا يعقد الأمور . وهي السلالة التي تمثل راضية معاوية القليوبي (وهي محور الشخصيات النسائية في هذه الرواية وتوشك أن تكون الرمز الروائي للأم - الأرض - الوطن) نموذجها المصفى . إنها سلالة تجرى البساطة في عروقها مع الدماء ، ويجري معها فيها شيء من العمق والأصالة . وهي - لذلك - السلالة التي تحافظ على مستودع القيم الحضارية والأخلاقية الزاخر الذي صاغته الشخصية المصرية عبر مسيرتها الحضارية الممتدة لآلاف السنين . وهي سلالة ثرية بالتنويعات من الجذع الأصلي لهذه السلالة يزيد المصري (الذي لا يخفى ما في اسمه من دلالات مكشوفة) بطيبته المرحة وبصيرته الثاقبة حتى حامد القناوي بعقله الصعيدي المغلق وأفقه المحدود . من قاسم عمرو الذي حول صدمته الباكرة إلى نوع من البركة الاتكالية ، إلى دنانير بركات التي أطاحت المقادير بفرصتها اللامعة فتشبثت بكبريائها في عناد له طبيعة انتحارية ضيقة الأفق . من عمرو عزيز المترع بالطيبة والرغبة في تأمين مستقبل عياله ، حتى أخيه سرور



عزيز المقهور المليء بالسخط والإحن والإحباط .
تلك السلالة التي تضم رهطا كبيرا من الشخصيات التي تعاني من عيوب كثيرة ، ولكن وفرة حسناتها هي التي تتفوق في نهاية المطاف على تلك العيوب . وسنجد أن أبناء هذه السلالة البسيطة هم الذين كانوا وقود الحروب المختلفة التي خاضتها مصر ضد العدو الصهيوني التي تحرص الرواية على ألا تذكر اسمه أو تشير إلى عدائنا له ، « فأيديولوجية » نجيب محفوظ السياسية لا تزال فاعلة في هذا النص وسنعود إلى هذا الأمر في موضع آخر من هذه الدراسة .

أما السلالة الثالثة التي تقدمها لنا شخصيات هذه الرواية فهي تلك السلالة التي ينتمي الكاتب نفسه إليها ، والتي يمكن أن نطلق عليها سلالة « النخبة المثقفة » المصرية الحديثة تلك السلالة التي يعود أصلها إلى فرعين أساسيين حرصت الرواية على تقديم أصولهما منذ بداية مسيرتها التاريخية : الفرع الأزهري الذي انحدر من أصلاب الشيخ القليوبي وولده الشيخ معاوية ، الذي شارك في الثورة العرابية ، وسجن بعد إخفاقها ، والفرع المدني الذي بدأ بخطف الجند للطفل الصغير داود يزيد المصري بأمر الوالي محمد علي وحبسه في القلعة حتى يكمل دراسة العلوم المدنية ، ثم إرساله إلى فرنسا ليدرس الطب هناك . وتكشف لنا مسيرة الأحداث في الرواية كيف ظل الفرع الأزهري أكثر اقترابا من التيار الشعبي ، وأميل إلى رؤاه من الناحيتين السياسية والثقافية معا ، بينما حوم التيار المدني حول مؤسسة السلطة في مختلف عهودها . صحيح أن الفرعين قد امتزجا وتزاوجا في أحيان كثيرة ، لكن الفرع المدني الذي كانت له الغلبة - حيث اختفى الفرع الأزهري كلية مع مقدم القرن العشرين - زود الرواية بأهم ألوان الطيف السياسي التي عرفها المجتمع المصري في تلك الفترة بما في ذلك ممثلو التيار الديني الذين كان أبرزهم في الرواية سليم حسين قابيل ، الذي يعد على الرغم من تعليمه المدني ، نتاجا حقيقيا للفكر التقليدي والتعليم الديني . ومن أبرز علاقات التناظر بين بنية الرواية الاجتماعية ونسيج الخريطة السياسية التي عاشها الواقع المصري على مدى تلك الفترة الطويلة التي تتناولها الرواية ، أن كلا من ممثلي التيار الديني والتيار الماركسي السياسيين قد انحدرا من أصلاب السلالة الثانية عامة ومن أحفاد عمرو عزيز يزيد المصري خاصة . في محاولة من الرواية للربط بين سعي تلك السلالة لتحسين أوضاع بنيها بالتعليم وبين اشتباك مصائرها بآليات القهر الذي يمارس ضد حلمها المشروع بالخلاص ، مهما كانت سبل تحقيق هذا الحلم ومهما كانت « ايديولوجيته » . أما سلالة المراكيبي الثرية ، وأحفاد الطبيب النابه داود باشا يزيد المصري ، فقد كانت أكثر سلالات النص ارتباطا بمؤسسة السلطة ، فقد



كان منها الباشوات والبكوات أيام العهد الملكي ، وكان منها كذلك الضباط الأحرار في عهد الثورة ، بل وكان منها كبار الانفتاحيين في عصر السادات الكئيب .

خريطة العلاقات والمتغيرات

وإذا كانت هذه الأسر الثلاث وسلالاتها الثلاث هي الصانعة لنسيج البنية الاجتماعية للرواية ، فإن تحولات الواقع الحضاري المصري عبر قرنين من الزمان هي التي سيطرت على طبيعة العلاقات بين شخصياتها . تلك العلاقات التي لا تقدمها الرواية لذاتها ، وإنما لما ترسمه من تحولات دالة في هذا الواقع . فهناك التحولات التي تنتاب تضاريس المدينة وقدرتها الرهيبة على تقطيع أواصر القربى ، وتحويل جغرافيا المدينة الواحدة إلى ممالك مستقلة لا تعبر حدودها إلا في الملمات . فالرواية توشك من هذه الناحية أن تكون سجلا هاما لما جرى لمدينة القاهرة عبر قرنين من الزمان ، ولدور التغيرات الاقتصادية ، ودور التلفاز في تكريس هذا الوجود الاجتزائي للمدينة ، وكيف أدت هذه التحولات إلى بولدر الهجرة المضادة التي تدفع أحد أحفاد عمرو يزيد المصري (صالح حامد عمرو) إلى الهجرة من المدينة إلى الريف ، وإلى إطلاقه لقب مدينة العذاب على القاهرة . وخاصة أن الرواية كلها من نسل المدينة الخالص وليس فيها من الريف - ككل عالم نجيب محفوظ - إلا النزر اليسير .

وهناك أيضا التحولات التي انتابت طبيعة العلاقات الاجتماعية والأسرية ، بما في ذلك تغير أساليب الزواج وتبدل طبيعة النظرة له تغيرا طفيفا ، بينما تراخت بشكل جذري قبضة العلاقات الأبوية ، وبدأت الرواية ، منذ جيل الأحفاد خاصة ، تقدم لنا صورا من التمرد الحاد على سطوة العلاقات الأبوية ، ما كان ممكنا التفكير في حدوثها حتى في أكثر الكوابيس تطرفا قبل جيلين من الزمان . ولا يكتسب تراخي قبضة العلاقات الأبوية في هذه الرواية أهميته فقط من تسجيله لتغير العلاقات الاجتماعية في الواقع الذي صدرت عنه ، ولكن من بلورته لحالة تراخي قبضة السلطة بمعناها الحضاري الواسع أيضا فالتغيرات القيمية لا تقل أهمية عن التغيرات الجغرافية أو الاجتماعية أو التاريخية .

أما التغيرات الاجتماعية التي انتابت نمط حياة الناس وطبيعة توقعاتهم ونوعية طموحاتهم ، فقد قدمت لنا الرواية مجموعة ثرية منها ، بدءا من أشكال السفر للعمل بالخارج ، والهجرة ، والسياحة ، وغير ذلك من أشكال خروج المصري للعالم بمحض إرادته ، بعد أن شاهدنا كيف كان إرسال الابن الأول للتعلم في منتصف القرن الماضي أو بعده بقليل أقرب ما يكون إلى الكارثة التي حاقت بالأسرة دون أن تملك لها دفعا . إلى زواج عدد من الأحفاد من أجنبيات وبدايات الاستقرار في أوربا وأمريكا لفروع من أغصان شجرة تلك الأسرة الوارفة .

البنية الزمنية

ولننتقل الآن إلى بنية الرواية الزمانية في محاولة لاستخلاص التركيبة الروائية الثاوية خلف هذا الجمع الوفير من الشخصيات التي آثرت الرواية أن تقدمها لنا حسب ترتيب أسمائها الهجائي . ذلك لأن وراء هذا الحشد الروائي من « البورتريهات » القصصية التي تتابع بلا منطق غير منطق الأبجدية العشوائي ، ولا رابط غير روابطها اللامنطقية ، بنية روائية تتحرك في الزمن بحساب يشي بتصور له طبيعة سياسية واضحة تتخفى وراء الترتيب الهجائي ، وضربات السرد السريعة التي تستلزمها طبيعة « البورتريهات »



القصصية التي يبني بها محفوظ عالم روايته . فإذا كانت الرواية تبدأ بشخصية أحمد محمد إبراهيم الذي مات قبل أن يبلغ سن دخول الكتاب ، وتنتهي بيزيد المصري الذي « وصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام » ، فإنها تضم بين البداية والنهاية خمسا وستين شخصية أخرى . سنحاول أن نموضعها على خريطة البنية الزمنية للرواية . لكن لا بد أن نشير بداءة إلى أن بداية الرواية بأحمد محمد ابراهيم ، وتعمدها وضعه قبل أحمد عطا المراكيبي الذي كان الترتيب الهجائي يستلزم البدء به يوشك أن يكون عمديا . وكان بإمكان الرواية تجنب هذا الخطأ البسيط باختيار اسم آخر لوالد أحمد [illegible] يبدأ بأي حرف من حروف [illegible] قبل [illegible] [illegible]

فالرواية تريد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مغربية عمرو عزيز ، فموته المبكر يضع النص منذ الصفحات الأولى في قبضة العبث والكارثة . كما أن اختتامه بيزيد المصري وهو الشخصية العمودية التي تفرعت من أصلابه معظم شخصيات النص وأسره الأساسية على نفس القدر من العمدية ، وكأنما يريد الكاتب أن ينهي روايته بالوصول إلى الجذر الأول للسلالة .

ومن هنا فإن للرواية ، شئنا أم أبينا ، بنية زمنية ، وبنية فنية لا بد على القارىء أن يتأملها حتى يستنبط أهم ما ينطوي عليه النص من رؤى ودلالات . فالرواية تبدأ زمانيا بوصول يزيد المصري من الاسكندرية إلى القاهرة بعد أن مات جل أهله في الوباء الذي هلك كثيرا من أهل الثغر « قبل وصول الحملة الفرنسية بأيام » (ص ٢١٦) أي عام ١٧٩٨ وكان يزيد من أسرة عطارين وكان نجيب يريد أن يعارض بهذا الاختيار القول الشائع بأن الذي « بنى مصر كان في الأصل حلواني » ، فالذي بنى مسيرة أسرته المصرية الوارفة مع التحديث كان في الأصل عطارا ، وهي أقرب المهن إلى الدخاخني الألباني - محمد علي - المسؤول عن بداية مشروعها الحديث . وتستمر الرواية حتى منتصف الثمانينيات . إذ نعرف أن شاكر عامر عمرو الذي هاجر إلى أمريكا وأقام بها أثناء عهد عبدالناصر وقطع علاقته بأهله ووطنه ، قد رجع في منتصف الثمانينيات مصطحبا زوجته وأولاده فزار والديه وأخويه وجدته راضية كضيف أجنبي » (ص ١٢١) ومن هنا فإنها واعية زمانيا باختيارات خطة بدايتها . أما خطة نهايتها على نحو [illegible] فهي مدة [illegible] حتى [illegible] ١٩٨١ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] القاهرة قبل [illegible] تلك الأيام [illegible] في صفقة الغورية . ونتعرف على عطا المراكيبي الذي كان يعمل هو الآخر في دكان الصحة لصاحبه المغربي جعفاد المغاوري . كما نعرف على الشيخ القليوبي الذي كان يدرس في الأزهر . وبينما وقع يزيد في غرام فرحة العبياد الجميلة وتزوجها ، كان عطا أحرص منه على استخدام الزواج كوسيلة للرقي الاجتماعي فبنى بسكينة المغاوري ابنة صاحب الدكان الذي يعمل به ، وأصبح وارثا له فيه ثم ورثه له بعد وفاته . ومع أن الصداقة جمعت بين هؤلاء الثلاثة إلا أن الطبيعة فرقت بينهم . فبينما كان يزيد وطنيا يتصف بالشهامة والرجولة ، وكاد يهلك في ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين (ص ١٣٠) ، كان عطا خاليا من تلك الصفات حريصا على مصلحته الخاصة ، بينما كان الشيخ ورعا ودودا يقبل

الناس على علاتهم .

وقد تشابكت مصائر أبناء هؤلاء الأصدقاء الثلاثة . فتزوج عزيز يزيد المصري ، قبيل منتصف القرن الماضي أو في أربعينياته ، من نعمة عطا المراكيبي . وفي العام التالي توفيت سكينة أم نعمة ، فتزوج عطا من الأرملة الثرية هدى الألوزي وترك الغورية وشهد « سراي خيرت » وانتقل إلى طبقة اجتماعية جديدة ، وانجب منها ابنين ، هما محمود وأحمد ، كانا أخوي نعمة في الدم ولكنهما من طبقة اجتماعية مغايرة كلية . وفي العام التالي لذلك تزوج معاوية ابن الشيخ القليوبي هو الآخر ، وبعد ذلك بأشهر مات أبوه - فكان أول الراحلين من الجيل الأول - وورث الإبن عن أبيه مهنة التدريس في الأزهر ثم أنجب حفنة من الأولاد . وبعد أن أنجب عزيز أبناءه الثلاثة (عمرو وسرور ورشوانة) بفترة مات أبوه ، ولم يبق من الجيل الأول غير عطا المراكيبي . وفي هذا الوقت تقريبا كان ابن يزيد المصري الثاني داود (الذي اختطفه الجند صغيرا وحبسوه في القلعة حتى يتلقى العلوم المدنية) يدرس الطب في فرنسا ، ويكرس بعده ومصيره ذلك شرخا اجتماعيا آخر في أسرة يزيد المصري كالشرخ الذي حدث في أسرة عطا المراكيبي .

فلما عاد داود بعد ذلك بسنوات تزوج هو الآخر من سنية الوراق ابنة صاحب الوكالة التي كان يعمل فيها أبوه ، وأنجب منها عبدالعظيم وترقى في المناصب حتى حصل على رتبة الباشوية التي كرست مع الزواج من أسرة الورّاق الثرية الحاجز الطبقي بين الأخوين ، لهذا كله ما لبثت الشروخ الصغيرة التي بدأت تحدث في كيان شجرة الأسرة الكبيرة الاجتماعي أن تحولت إلى صدوع طبقية تكرست استقطاباتها مع الجيل الثالث وهو الجيل الذي يشكل المرتكز الزمني للنص . ليس فقط لأن الرواية تتابع معظم الفروع المنبثقة من زيجات هذا الجيل الثالث ، ولكن أيضا ، وأساسا من حيث بنية النص الزمنية ، لأن معظم زيجاته



توافقت مع الثورة العرابية أو ارتبطت بها . وكأن نجيبا يريد لنا أن نعي أن متابعته لمختلف أغصان شجرة تلك الأسرة الكبيرة المتشابكة الفروع لا تنفصل عن متابعته لتاريخ مصر السياسي ، ومن هنا كان هذا الجيل الثالث الذي يرتبط بتبلور الوعي القومي المصري وتخلق أجنة هويته الأساسية الأولى هو مرتكز النص الزمني .

التاريخ الشخصي على خريطة الثورات

فإلى هذا الجيل تنتمي أسرة النص الكبرى التي تكونت من زواج ابن عزيز يزيد المصري الأكبر عمرو وبنت الشيخ معاوية القليوبي الكبرى راضية ، ومتى ؟ بعد الافراج عن الشيخ من السجن الذي بقي حبيسا فيه لسنوات لتأييده العلني للثورة العرابية التي أيدها عزيز بقلبه فحسب . وأسرة عمرو هذه التي أنجبت سبعة من الأبناء (ثلاثة من الذكور وأربع من الاناث) هي التي ستملأ ذريتها صفحات الرواية بالشخصيات والأحداث ، وهي ولا ريب الأسرة المحورية في العمل كله . وهي كذلك الأسرة التي ستواصل من خلالها ارتباط هذا الفرع الفقير من الأسرة بفرعيها الغنيين من خلال مصاهرة ابنيها عامر وحامد لأسرتي عبد العظيم داود باشا

ومحمود عطا المراكيبي على الترتيب . بل هي كذلك الأسرة التي سيتزوج أصغر ابنائها قاسم من ابنة عمه بهيجة سرور عزيز مكملا بذلك حلقة علاقاتها مع الأسر الأساسية في النص من ناحية ، ومع الفروع الأساسية في النسيج الاجتماعي المصري من ناحية أخرى . وإذا ما عدنا إلى بنية النص الزمنية سنجد أن هذه الأسرة كذلك هي الأسرة التي ارتبطت بأحداث تبلور الهوية القومية في بوتقة ثورة ١٩١٩ . فقد أدت مشاركة أبنائها فيها إلى تخفيض حامد من السنة النهائية إلى السنة الأولى بمدرسة البوليس . ولا يعني القول بأن هذه الأسرة هي الأسرة المحورية الغض من أهمية الأسرة الأخرى في النص .

الموقف من الثورة « وأيديولوجية » النص

وإذا كان أول الأحداث السياسية الكبرى التي تشغل بها الرواية إلى حد ما هو الثورة العرابية التي رفعت راضية راية اشتراك أبيها فيها خفاقة طوال النص ، وإن حولتها إشاراتها الشعبية المتعددة إليها الى نوع من التراث الشفهي الذي تمتزج فيه الخرافة بالانجاز التاريخي ، فإن الحدث الذي تضعه الرواية على قمة سلم المكانات السياسية في نصها هو ثورة ١٩١٩ ، الى الحد الذي يوشك فيه الموقف من هذه الثورة أن يحدد موقع الشخصيات على خريطتها . ومما يكسب هذه الرواية مذاقا مأساويا فريدا يزيده صدقها حدة ، أن الذين أخلصوا لهذه الثورة عانوا حتى النهاية ، والذين استهانوا بها وتنصلوا من مسئولياتها أو حتى خانوها أفلتوا من التضحية والمعاناة وكسبوا من هذا البلد ثروة وتحققا . ويزداد هذا الاحساس حدة إذا ما عرفنا أن كل الذين ضحوا من أجل مصر بدمائهم على مدى هذه الفترة الطويلة منذ استشهاد أمير سرور عزيز المصري في المظاهرات المطالبة بعودة دستور ١٩٢٣ عقب إلغاء اسماعيل صدقي له عام ١٩٣٠ ، وحتى استشهاد حسين حكيم قابيل (حفيد سميرة عمرو عزيز) في حرب ١٩٧٣ ، مرورا بموت سرور ابن جميلة سرور عزيز ، ومحمد شاذلي حفيد مطرية عمرو عزيز في العدوان الثلاثي ، ومحمد ابراهيم الأسواني ابن جميلة سرور عزيز في حرب ١٩٦٧ ، وعمرو حكيم قابيل حفيد سميرة عمرو عزيز في حرب الاستنزاف ، كل هؤلاء جميعا من الفرع الشعبي الفقير بامتداداته : أحفاد وأحفاد أحفاد عزيز يزيد المصري . أما أبناء الفرعين الثريين اللذين اخذوا الكثير من خيرات هذا البلد ، فلم يقدم أحد منهم نقطة دم واحدة من أجلها وكأني بالرواية تريد أن تقول : إن الثورة المصرية اخفقة لا تزال مجهضة ، وإن القطاع العريض المخلص من الشعب المصري ، والذي ضحى بحق من أجل بلاده لم ينعم قط بثمارها ، ولم يأت بعد يوم العدالة له .

أما ثورة ١٩٥٢ فإن الرواية لا تضعها في مكانة متدنية على سلم مكاناتها السياسية فحسب ، وإنما توشك الرواية أن تستهين بكل انجازاتها بالالتفات عن الواقع والتاريخ . والواقع ، أن النص الروائي أذكى من أن يفعل ذلك بشكل مباشر . ولكنه يجسده عبر البنية الروائية من ناحية ، ومن خلال تحولات مصائر الذين ارتبطوا بها من ناحية أخرى . فعلى الرغم من أن الذين ارتبطوا بها قدموا الكثير من التضحيات من أجل مصر ومن أجل الدفاع عن قضاياها ، فإن الرواية تصور بعض تلك التضحيات وكأنها ضربات أقدار عابثة . وكأنها لم تكن تضحيات في معارك سياسية مع عدو صهيوني استهدف مصر ومازال يستهدفها ، فثمة حرص نصي واضح على تجنب الإشارة السلبية الى هذا العدو لا يعدله إلا حرصه على تعديد مثالب من يعادونه . بينما تفسح الرواية المجال لمن تضرروا من إجراءات ثورة ١٩٥٢ في مرحلتها الناصرية خاصة للتعبير عن سخطهم عليها . لكن في الرواية قضايا وإشكاليات فنية وفكرية أخرى لابد من التوقف عندها . □



من هنا بدأت رحلة الحارة .. الطريق إلى نوبل

استطلاع : ابراهيم منصور

حين طلب مني الدكتور رئيس التحرير كتابة استطلاع عن روايات الأستاذ « نجيب محفوظ » وعلاقتها بحي الجمالية ، وافقت على الفور ، ودون تردد أو تفكير .

كنت قد قرأت ، مثل مئات الألوف من القراء العرب ، روايات الكاتب الكبير مثل : « خان الخليلي » و « زقاق المدق » و « الثلاثية » بين القصرين » . ثم كنت أيضا ، مثل مئات الألوف من السائحين والقاهريين ، قد تجولت في شوارع هذه المنطقة وحواريها وأزقتها .

بل انني كنت ، زيادة على ذلك ، قد قرأت ما كتب عن هذه المنطقة مثل « خطط » المقريزي وعلي مبارك ، وحوليات التاريخ الوسيط ، مثل « سلوك » المقريزي و « نجوم » ابن تغرى بردى و « بدائع » ابن اياس المصري و « عجائب » الجبرتي .

ومن ثم ، فقد ظننت الأمر سهلا لا يحتاج الى عناء كبير . ومن هنا ، أيضا ، كانت موافقتي الفورية التي لا يشوبها تردد .

ولكن الأمر لم يكن كما ظننت .

ووجدت ، حين شرعت في العمل ، أن الموضوع أصعب مما كنت أتصور .

ذلك ، أن روايات الأستاذ نجيب محفوظ التي تتناول هذه المنطقة ، لا تسجل واقعها كما هو ، بتركيبته الخاصة ، وإذا كان المرء يتخيل ، وهو يقرأ هذه الأعمال ، أنه يرى شوارع المنطقة وحاراتها ، وأزقتها كما هي في واقعها الحقيقي ، فإن ذلك مرجعه أن عناصر هذا الواقع موجودة كلها ـ أو على الأقل معظمها ـ في هذه الأعمال ، ولكن بعد إعادة تركيبها وتغيير نمط وتيرة تآلفها وتناسقها ، وبحيث تصبح النتيجة واقعا جديدا تماما يشبه الواقع ، ولكنه لا يتماثل معه . وإن كان ذلك لا يجعله أقل صدقا من الواقع الأصلي . . . بل ربما أحيانا أكثر صدقا وتعبيرا ودلالة .

والكاتب الكبير يدرك ذلك جيدا ، ويؤكده في العديد من الأحاديث التي يدلي بها . وقد أكد لي ذلك في الحديث الذي أجريته معه بمناسبة هذا الاستطلاع . فقد قلت لهان قصة « أم أحمد » ، في مجموعته القصصية الأخيرة : « صباح الورد » ، تبدو كأنها قصة تسجيلية . . أو ضرب من السيرة الذاتية ، وأن وصفه لدرب « قرمز » يتشابه ، الى حد كبير ، مع وصف علي مبارك له في « الخطط التوفيقية » ، فقال : « . . هناك قدر من الصحة فيما تقول . . ولكنك لا يجب أن تعتمد عليها من ناحية تاريخ شخصياتها . . فقد لعب الخيال فيها دورا الى حد ما . . كما أن تطورها سار وفقا لمنطق الثورة ـ أي ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ ـ أكثر من سيره وفقا لما حدث في الواقع . . . والواقع أن تلك القصة من عمل الخيال ، الذي يكون حقيقيا وغير حقيقي في نفس الوقت ، فهو غير حقيقي لو أنك طبقته على الشخصية نفسها . . ولكنه حقيقي بالمعنى العام » .

غياب غير مفهوم

على أن هناك عنصرا مهما من عناصر واقع منطقة الجمالية يكاد أن يغيب تماما من أعمال الكاتب الكبير .

فأنت ، حين تقرأ هذه الأعمال الروائية التي كتبها الأستاذ « نجيب محفوظ » ، والتي تتناول واقع هذه المنطقة ، قد تلاحظ ، كما لاحظت أنا ، أنك لا تجد بها ـ وباستثناء جامع المشهد الحسيني الذي يبدو شبحيا ، وبناء معنويا أكثر منه كيانا ماديا ـ ذكرا لأي أثر معماري من الاثار التي تزخر بها أقدم مناطق القاهرة هذه .

صحيح أنه ربما يكون قد ورد ، في هذه الرواية أو تلك ، ذكر لمدارس وجوامع مثل : برقوق أو قلاوون ، أو لأماكن مثل : « زقاق المدق » أو « خان الخليلي » أو « قبو قرمز » ، ولكن الأمر هنا لايتعدى مجرد ذكر الاسم ، ولا يتجاوزه الى التعامل معها بوصفها كائنات تكاد تدب فيها الحياة ، وتمتلىء بالذكريات والأحداث والتاريخ .

وما يجعل الأمر يبدو غريبا بعض الشيء أننا نجد الروائي الكبير يصرح للدكتور « غالي شكري » في حديث معه (« نجيب محفوظ : من الجمالية الى نوبل » ـ مصلحة الاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٧٢) : « . . . لقد درسنا (أي : جيل الأستاذ محفوظ) جذورنا الحضارية دراسة جيدة . وبالنسبة لي ، فقد بلغت هذه الدراسة مشارف الاحتراف . وكنت أذهب الى محاضرات قسم الآثار (بالجامعة) بانتظام ، وأتابع كل جديد حول مصر الفرعونية متابعة دقيقة » .

فالسؤال الذي يثيره هذا التصريح ، إذن ، هو : لماذا لم ينعكس اهتمام الأستاذ نجيب بالآثار على أعماله الروائية ؟ . وخاصة أن هذا الاهتمام لا يقتصر على الآثار « الفرعونية » فقط . فهو يقول للأستاذ جمال الغيطاني ، في حديث آخر له

(« نجيب محفوظ يتذكر » ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٨) : « . . . الحقيقة كان بيني وبين المنطقة (أي : الجمالية) والناس هناك ، والآثار ، علاقة غريبة ، تثير عواطف حميمة ومشاعر غامضة ، لم يكن من الممكن الراحة منها ، فيما بعد ، إلا بالكتابة عنها » .

والواقع أن عشق الأستاذ « نجيب محفوظ » لحي الجمالية - وآثاره الإسلامية المعمارية تمثل ، بلا أدنى شك ، أحد قسماته الأساسية - حقيقة مؤكدة . وهو - نفسه - يؤكد ذلك كثيرا . فهو ، على سبيل المثال ، يقول للأستاذ جمال الغيطاني في كتابه المذكور آنفا (ص ١٥ - ٢٠) : « . . . لم أنس الجمالية . حنيني إليها ظل قويا » . (و) « دائما كنت أشعر بالرغبة في العودة الى الجمالية » و « إن عدم ترددي على الجمالية يحزنني جدا » و « . . (إن) المكان الذي بقيت مشدودا إليه ، (و) أتطلع إليه دائما هو : منطقة الجمالية » ، وأيضا : « . . . عندما أمر في الجمالية تنثال عليّ الخيالات . (و) أغلب رواياتي كانت تدور في عقلي ، كخواطر حية ، أثناء جلوسي في هذه المنطقة ، أثناء تدخيني النرجيلة » .

ويبدو أن الأستاذ « نجيب محفوظ » ، نفسه ، لا يعرف ، على وجه الدقة ، سببا أو تفسيرا مقنعا لهذه الظاهرة التي تبدو في أعماله .

كنت قد سألته في حوار أجريته معه عام ١٩٨٠ تقريبا ، عن تفسيره لذلك ، فأجاب بقوله : « . . . لقد كانت هذه الجوامع من الآثار ، ولم تكن مجرد مكان للصلاة » وحين قلت له : برغم ذلك ، فإنه تبقى من هذه الجوامع أشكالها وتكويناتها الخارجية المهيبة التي تهز النفس ، قال : « . . . نعم . . بلا شك ، وهذا موجود في الروايات . . ولو أنك رجعت إليها لوجدته » .

ولما قلت له إن انطباعي مختلف ، عاد الأستاذ نجيب يؤكد لي : « . . لا انه موجود » . (الازدواج الثقافي و أزمة المعارضة المصرية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٨٢) .

إذن ، فإن الروائي الكبير يشعر شعورا يكاد يبلغ حد اليقين بأن هذه الأعمال المعمارية الأثرية قد انعكست في أعماله .

ولكن ، ماهو الشكل الذي اتخذه هذا الانعكاس ؟ . . هذا هو السؤال .

وجه آخر للتأثر

في الحديث نفسه المشار إليه في الفقرة السابقة ، يقدم الأستاذ « نجيب محفوظ » ماقد يكون إجابة جزئية عن هذا السؤال ، حين يقول : « . . . وهناك من يهاجمونني ، ويعيبون علي ما يصفونه بالإحكام الرياضي أو الهندسي في بناء أعمالي الفنية . . ويتهمونني بأنني مهندس . والحقيقة أنني كنت قد بدأت أتأثر بهذا الانتقاد ، حتى قرأت كتابا عن الفن في مصر القديمة جاء فيه : « أن الفنان المصري لا يمكن أن يكون إلا مهندسا» . وعند ذلك ، ارتاحت نفسي . . وقلت لنفسي : حتى ولو كان ذلك عيبا . . فلا بأس » (الكتاب السالف الذكر ، ص ٨٤) .

على أن الأستاذ « نجيب محفوظ » ليس واثقا تماما بأن قوله هذا يمثل ولو جانبا من الإجابة عن السؤال السالف الذكر .

ذلك أنني حين قلت له ، في الحديث الذي أجريته معه بمناسبة هذا الاستطلاع ، إنه يكاد يكون مستحيلا أن لا يتأثر تكوينه الفني بالأعمال المعمارية المبهرة ، من جوامع ومدارس وأضرحة أولياء وأسبلة وخوانق ، والتي ولد ونشأ في وسطها ، وسألته إذا كان يعتقد أن تأثره بهذه الأعمال المعمارية قد انعكس على البنيان المعماري المحكم لأعماله الروائية ، أجاب في غير حسم : « هذا أمر غير مستبعد على الاطلاق . فليس من المعقول ، فعلا ألّا تؤثر فيّ هذه الأبنية المعمارية الشامخة ، وقد قضيت طفولتي ، وجانبا كبيرا من صباي ، وأنا أراها يوميا وبانتظام . ولكن ذلك ، على الرغم من كل

شيء ، أمر لا أستطيع إبداء حكم بشأنه . وإنما يستطيع ذلك من ينظر الى أعمالي الروائية من الخارج . ذلك ، أن مهمتي تنحصر في الكتابة . . والكتابة فقط . وتأثير هذه الأعمال المعمارية على كتاباتي لا يراها إلا أحد من الخارج . فهو يستطيع أن يرى - بحياد - كتاباتي وتأثرها بتلك الأعمال . تلك أنني ، أحيانا ، وعلى سبيل المثال ، وأنا أكتب ، يكون في ذهني أنماط و نماذج وأساليب افرنجية في الكتابة . . ولكنني لا أعي ما قد يتسرب من تحت هذه التيارات الفوقية » .

ومن ناحية أخرى ، فقد يثور - في هذا المجال - تساؤل عن سبب هذا الغياب الواضح للآثار المعمارية في حي الجمالية عن أعمال الأستاذ « نجيب محفوظ » الروائية يرجع الى استغراقه المعروف في الدراسات « الفرعونية » ، وحبه لها الى حد أنه يقول : إن قراءة التاريخ « الفرعوني » لاتزال ، حتى الآن ، تثير في نفسه أعمق المشاعر ، وتحركها الى الرغبة في الكتابة .

وهناك من الشواهد ما يدعم ذلك ، وإن كان لا يثبته ثبوتا يرتقي به الى درجة اليقين .

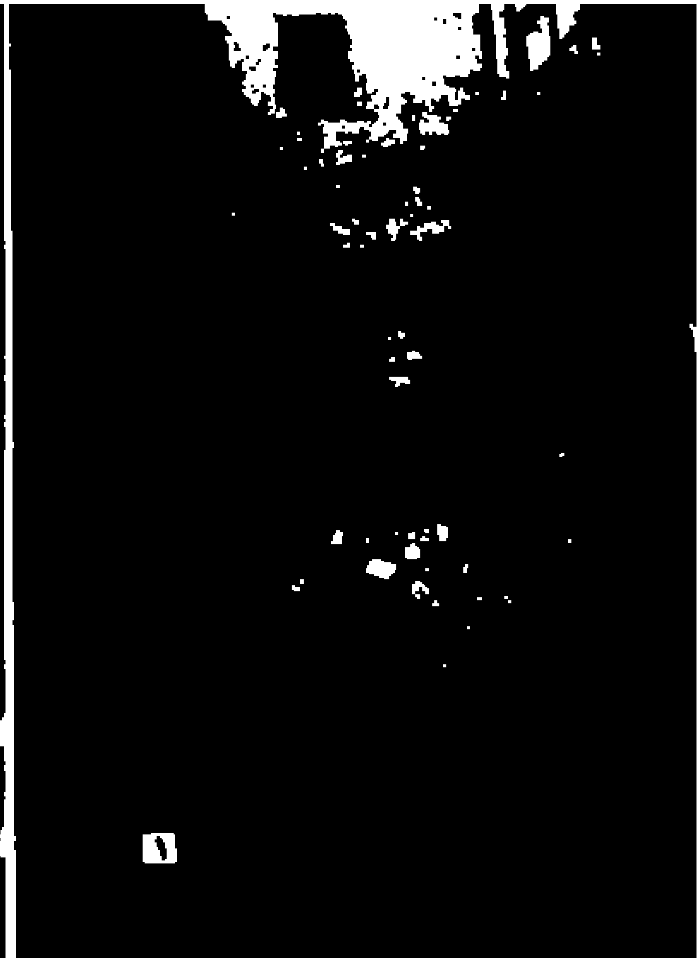
فلا شك أنه مما يثير الاستغراب أن يكون أول عمل يقدمه الأستاذ « نجيب محفوظ » للقارىء العربي هو ترجمة كتاب « جيمس بيكي » : « مصر القديمة » ، وكان لايزال ، آنذاك ، طالبا في المرحلة الثانوية . كما أنه مما يزيد الأمر غرابة أن يكون ذلك هو العمل الأول لشاب قضى جانبا كبيرا من صباه - وحتى بلغ الثالثة عشر من عمره - في حي يكاد أن يكون متحفا لأجمل الآثار المعمارية في العصر الوسيط من تاريخ مصر العربية وأكثرها شموخا .

ومن ناحية أخرى ، فإن الأستاذ « نجيب محفوظ » يقدم تفسيرا مقنعا لاهتمامه الشديد بعصر « الفرعونية » ، حين يقول في حديثه الأخير معي : « . . لا تنس أنني نشأت في وسط ثورة وطنية . . هي ثورة عام ١٩١٩ . وقد كان اتجاه هذه الثورة ، في جانب منه ، فرعونيا . بل إنهم حين شرعوا في إنشاء بهو لمجلس النواب في البرلمان ، ثارت مناقشات حادة في الصحف ، آنذاك ، حول الطابع الذي يتعين أن يتسم به هذا البهو . . وهل يكون طابعا فرعونيا أم عربيا . وقد انتهى الأمر بالأخذ برأي المهندس « عثمان محرم » في الأخذ بالطابع الفرعوني . . وأطلق على هذا البهو اسم : البهو الفرعوني . كذلك تجد أن ضريح زعيم هذه الثورة ، « سعد زغلول » ، قد بني على الطراز الفرعوني . كما أن عثمان محرم ، أحد زعماء هذا الاتجاه ، شيد منزله الكائن في شارع الهرم على الطراز الفرعوني أيضا » .

ويبقى ، أخيرا ، جانب آخر قد يقدم تفسيرا ، ولو جزئيا ، لهذا التناقض الواضح بين مولد الكاتب الكبير ونشأته في الجمالية وبين اتجاهه وتطلعه الى منف والجيزة .

فمن المعروف ، أن التاريخ لا يسير في دوائر مغلقة ، لا علاقة لمرحلة منها بتلك التي تسبقها أو تليها . وقد لاحظ عدد من علماء الآثار وجود تواصل واضح بين الأساليب المعمارية « الفرعونية » وبين الأساليب التي اتبعت في إنشاء العديد من الأبنية التي ترجع الى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية ، وأن الكثير من النقوش والزخارف التي تزين واجهات هذه الأبنية وجدرانها ، الخارجية منها والداخلية ، يمكن ارجاعها الى أصول « فرعونية » وبطلمية وقبطية . بل ان معظم الأعمدة الموجودة بالعديد من المدارس والمساجد التي ترجع الى العصر الوسيط قد نقلت من مبانٍ ومعابد « فرعونية » وبطلمية . وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذه الأعمدة التي تتناثر في أفنية وأروقة هذه المساجد والمدارس لا تمثل نشازا في نغمها المعماري بل تبدو ظاهرة الانسجام والتناسق مع باقي عناصرها المعمارية .

وحين أشرت الى ذلك للأستاذ « نجيب







١ - حارة درب قرمز ذات جدران حجرية عالية

٢ - من الجمالية إلى مصر

٣ - جزء من ميدان «بيت القاضي» ، وعلى اليسار البيت الذي بني في موقع البيت الذي ولد فيه نجيب محفوظ ، والشجرة ما تزال هناك .

٤ - المقهى الذي أقيم مكان منزله القديم .





محفوظ » وأطلعته على صورتين « فوتوغرافيتين » إحداهما لحفر بارز على واجهة الجامع الأقمر الفاطمي يمثل قرص الشمس بأشعته - أي الإله الفرعوني « رع » - والأخرى لمئذنة جامع الحاكم الفاطمي يكاد تصميم قاعدتها أن يتماثل مع تصميم هرم « ميدوم الفرعوني » ، قال معلقا :

« . . نعم . . هذا صحيح . . والشبه يبدو واضحا تماما » ، ثم أضاف : « . . وهذا أمر غير مستغرب . . فقد كان معظم البنائين ، في ذلك الوقت ، من الأقباط . وقد كانوا يتبعون ، بلاشك ، طرق وأساليب البناء التي ورثوها عن الفراعنة . ولاشك ، أيضا ، أنهم كانوا يطبقونها سواء كانوا يقومون ببناء جامع أو غيره . فصورة الشمس التي أريتني إياها والمنقوشة على الجامع الأقمر ، كان من الأقرب أن تنقش على واجهة معبد مخصص لعبادة « رع » إله الشمس الفرعوني » .

حارة درب قرمز

هي حارة الروائي العربي الكبير . . في بيت يقع على رأسها ، تفتحت عيناه على الدنيا . . وفيها قضى طفولته وجزءا من صباه . . ومثلت ، لذلك ، جانبا مهما من تكوينه الفني والعاطفي . . بحيث يمكن القول إنها كانت النموذج الذي انعكس على حارات رواياته . . وما أكثرها : روايات وحارات معا . وهي ، أيضا التي يعنيها حين يقول (« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ٧٠) : « إن حنيني الى الحارة (هو) جزء من حنيني الى الأصالة » .

ويقتضي ذلك أن نتناولها بشيء من التفصيل . ولغزارة المادة المتعلقة بها ، كان لابد من تقسيمها الى أجزاء ثلاثة هي (١) القبو (٢) الحارة كتاريخ ومنازل وآثار (٣) الحارة : بشرا وسكانا وعائلات . كذلك رأيت أن يكون تناول هذه الأجزاء على عدة مستويات : مستوى منها ما يقوله الأستاذ محفوظ عنها ، ومستوى آخر لانعكاس خبرته بها على كتاباته ، والمستوى الثالث هو ما ورد عنها في كتب الخطط .

(١) قبو قرمز

في بداية رواية « الحرافيش » يرد اسم هذا القبو الذي يعثر فيه الشيخ المتوجه لأداء صلاة الفجر على طفل لقيط .

وحين اطلعت الأستاذ محفوظ على صورة القبو المنشورة على هذه الصفحات قال :

« . . . نعم . . . هذا هو قبو قرمز . . أصبح - للأسف - مكانا - تتجمع فيه مخلفات المنطقة . . . لم يكن كذلك على أيامنا . . . ولكن ما هذا المسجد الذي بجانبه ؟ . . تقول إنه مدرسة من ؟ . . . مثقال الأنوكي ؟ . . . أنا لا أعرف ذلك . . فأنا لا أذكر هذا الجامع . . . نعم .. ربما كان مغلقا ، آنذاك ، لتهدمه . . على أنني أذكر ، جيدا ، هذا الدرج (يعني : درج الجامع) . . كان يصبح على يمينك عند اتجاهك من بيتنا الى بين القصرين . . تمام . . أنا أذكر ذلك جيدا » .

يقول « علي باشا مبارك » ، وهو يصف في النصف الثاني من القرن الماضي ، هذا الجامع الذي أطلق عليه اسم « جامع درب قرمز » إنه « . . . متعطل ، الآن ، ومتخرب ، وصورته باقية » . (ج ٤ ص ٢٣١) .

أما « محمد بك رمزي » فيقول عن هذا الجامع ، الذي يطلق عليه اسم « المدرسة السابقية » و « جامع مثقال الأنوكي » ، وذلك في هوامشه على كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردي ، والتي كتبها في الثلاثينيات من هذا القرن : « . . . وبمعاينتها (أي : المدرسة السابقية) تبين لي أنها أنشئت سنة ٧٦٣هـ ، كما هو ثابت بالنقش في لوح بأعلى باب المدرسة ، التي تسمى ، اليوم ، جامع مثقال . ويقال له (أيضا) : جامع درب قرمز ، لوقوعه في الدرب المذكور . وهو : جامع معلق ، يصعد إليه بعشر

درجات ، ويمر تحته طريق (وهو : القبو) توصل بين درب قرمز وميدان بيت القاضي . وعلى جانبي تلك الطريق (أي : القبو) قاعات بأسفل المسجد . ومع أن لجنة حفظ الآثار العربية عملت فيه اصلاحات في سنة ١٣٣٠هـ (أي : قبل ميلاد الأستاذ محفوظ بعام واحد تقريبا) فإنه لايزال خربا ومعطلا . وعتبة بابه السفلية عبارة عن قطعة من الجرانيت الأسود ، عليها كتابات « هيروغليفية » ظاهرة (ج ١١ ص ١٣٥) » . أما المؤرخ المصري الكبير « جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي » الذي كتب سفره التاريخي « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » في القرن التاسع الهجري ، فيقول عن منشيء هذا الجامع :
« مثقال بن عبد الله الحبشي الأنوكي » الذي توفي عام ٧٧٦هـ (ج ١١ ص ١٣٥) :

« كان مقدم للمماليك السلطانية ، وأحد أمراء الطبلخاناه . وكان أصله من خدام سيدي أنوك ، ابن الملك الناصر محمد (بن قلاوون) . وترقى الى أن ولي تقدمة المماليك السلطانية (في عهد السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون) . وهو الذي ضربه (الأمير الأتابك) يلبغا العمري ٦٠٠ عصاة ، ونفاه الى مدينة أسوان (« وذلك لظهور كذبه له ») . فلما قتل يلبغا ، أعاده الملك الأشرف هذا الى رتبته ووظيفته (وهي) تقدمة للمماليك السلطانية . . . . وأظن مثقالا هذا هو : صاحب المدرسة السابقية داخل بين القصرين من القاهرة . والله أعلم » .

(٢) درب قرمز :
تاريخا . . ومنازل . . وآثارا

يقول « علي مبارك » في خططه (ج ٢ ص ٩٠) وهو يصف شارع « النحاسين » الذي يعرف ، كما يقول « بخط بين القصرين » ، وهو ، الآن جزء من شارع المعز لدين الله :

« . . . وأما جهة اليسار ، فأولها : درب قرمز . وهو : كبير ، غير نافذ (في زمنه) . وبأوله : زاوية جديدة لم يكمل بناؤ ها (وقد كمل الآن) ثم التكية المعروفة بتكية درب قرمز ، وبداخلها أشجار ومبان جديدة . ومجاورها : ضريح الشيخ سنان » .

في قصته « أم أحمد » (« صباح الورد » ، ص ٧) كتب الأستاذ « نجيب محفوظ » يصف حارة درب قرمز :

« . . . وحارة قرمز ذات جدران حجرية عالية . . تغلق أبوابها على أسرارها ، ولا تبوح بسر إلا لمن ينظر في داخلها » .

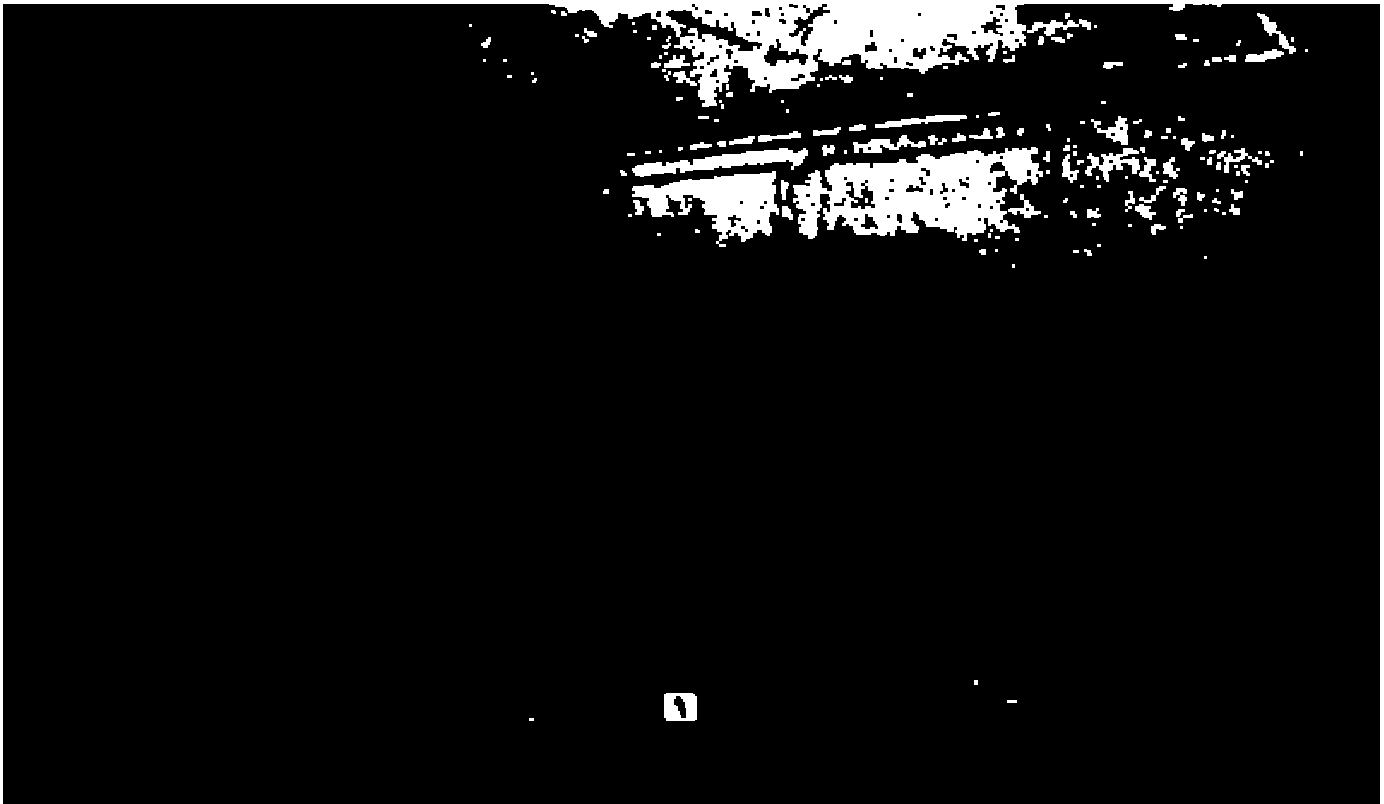
« هناك يرى : ربعا آهلا بالفقراء والمتسولين ، يجمعهم الفناء للعمل المنزلي وقضاء الحاجات . . أو يرى جنة تغنى بالحديقة والسلاملك والحراملك » .

أما في حديثه الأخير معي ، فقد وصف الحارة بقوله : « . . . كانت الحارة ، كلها ، مرصوفة بالبلاط الحجري . . وكانت تكنس وترش ، ويغسل بلاطها مرتين في اليوم . . وقد كانت عربات الرش والزبالة تقف ، في أوقات الراحة ، تحت بيتنا . . وكان عمالها يرتدون ملابس نظيفة صفراء اللون . . كانت الحارة نظيفة الى أقصى حد . . بل المنطقة كلها ـ بيت القاضي والحسين وحارة الكبابجي ـ نظيفة جدا . . لا ينقطع الكنس والرش بالمياه بها . . ومرتين يوميا . . في الصباح مرة . . وبعد الظهر مرة أخرى . . قبل المغرب بقليل » .

وأيضا :

« . . في الواقع ، كانت الحارة تضم صنفين من المباني : إما ربع يسكنه الفقراء من الناس ، وإما بيوت مستقلة ـ يسمونها : الدوار ـ يسكنها الميسورون من التجار والموظفين والأعيان » .

وأيضا : « . . . بعد بيتنا مباشرة كان يقع : بيت السكري ، وكان سطح هذا البيت متصلا بسطح بيتنا (راجع رواية « بين القصرين » حيث كان سطح بيت أحمد عبد الجواد متصلا بسطح


١


٢


٣

بيت جارته) . . . وكان أمام بيت السكري يوجد : ربع . . ولكنني لا أستطيع رؤيته في الصورة . . لابد أنه قد هدم . . وكان يسكن هذا الربع فقراء الناس : جندي شرطة . . عامل في شركة النور . . وأذكر أنه كان يقطن في بدروم الربع امرأة وزوجها . . كانا متسولين . وكان الزوج يخرج من الربع في الصباح كي يتسول في المنطقة . . أما الزوجة ، فقد كانت تجلس أمام بوابة الربع ، وأمامها طبلية تضع عليها بعض أنواع الحلويات التي يقبل عليها الأطفال مثل : براغيث الست والعسلية وثمر الدوم . . . الخ » . ويضيف الأستاذ محفوظ :

(« . . وبيوت الأعيان التي أذكرها هي : بيت السكري ، وبيت البنان (وقد ورد الاسم كما هو في « أم أحمد ») وبيت السيسي وبيت المهيلمي وبيت الخربوطلي ـ وهو بيت كان يقع في مواجهتك مباشرة عند خروجك من القبو . . وكان يشبه القلعة ، وهو الوصف نفسه الذي ورد في « أم أحمد » عن « آل سعادة » حيث يقول الكاتب : « . . . وآل سعادة . . . تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثري العتيق ـ ص ١٣ ») .

وأيضا : « . . . كانت بيوت درب قرمز كلها ملكا للأعيان . . وذلك فيما عدا بيتا صغيرا كانت تسكن به سيدة كانت من رائدات التعليم في مصر . . وكان اسمها : السيدة أفكار . . على ما أذكر . . وربما أكون مخطئا فيما يتعلق بالاسم . . وكان بيتها يقع بعد بيت السكري مباشرة . . وكان بيتا صغيرا . . وأذكر أن هذه السيدة كانت تخرج لكي تنهرنا إذا أحدثنا ، نحن الأطفال ، ضجيجا أكثر من المعتاد أثناء لعبنا . . ولكن ذلك لم يكن يحدث كثيرا . . فقد كنا ، في معظم الأحيان ، نلعب في ميدان بيت القاضي الفسيح ، ونفضله على اللعب في الحارة الضيقة . . وكنت ألعب ، معظم الوقت ، مع أولاد السكري » .



١ ـ بيت السكري ، كان سطحه يلاصق سطح بيت الرواقي الكبير ، جزء تهدم ، والباقي مدرسة للتعليم الاسلامي .

٢ ـ شارع الأشرفية : جزء من شارع المعز لدين الله ، وترى على مسافة منه مئذنتا جامعي «المطهر» والسلطان الأشرف «برسباي» .

٣ ـ البيت الذي أقيم في موقع البيت الذي شهد ميلاد الكاتب الكبير . لم تعد أفرع الشجرة تصل إلى نوافذ البيت .

٤ ـ بوابة احدى الوكالات والمخازن التجاريه داخل وزقاق المدقه . .

أما «علي باشا مبارك»، فيقول عن بيوت درب قرمز في خططه (ج ٢ ص ٩٠): «... وبهذا الدرب عدة دور كبيرة منها: دار ملك ورثة السيد أحمد سعودي وأخيه السيد محمد سعودي، ودار السيد أحمد أفندي الحربوطلي، ابن أحمد أفندي الحربوطلي، عمدة خان الخليلي كان (أي: سابقا)». ويضيف في مكان آخر (ج ٢ ص ١٠٤):

«... ومن الأماكن العظيمة التي من جملة قصر بشتاك: الدار التي كان يسكنها الأخوان التاجران: السيد محمد سعودي والسيد أحمد سعودي، وهي بحارة درب قرمز، بجوار دار الدمرداش، إلا أنها لا تشرف على الشارع (أي: شارع النحاسين)».

على الرغم من أن «تكية» درب قرمز تلعب دورا بارزا في «حرافيش» الروائي العربي الكبير، وتمثل رمزا فنيا كثيف الاشعاع، إلا أن «علي باشا مبارك» يذكرها في خططه (ج ٦ ص ١٦٠) في جملة واحدة، بل ويخطىء، أيضا، في تحديد موقعها حين يقول: «... هي جامع درب قرمز. وقد ذكرناه في الجوامع فلنرجع إليه». في حين أنه يقول في جزء آخر من خططه (ج ٢ ص ٩٠): «... تكية درب قرمز، وبجوارها: ضريح الشيخ سنان»... والضريح المذكور يبعد عن الجامع بما يزيد عن مائة متر.

ولكن الأستاذ نجيب يحدد موقع «التكية» بشكل أكثر دقة. فقد قال حين أطلعته على صورة «الخرابة» التي صارت إليها هذه التكية: «... هل هذه الخرابة هي كل ما بقي من «التكية»؟... يا سلام.. لقد تهدمت إذن.. ألم يبق من أشجارها الكثيفة سوى هذه الفروع الجافة؟؟.. ما أذكره عنها هو: أنك كنت تجدها على يمينك، عندما تدخل الدرب من جهة بين القصرين.. في منتصف المسافة تقريبا.. ولم نكن نرى من دراويشها سوى واحد أو اثنين.. وكان معظم دراويشها، في أغلب الظن، من الأتراك.. وكانوا يتبعون الطريقة البكتاشية»...

درب قرمز: بشرا وسكانا وعائلات

كتب الأستاذ نجيب في «أم أحمد» يقول: «... ومن عجب أن الحارة كانت أسرة كبيرة واحدة، لا تعترف بالفوارق الطبقية. أجل، لم يكن التزاور ممكنا بين الربع والسراي، ولكن السرايات كانت تفتح أبوابها لأهل الربع في رمضان والأعياد، يجلسون في الحديقة، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك، ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين» (ص ٩).

ولكنه يعود ليقول في القصة نفسها (ص ١١): «... انتقل الأعيان (من درب قرمز) الى العباسية الشرقية، وشيدوا قلاعهم العملاقة، كما انتقلت الطبقة الوسطى «المستورون» الى العباسية الغربية، فسكن البعض بيوتا صغيرة، واشترى البعض ما يناسبه. ولم تتواصل الرابطة القديمة بين الطرفين فسرعان ما تعرضت للوهن والتمزق. لأمر ما، شغل كل فريق ببيئته الجديدة، وكأن شارع العباسية الذي يفصل بين الجانبين أصبح سدا لا يعبر إلا في الملمات، وقد لا يعبر أبدا. عدنا غرباء، أو كالغرباء. بل صرنا، مع الزمن، أعداء أو شبه أعداء».

لنأخذ، نموذجا للعائلات التي كانت تسكن «درب قرمز» في أوائل القرن الحالي، عائلة «الحربوطلي». وقد رأينا، في السطور السابقة، أن «علي باشا مبارك» قد وصف «أحمد أفندي الحربوطلي» بأنه «عمدة» خان الخليلي، وهو وصف غريب لأن وظيفة «العمدة» كانت مقصورة على الريف، ولم يرد، في أي من المراجع التاريخية التي أعرفها، ذكر لأحد شغل وظيفة «عمدة» في القاهرة. على أن الأستاذ نجيب فسر ذلك بأن علي مبارك

ربما كان يعني أن « احمد أفندي » المذكور كان رئيسا لملحي أو « عين أعيانه » .

ولنعد ، الآن ، إلى الحاضر ، فنرى الأستاذ نجيب يقول في الحديث الذي أجريته معه عن هذه العائلة : « . . . . أما بيت الخربوطلي ، فقد شغل ابن بنتهم ، بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، منصب مدير مكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . . ثم أصبح ، بعد ذلك ، وزيرا للسياحة . . . نعم . . بالضبط كما تقول . . هو : السيد/ أمين شاكر . . وقد شغل أيضا منصب السفير . . ربما في السويد . . لا أذكر . . ولكنني أذكر أنه كان وسيما جدا . . فوالدته كانت إحدى بنات الخربوطلي . . الصغرى فيما أعتقد . . وكان للخربوطلي ثلاث بنات من أجمل ما رأيت في حياتي . . وكانوا أتراكا . . وكانوا يعيشون في سعة من أوقاف لهم . . وعندما انتقلت أسرتي الى العباسية . . انتقلت أسرة الخربوطلي معنا . . وسكنوا منزلا في منطقة بين الجنائن التي كانت تجاورنا . . وكثيرا ما شاهدت السيد/ أمين شاكر ، وهو طفل صغير ، يلعب مع أصحابه في الشارع . . على أنني لازلت أذكر الشقيقات الثلاث الجميلات بنات الخربوطلي . . فقد كانت الحارة ، كلها ، ترقبهن وهن خارجات لقضاء بعض الحاجات أو للنزهة . أو وهن يركبن « الكارتة » ذات الخيول والتي كان استخدامها شائعا بين الميسورين من الناس ، قبل قدوم عصر السيارات » .

ثم لنر ما كتبه الأستاذ نجيب في قصته « لم أحد » (ص ١٣ ـ ١٧) عن « آل سمادة » حتى نتبين مدى التشابه الشديد بين ما كتبه عنهم وبين ما قاله لي عن عائلة الخربوطلي : « . . . . وآل سمادة . . . تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثري العتيق . . . ورؤيتي لآل سمادة كتم ، عادة ، ولكنا في الحارة عندما يخرجون من جوف القبو في طريقهم الى بيت القاضي ، تتعلق وجوههم بالشمة بأصولهم التركية . . . وهؤلاء بنات سمادة الثلاث ، بين الطفولة والصبا ، جميلات فاتنات ساحرات ، يسرن صفا الى الميدان لشراء الشيكولاتة « والندورمة » . . أما الصغرى ، وهي أحبهن الى قلبي ، فقد عشقت موظفا بسيطا وأصرت على الزواج منه ... وقد أقامت معه في بين الجنتين ، لا يفصلها عن بيتنا إلا خطوات . . . . وقدر لي أن أرى « بكريها » الجميل وهو يلعب في الشارع أو في الحدائق . . . . وطبعا لم أتصور المستقبل المثير الذي كان ينتظره بمنحنى التاريخ . ولما قامت ثورة يوليو . . . . علمت أن الصبي الصغير ، ابن البنت الجميلة الصغرى ، من الضباط الأحرار ، بل والمقربين » .

●●●

« . . . . وقد عبرت الحارة من أولها الى آخرها ، وانغمست في العطر القديم » .

و :

« . . . تبقى من القلب أصوات وألوان ونبضات قلب ، فأقول لها : لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ، ثم فرقت بيننا الأيام » (« صباح الورد » ص ٢٢) .

و :

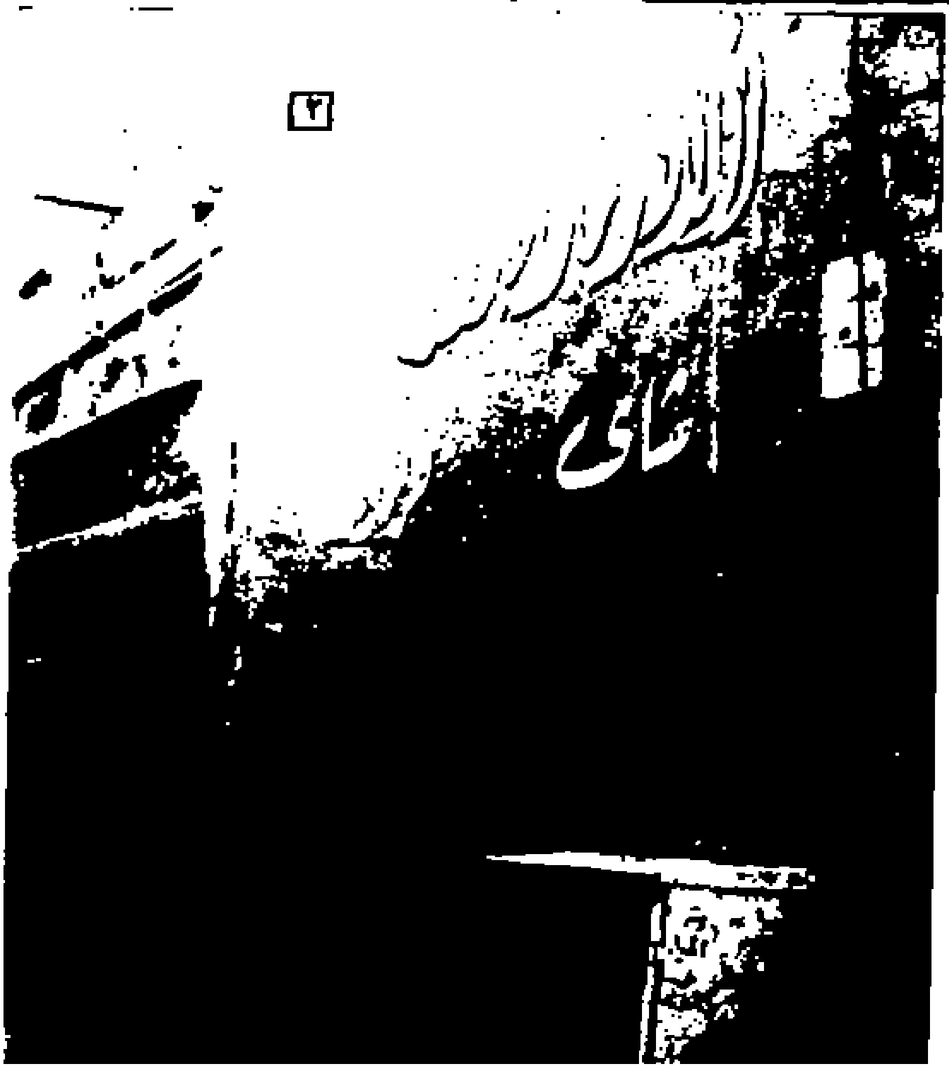
هل يوجد أفضل مما كتبه الروائي الكبير عن حارته « درب قرمز » كي نختم به حديثنا عنها ؟

قسم شرطة الجمالية

يقول الأستاذ « نجيب محفوظ » تعليقا على هذه الصورة :

« . . . نعم . . هذا هو قسم شرطة الجمالية . . لايزال مبنى القسم كما كان تماما . . وكانت بجانبه نقطة المطافىء . . تقول إنها لاتزال موجودة ؟ . . عظيم . . وكان بينهما ـ أو ربما فوقهما ـ بيت مخصص لسكنى مأمور القسم . . وفي طفولتي تصادقت مع ابن أحد مأموري القسم . . كان اسمه : « همام » . .





١ ـ قسم شرطة الجمالية زقاق المدق

٢ ـ مدخل «زقاق المدق» في المكان الذي كان يقع فيه باب «البيمارستان» الفاطمي ، ويظهر باب مقهى زقاق المدق ، المغلق

وكنا نلعب سويا في ميدان بيت القاضي ـ الذي يقع فيه بيتنا . . وقد قال لي أحد أصدقائنا المشتركين انه قابله منذ سبع أو ثمان سنوات . . وكان قد أحيل الى المعاش بعد أن عمل مستشارا فترة طويلة . . . »

« . . . وهناك واقعة تتعلق بالقسم ، حدثت عام ١٩١٩ ، ولكن تفاصيلها لاتزال عالقة بذهني . . وكأنها حدثت البارحة فقط . .

« . . كان ذلك في أوج ثورة ١٩١٩ . . ولم تكن أعمال الشغب تنقطع سواء في منطقتنا . . أو ـ حسب ما كنت أسمع ـ في مناطق المدينة الأخرى أيضا » . . . . . كان الوقت نهارا . . وكنت أجلس في شرفة بيتنا ـ ذات المشربية ـ التي تطل على ميدان بيت القاضي . . ولمحت مجموعة من الرجال تخرج من حارة الكبابجي . . ثم رأيت مجموعة أخرى تخرج من درب قرمز . . ثم مجموعة ثالثة تخرج من حارة الحسيني التي تقع على يمين القسم . . وكانوا ، جميعهم ، من أولاد البلد . . ويبدون كالفتوات . . وقد كانوا كذلك فعلا . . .

« . . . وفي لحظة واحدة . . وتوقيت واحد ، وتناسق شديد . . قامت هذه الجماعات الثلاث ، فجأة ، باقتحام القسم . . . وسمعت أصواتا وضجيجا وزعيقا . . ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا . . فسرعان ما خرجوا ومعهم كامل أسلحة القسم . . ولا أظن أنهم لقوا مقاومة تذكر . . ربما لأن جميع جنود وضباط القسم كانوا من المصريين . . بينما كان الانجليز يشغلون وظائف التفتيش فقط . . كما أن عملية الاقتحام تمت في سرعة مذهلة . . بحيث أظن أن الأمر ، برمته ، لم يستغرق أكثر من نصف ساعة . . بعدها ، كان كل شيء قد انتهى . . . والواقع أن الانجليز لم يكونوا يثقون كثيرا في ولاء جنود وضباط الشرطة المصريين . . الى حد أنهم نزعوا من الضباط السيوف التي كانوا يتسلحون بها . . » . . . « . . . وعقب هذه الواقعة . . احتلت القوات الانجليزية المنطقة بأكملها . . وانتشرت معسكرات صغيرة للجنود الانجليز في كافة أنحاء منطقة بين القصرين (راجع رواية بين القصرين ، حيث ورد ذكر هذه المعسكرات) » .

ميدان بيت القاضي

قال نجيب محفوظ :

« . . . هل هذه صورة ميدان بيت القاضي ؟؟ . . غير معقول . »

« . . كانت هناك أشجار عديدة في ميدان بيت القاضي . . لم يبق منها سوى شجرتين فقط ؟ . . خسارة . . ولكن ، ألا تزال الشجرة التي كانت أمام بيتنا قائمة ؟ . . نعم هذه هي . . ولكنها تبدو أقل حجما مما كانت . . فقد كانت فروعها تصل الى حافة مشربية شرفة بيتنا . . بحيث كان يمكنني ، وأنا أقف في الشرفة ، أن أمسك بفروعها » . . .

« . . كانت هناك . . تحت هذه الشجرة ، وأمام قسم الشرطة : دورة مياه عمومية . . ألا تزال موجودة ؟ . . لقد تابعت عملية بنائها ، وأنا طفل صغير ، خطوة بخطوة . . أنا سعيد لأنها لاتزال قائمة . . وقد كان يوجد الكثير مثلها في القاهرة . . ولا أدري لماذا ، وكيف اختفت دورات المياه العامة هذه . . فأنا أذكر أنه كان ، هنا ، في ميدان التحرير ، واحدة . . ولكنها أزيلت . . وكان هناك ، على مقربة منها ، واحدة ثانية في ميدان الفلكي بباب اللوق . . وقد اختفت هي الأخرى . . كما أذكر أنه كانت هناك أيضا واحدة في شارع الأزهر . . تقول إنها لاتزال هناك ؟ . . عظيم . . . »

« . . . ما أذكره ، و (لازال) يحزني حتى الآن . . هو : مظاهرات النساء (أيام ثورة ١٩١٩) في ميدان بيت القاضي وشوارع الجمالية » . . .

« . . كتب التاريخ تحدثك عن مظاهرات المحجبات من سيدات المجتمع . . وخروج

طالبات مدرسة السنية (الثانوية) . . ولكنها لا تذكر (شيئا عن) مظاهرات نساء الأزقة والحواري . . ولقد رأيتهن بعيني . . وكان شيئا لا مثيل له » . .

« . . وفي (الصور الفوتوغرافية) للمظاهرات : ترى النساء المحجبات (من) زوجات الباشوات . . ويقولون لك : هذه هي المرأة المصرية . . مرأة مصرية مين ؟ . . أنا شفت آلاف النساء في الجمالية فوق عربات « الكارو » . . نساء الحواري (وهن يتظاهرن ويهتفن مطالبات بالاستقلال) » .

(« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ٧٣) .

زقاق المدق

عبثا نحاول أن نجد تشابها بين « زقاق المدق » كما صوره نجيب محفوظ في روايته الشهيرة ، وبين الزقاق كما هو في الواقع .

يقول « علي باشا مبارك » في خططه (ج ٢ ص ٢٤٥) :

« . . . أما جهة اليسار (من شارع الصنادقية) فبأوله : عطفة المدق » .

« وكان في موضع هذه العطفة ، وماجاورها ، درب يعرف بـ : درب خرابة صالح ، وهو من الدروب القديمة » .

« ذكره المقريزي فقال : هذا الدرب عن يسرة من سلك من أول الخراطين الى الجامع الأزهر . كان موضعه في القديم : مارستانا (أي : مستشفى) ، ثم صار مساكن ، وعرف بـ : خرابة صالح . . . . ثم قال : وفيه الآن دار الأمير طينال ، وباب سوق الصنادقيين » .

وعن هذا « المارستان » - أو : « البيمارستان » - الذي أشار إليه المقريزي ، كتب « محمد بك رمزي » في هوامشه على « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردي (ج ٤ ص ١٠١) يقول :

« . . . وأما في عهد الفاطميين ، فكان موضع البيمارستان : بالقشاشين - التي سميت ، فيما بعد بـ : الخراطين - وهي التي تعرف ، اليوم بـ : شارع الصنادقية . »

« وموضعه (أي البيمارستان) اليوم : مجموعة المباني الواقعة تجاه جامع الأشرف برسباي ، بشارع الأشرفية ، حيث كان بابه يقع : على يسار الداخل بشارع الصنادقية » .

ويعني هذا : أن مدخل « زقاق المدق » يقع حيث كان مدخل « البيمارستان » المشار إليه .

وعلى نفس الجانب من شارع الصنادقية - الذي يتفرع منه زقاق المدق - وعلى بعد نحو ١٥٠ مترا تقريبا ، تقع دار المؤرخ المصري الشهير « عبد الرحمن الجبرتي » صاحب كتاب « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

وقد ذكر « علي باشا مبارك » هذه الدار في خططه (ج ٢ ص ٢٤٥) فقال :

« . . . وبجوار وكالة اينال : بيت العلامة الجبرتي ، صاحب تاريخ وقائع مصر (كذا) وقد سكن به ، بعد موته : الشيخ محمد الرشيدي الفلكي ، الذي نفاه الخديوي اسماعيل . والآن : هو سكن رجل من تجار العجم » .

وقد ذكر الجبرتي نفسه ، في كتابه المذكور ، إنشاء هذه الدار وهو يترجم للشيخ مصطفى بن أحمد المعروف بـ : الصاوي ، فقال :

« . . . ولما عمر الفقير ، جامع هذه الشوارد ، داره التي بالصنادقية ، بالقرب من (الجامع) الأزهر سنة ١١٩١هـ ، عمل المترجم (له) أبياتا وتاريخا رقمت (أي نقشت) بطراز مجلس العقد الداخل ، وهي :

خليلي هذا الروض فاحت زهوره
ولاح على الأكوان حقا ظهوره
وقام به سعد السعود مؤرخا
حمى العز بالمولى الجبرتي نوره .

ويبدو أنه لم يبق من هذه الدار سوى بوابتها التي تنشر صورتها مع هذه الصفحات .

ولما أطلعت الأستاذ « نجيب محفوظ » على صور « زقاق المدق » قال معلقا : « . . . هل

هذا هو زقاق المدق ؟ . . إنه يختلف ، بعض الشيء ، في الصورة عنه في الواقع » .

« . . . نعم . . هذا هو المقهى الذي كنا نتردد عليه . . . وبابه مغلق أيضا ؟ . . لقد كان مغلقا ، أيضا ، عندما مررت بالزقاق منذ عدة سنوات » . . . « . . . كنا نتردد على هذا المقهى حوالى عام ١٩٣٠ . . وأظن أن صاحب المقهى قد توفي منذ زمن بعيد » .

« . . . ما أذكره عن الزقاق . . هو المقهى . . ودرج كان يؤدي ـ كما أظن ـ الى مخبز . . فلم نكن نرتقي هذا الدرج أبدا . . ولكننا كنا نشاهد عمال المخبز ، وهم يروحون ويجيئون ، حاملين أقفاص الخبز . . كما كان هنالك بيت كان مدخله يقع بجوار المقهى . . . وأظن أن صاحب المقهى ـ وكان اسمه على يوسف ـ كان يقطن به » . (ربما كان المخبز هو نقطة التشابه الوحيدة بين الزقاق كما هو في الواقع وكما صوره الروائي في روايته) .

« . . هذا هو كل ما أذكره عن زقاق المدق . . ولكنني واثق أنه لم تكن توجد به وكالات تجارية كما هو الحال الآن (هل كان تنبؤا بالمستقبل أن يذكر الأستاذ نجيب ، في روايته ، وجود وكالة تجارية به ؟) .

ويذكر الأستاذ محفوظ سبب تردده على هذا المقهى في كتاب الأستاذ جمال الغيطاني (« نجيب محفوظ يتذكر » ، ص ١٨) قائلا :

« . . . كان لنا صديق من شلة العباسية توقف عن (إكمال) دراسته ، وانتقل للعمل مع والده في دكان مانيفاتورة بالغورية . وكنا في الإجازة ـ (أي : في العطلة الصيفية وكانت أكثر من أربعة شهور ، (ف) كان يقول لنا : لابد أن تجيئوني يوميا » .

« كنا ، عندئذ ، نقطع الطريق (من العباسية) سيرا على الأقدام ، بدءا من ميدان فاروق (ميدان الجيش حاليا) ، ثم شارع الحسينية ، ثم بوابة الفتوح ، فشارع (المعز لدين الله الفاطمي) » .

« كان لابد أن نمشي حتى الغورية لأستمتع بالمنطقة » .

« وعندما نصل إليه ، (كنا) نبقى معه حتى يغلق الدكان ، ثم نمضي الى مكانين كان يفضل الجلوس فيهما : مقهى زقاق المدق ومقهى الفيشاوي » .

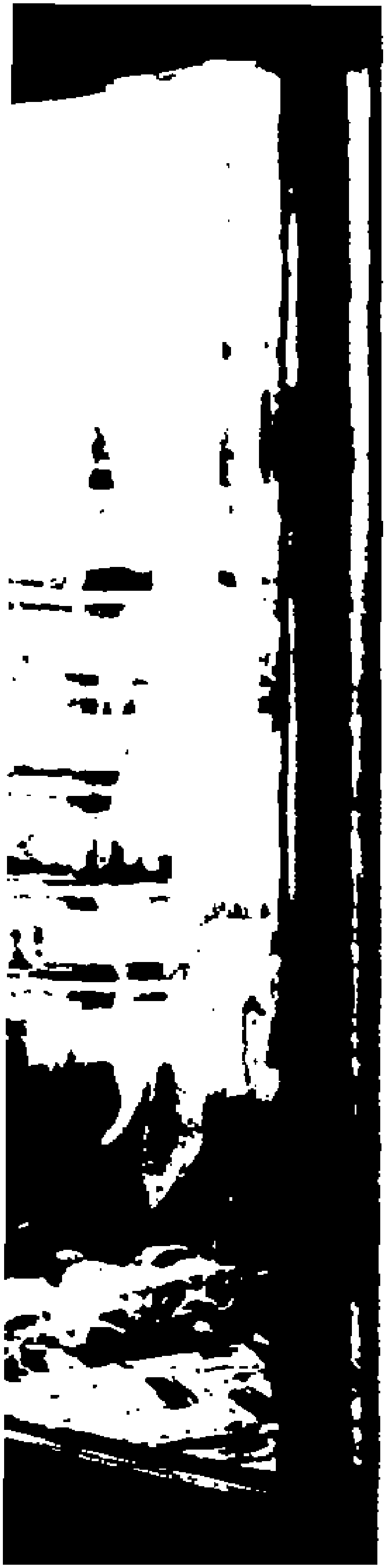
« . . . وقد عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا » .

ماذا تعرف عن توفيق الحكيم ؟



ـ أديب مصري ، ولد بالاسكندرية عام ١٨٩٨ ميلادية .
ـ درس الحقوق وتابع دراسته في باريس .
ـ بعد عودته تدرج في الوظائف إلى أن عين رئيسا للنيابة ، ومديرا لدار الكتب المصرية .

خلال ذلك توفر على التأليف الأدبي الذي شمل الرواية الطويلة ، والمسرحية . منها : « أهل الكهف » و « شهر زاد » و « رصاصة في القلب » و « السلطان الحائر » و « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » .
ـ نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٩٦١ .





استطلاع : محمود عبدالوهاب

تصوير : طالب الحسيني





« كانت تحلم بسوار من الذهب الهندي ،
وقرط هندي ،
وعندما تزوجت اشترى لها زوجها ذهبا هنديا . »
أو تقرأ في كتب التاريخ
« وجاءت القوافل محملة بالهدايا الحرير . .
والذهب الهندي . . »
وظل التساؤل معلقاً في خيالي :
هل هناك ذهب هندي ؟
وحملت أوراقي ،
وحمل زميلي آلات التصوير ،
وسافرنا إلى الهند ،
وراء السوار والقرط والقلادة ،
لنعرف قصة الذهب الهندي .

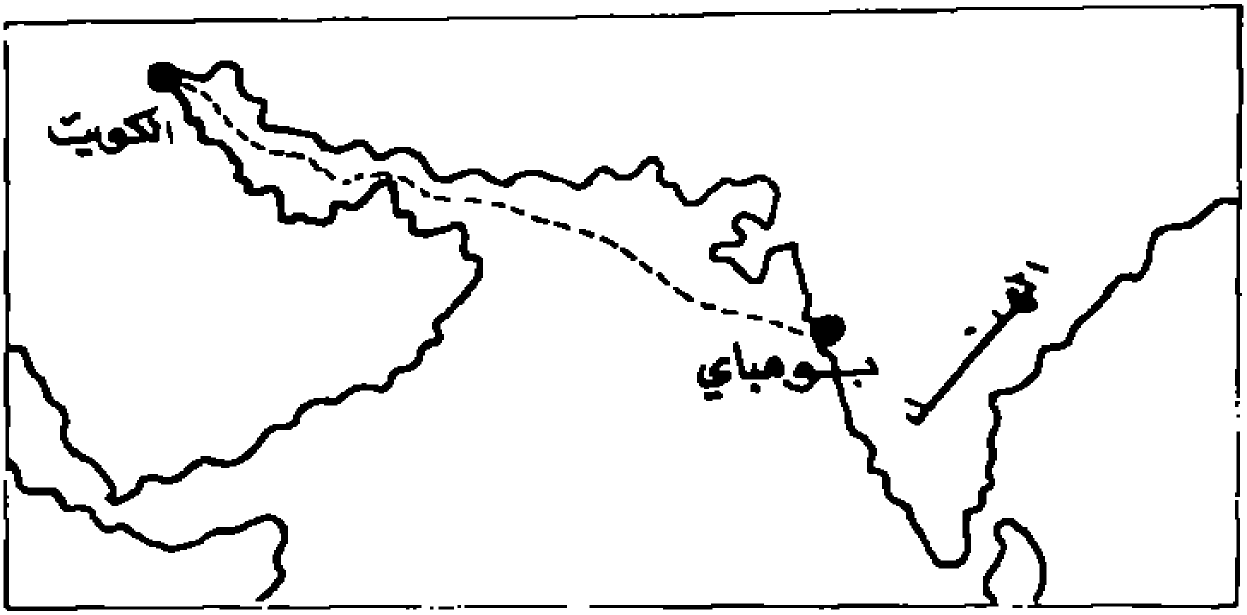
الذهب أبو المعادن وسيدها ، وأكثر السلع في التاريخ حساسية ، يرتفع سعر النفط فيقفز سعر الذهب ، ترتفع الفائدة على « الدولار » ويتغير سعره ، فيتغير سعر الذهب ، يجتاح الجفاف افريقيا فيتأثر سعر الذهب ، تنطلق إشاعة عن موت رئيس ، محاولة اغتيال ، اختطاف طائرة ، توقيع معاهدة ، توتر في العلاقات ، ظهور « موضة » جديدة ، انخفاض في محصول ، موجة برد وصقيع . . كل هذه العوامل تؤثر في سعر الذهب ، فالسياسة والاقتصاد والنفط والسيول والعواصف الطبيعية والعلاقات الدولية كلها عوامل تؤثر في سعره .

الأصل في أوراق النقود أنها كانت أوراق ضمان بتحويل قيمتها إلى ذهب ، وعندما توالى إلغاء قاعدة تحويلها إلى ذهب تعاظمت حالة فقدان ثقة الناس بها ، فلم تعد تساوي غير قيمتها الورقية ، ولذلك فعند كل أزمة ، أو بوادر قلق ، أو خوف من شيء ، يسرع الناس إلى تحويل ثرواتهم ومدخراتهم إلى المعدن الباقي عبر التاريخ ، والذي يظل محتفظا بقيمته ، مهما ارتفعت هنا أو انخفضت هناك .

منذ زمن طويل والناس يتخذون الذهب حلية وفي الوقت نفسه ثروة محفوظة ، وانطلق الصناع في التفنن لتجميل الذهب وصياغته ، واندفع الناس لشراء كل ماهو جديد ومبتكر وجميل ، وأصبح للذهب سوق وعالم وقواعد ونظم وأمن .

مفلسون في السوق :

داخل محلات سوق الذهب بالكويت بدأنا التجوال أمام واجهة أحد المحلات نسأل سيدة فتقول لنا : « لكن الهندي هو الأجمل » ، في محل آخر يقول لنا البائع : « الهندي أكثر ارتفاعا في السعر » وفي محل ثالث عائلتان تشتريان « شبكة العرس » ، وبعد أن تختار أم العروس



● خط الاتصال بين الكويت والهند كان مزدهرا طوال فترات تاريخية طويلة ، ويشهد الآن رحلة الذهب بين البلدين الكبيرين .

ويوافق العريس تستبدل العروس كل الأشياء الرفيعة بسوارين هنديين . كثرة تجوالنا تثير الريبة ، فلا نحن نشتري ، ولاتصحبنا سيدات للرؤية . فقط نسأل عن أسعار الذهب الهندى والفرق بينه وبين غيره من الذهب ، ونشاهد المشغولات التى تسمى بالهندي ، وننصرف ، وعلى الرغم من كل الابتسامات التى نقابل بها ، وهزة الرأس التى نودع بها ، فإن منظرنا لم يكن مريحا .

المشغولات الهندية تتميز عن غيرها بالدقة الفائقة ، وكثرة التفاصيل في المساحة الصغيرة : منمنمات كثيرة ، استخدام « المينا » الملونة ، التفنن في ابتكار الأشكال . أخيرا دلنا البائعون على إحدى كبرى شركات الذهب في الكويت التى تغمر السوق بالمشغولات الهندية .

فذهبنا إليها نجمع التفاصيل .

من الذهب القديم :

بادرت محدثى فهد الرشيد ، مسئول عمليات تشغيل الذهب في كبرى الشركات الكويتية ، قائلا : ما المقصود بالذهب الهندى ؟

وهل تستوردون الذهب من الهند ؟ فقال لي فهد : المقصود بتعبير « الذهب الهندى » هو الذهب المشغول في الهند ، أو على النمط الهندي المتميز .

ويروى لنا محدثي كيف يجمعون الذهب فيقول : لنا في السوق عدة محلات ، عبارة عن مراكز تجميع للذهب ، نشترى من خلالها الذهب ، أيا كان حجمه : دبلة ، قرط ، سوار ، عقد ، وأيا كان دافع البيع : كسر أصاب القطعة ، رغبة صاحبها في التبديل ، حاجته للمال . . نجمع هذا الذهب ونتوجه به إلى إدارة المصوغات لتعطينا شهادة بوزنه ونقاوته ، ثم إلى الجمارك لاستخراج إذن تصدير مؤقت للتصنيع ، ثم يغلف الذهب ويختم ، ثم نسلمه لشركة طيران تتولى الشحن ، وفي ظل إجراءات أمنية يسلم في الغالب إلى قائد الطائرة . يسافر الذهب من الكويت إلى ألمانيا أو سويسرا ، حيث يعاد سبكه وتحويله إلى سبائك متفاوتة الأوزان ، ترسل بعد ذلك ، وسط إجراءات الأمن نفسها إلى الهند .

عند الطائرة ينتظر مندوب من المكتب









● في الصفحة اليسرى لقطات عديدة
داخل ورشة الفنان [illegible] صغيرة
يجلس [illegible] في مكان ضيق ،
و[illegible]
[illegible]

الحكومي الهندي للمشغولات اليدوية ، ويمثل إدارة الجمارك ، وبعد أن يطابق المكتب الحكومي بيان الرسالة ويفحصها ، يسلمها إلى أصحاب المصانع الذين نتعامل معهم ، والذين يبدءون في تنفيذ « الموديلات » والأشكال التي نطلبها منهم ، وبعد أن ينتهوا من عملهم يسلمون المشغولات إلى المكتب الحكومي للمشغولات اليدوية الذي يتسلمها منهم بالوزن ، وبعد أن يتأكد من كل شيء يشحنها إلينا في الكويت . فور تسلمنا للرسالة يأتي دور وزارة التجارة للتأكد من صحة وزن الذهب ونقاوته . في حالة المخالفة للوزن يعدم الذهب بالكامل ، وبعد التأكد من صحة وزنه يتم الإفراج الجمركي عنه بموجب إذن التصدير المؤقت ، ونطرح المشغولات في السوق من خلال معارضنا أو من خلال التجار الذين يشترون منا .

إلى بومبي وراء سوار وقرط :

في قاعة الفندق جلسنا بانتظار أحد كبار صانعي الذهب في الهند ، القاعة مزدانة بالأشجار والورود ، وعلى الرغم من أننا كنا في الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر فإن الطقس كان أقرب إلى الدفء . خلف بوابة الفندق الزجاجية يقف حارس يرتدي زيا أبيض وعلى رأسه عمامة كبيرة في مؤخرتها يلتف القماش على شكل عرف ديك . خارج الفندق ترى صورا للفقر : « سائلين ، متسولين ، متسكعين » توجع القلب وتثير الأسى . أخذنا نقطع الوقت أنا وزميلي في تخيل شكل صانع الذهب قلت : رجل كبير السن ، أبيض الشعر ، ملابسه مفرطة في الأناقة . أضاف زميلي : خلفه يسير رجلان ، وسائقه يرابط عند الباب بالسيارة الفارهة . عندما نودي علينا ذهبنا إلى موظف الاستقبال الذي قدم لنا السيد « منصوك » شاب لايتجاوز الخامسة والثلاثين ، يرتدي قميصا وبنطلونا ، في أصبعه « دبلة » فضية ، ساعة يده من ماركة شائعة ، ليس به شيء يميز سوى الخلق والدماثة ، وهي سمات أهل الهند . خرجنا من الفندق ، ابتسم بتواضع ، واستدعى سيارة أجرة . تجاوزت السيارة الأحياء الحديثة في بومبي ، ودخلنا إلى منطقة الأسواق ، الحي الأقدم زمنا والأشد ازدحاما . طلب منا برفق شديد أن نغادر السيارة ونسير على أقدامنا ، لأن السير على الأقدام أيسر وأوفر للوقت .

تسير في الشارع كل أنواع المركبات والمخلوقات : بشر ، بقر ، سيارات ، دراجات ، عربات « كارو » يقودها بشر ، بشر يحملون « أجولة » أو صناديق أو أخشابا ، يسيرون وهم منحنون ، فالحمل فوق أكتافهم ، ويتركون للسائر مهمة تفاديهم ، وفوق هذا باعة جائلون ، وباعة أرصفة يبيعون منتجات ما ، أو أطعمة ، أو مشروبات . سوق « بابل » : زحام كثيف في شوارع ضيقة . انطلقنا نلهث خلف السيد « منصوك » ، وخلال عشر دقائق لم يسر بعضنا بجوار بعض قط ، فالدفع بالأيدي والأكتاف وتفادي حركة المارة والسيارات والدراجات جعلنا نسير في شكل أقرب مايكون إلى الطابور .

في قلب شارع السوق القديم ، والمباني القديمة المتهالكة ، تلمع محلات الذهب بالواجهات الرخامية أو الزجاجية والإضاءة ، واللافتات الأنيقة ، على الرغم من أن المبنى قد يكون متهالكا ، ولكن المحلات هذه تلمع وسط السوق كله . أمام الباب يقف حارس أمن ، والأبواب مغلقة دائما ، يفتح لك الحارس ويظل واقفا أمام الباب المغلق عليك وأنت في الداخل . عينا الحارس موزعتان بين الداخل والخارج . على المقاعد الصغيرة المكسوة بالمخمل يجلس عدد من الرجال ، أربعة وخمسة ، فور دخولنا انتفضوا ووقفوا أمام البائعين . تمثيلية

الإجراء الشهيرة في عالم التجارة . ضحك السيد « منصوك » وقال لهم : « أصدقاء » ، عاد الرجال إلى مقاعدهم ، وجلسنا معهم .

مهن تورث :

سوق الذهب بالهند سوق واسع ومتميز ، وفي بومبي وحدها قرابة ٥٠٠ محل للذهب ، والعمل في هذا المعدن النفيس يكاد يكون وراثيا ومقصورا على عدة عائلات ، سواء من التجار أو الصناع ، ويكاد الأمر يكون مقصورا على أبناء عدة ولايات محددة في الهند ، وأشهر هذه الولايات ولاية جوجارات ، وهي شديدة القرب من بومبي ، وولاية مهاراشت ، والبنجاب . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت هذه الولايات مركزا لتجارة الذهب ، ومنذ ذلك الحين والعائلات تتوارث هذه المهن . ومن النادر أن يدخل شخص غريب إلى سوق تجارة الذهب .

وعندما قلت للسيد « منصوك » : هل هذا تكتل للعائلات ضد من يحاول أن يخترق هذا الاحتكار ؟ قال بهدوء ورقة : لا ، إنها الثقة ،

فالعمل في الذهب يعتمد أساسا على الثقة في كل عملياته ، فمنذ اللحظة الأولى لدخول « الزبون » للمحل تبدأ عملية الثقة ، فالناس تشترى الذهب لأنها لاتثق في النقود ، وعلينا نحن أن نقدم لها الثقة قبل الذهب . وحتى بين التجار أو بين التجار والصناع ، فالمسألة أساسا ثقة ، فأنا بالهاتف قد أطلب من أحد التجار كيلو ذهب ، فيرسله إليّ بدون إيصال أو ورق أو أي ضمان غير الكلمة ، كذلك مع الصناع ،

أسلم ورشة العمل الذهب ونماذج الأشكال المطلوبة بدون أي ضمان سوى كلمة ثقة . وقد جاء أحد الصناع يوماً وقال : إن الورشة تعرضت للسلب وسرق الذهب ، وصدقته ، وجلسنا معا نبحث عن كيفية التعويض ، وكم سيتحمل هو ، وكم سأتحمل أنا ، وهذه الثقة لايمكن أن تنبت فورا ، ولايمكن أن يجتمع بها وافد جديد على السوق ، فالتاجر والصانع يتعاملان معي ، لأنه سبق أن تعامل مع أبي ، وسبق لأبيه أن تعامل مع أبي ، وأجدادنا قد تعاملوا ، وهكذا نحن لانتوارث المهنة فقط ، بل نحن نتوارث الثقة واحترام الكلمة . !

بين أيدي الفقراء :

نغادر للمحل الأنيق لنذهب إلى ورش الصياغة ، بلطف شديد ـ اختلفنا عليه ـ قال لنا مرافقنا : المكان قريب ، سنذهب سيرا على الأقدام ، فتركنا الشارع المزدحم لندخل في سلسلة الأزقة الأشد ازدحاما ، والأكثر فقرا وإهمالا ، فالمياه راكدة في وسط الطريق ، والروائح تنبعث لتزكم الأنوف ، والبنايات أكثر توغلا في القدم وكل بناية تزدحم بالغرف ، فهذه غرفة تاجر أقمشة ، وتلك غرفة لحائك ، وأخرى للنسج والوشي بالقصب ، وغرفة لكواء ملابس ، و . . خليط عجيب من المهن . ودخلنا إلى (الورشة) ، غرفة صغيرة مربعة الشكل ، الأرض مفروشة بالحصير ، ومناضد خشبية صغيرة مربعة ، وخلف كل منضدة يجلس عامل ، والعمال أغلبهم دون سن العشرين مازالوا صغاراً ، على رأس الغرفة يجلس صاحب الورشة ، أمامه الميزان ومروحة كهربائية مسلطة عليه وحده . العمال يجلسون شبه عراة ، فحر الغرفة لايطاق من ازدحامها والنار التي يعملون بها .

العمل مقسم بين العمال وفق نظام الدائرة : العامل الأول يصنع ورق شجر من الذهب فقط ، والثاني يضع ورق الشجر هذا على الفرع الذهبي ، والثالث يضم الفرع على السوار ، والرابع يضيف « المينا » إلى بعض أوراق الشجر ، الخامس يلوّن ، وهكذا ، خطوات منتظمة متتالية متخصصة يسير العمل بانتظامها .













● الصورة العليا تنطق بالتناقض .
فقد التقطت لورشة عمل في
الكويت ، حيث الامكانات
والاستخدام الصحي والظروف
الأفضل . (الصورة العليا الى
اليسار) لصاحب الورشة ، وهو
يزن الذهب بعد انتهاء تشغيله ،
(اليمنى) الشغل على تصميم
موضوع على قطعة من الصلصال .
ثم عملية التسييل . (والصورة
اليسرى) الاتقان والانكباب ساعات
طويلة لإنجاز المنمنمات .

صاحب الورشة يتسلم الذهب من صاحب المحل ، ويبدأ بطرق وسحب الذهب لتتحول السبيكة إلى شرائح رفيعة حسب نوعية العمل المطلوب ، فالشرائح المطلوبة لانتاج الأقراط غير الشرائح المطلوبة للسوار ، غير العقود ، وهكذا .

وعندما يعهد صاحب المحل إلى صاحب الورشة بتنفيذ تصميم معين ، فإنه ينفذ التصميم أولا على قالب من الصلصال ، وينفذ العامل تشكيل القطعة وصياغتها على الصلصال ، حيث يكته الصلصال من خرز الوحدة الصغيرة جدا وتثبيتها على قطعة الصلصال ، وبعد أن يتأكد من مضاهاة ما ينفذه على القالب الصلصالي يخرجه من القالب ويوصله بعضا ببعض ، ويستخدم العمال أدوات بالغة الدقة ، مستعينين بالنار في معظم خطوات العمل واضعين شمعة مشتعلة من الدهن الحيواني التي تخلف رائحة غير طيبة ودخانا كثيرا . وبقطعة معدن رفيعة مفتوحة من الطرفين ينفخ العامل فتتوهج النار ليضع عليها الذهب .

ظروف عمل شديدة القسوة ، لكنهم جميعا فنانون بالفطرة والوراثة .

بثمن بخس :

لكل صاحب محل ذهب يعمل في مجال التصنيع وليس البيع فقط ، ورش تعمل لحسابه ، ويختلف عدد الورش وعدد العمال حسب طاقة المحل وقدرته وكمية الذهب التي يستقبلها للعمل . مرافقنا السيد « منصوك » لديه ورشتان تعملان لحسابه ، يعمل فيهما قرابة ١٢٠ عاملا ، بينما لدى السيد « شنكر فاجيوهي » سليل أول عائلة عملت في تصنيع الذهب وبيعه في بومبي قرابة ٤٠٠ عامل موزعين على أكثر من خمس ورش .

ويختلف نظام المحاسبة على التصنيع حسب الشكل المراد صناعته ، ومدى بساطته وتعقيده ، وهل هو ذهب خالص لم ملون ، ثم حلي باللؤلؤ ، فكلما ازداد تعقيد الشكل ، وازدادت التعقيدات التي به ، وكثرت الألوان أو اللآلئ زادت تكلفة الصنع .

ويتقاضى صاحب الورشة والعمال أجرهم بالقطعة ، وليس بالرواتب ، وتبدأ من ٣٠ روبية هندية مقابل كل جرام ، وترتفع لتصل إلى ٨٠ روبية للجرام ، حسب نوعية العمل .

والحساب يتم بناء على الوزن الصافي للذهب ، بغض النظر عن أي إضافة ، فالسوار المزين باللؤلؤ مثلا لو كان وزنه ٤٠ جراما ذهبا ومائة جرام من اللؤلؤ ، فالحساب يتم على وزن الذهب فقط ، والورش المتوسطة (٧ - ٩) عمال ، تستطيع أن تنجز في الشهر كيلو جراما واحدا من المشغولات الذهبية ، أي يبلغ دخل الورشة حوالي ٣٠ ألف روبية يدفع منها صاحب الورشة أجور العمال ومصاريف وجبة الغذاء التي تقدم للعمال مجانا والتي لاتزيد عن الارز .

والعمال يعملون بلا أي نظم للتأمينات ، فلا تأمينات عجز ، ولا إصابة ولا بطالة ، وعلى الرغم من ذلك فإن العائلات لاتتوقف عن دفع أبنائها للعمل في هذه المهنة ، ليتوارثوا مهن الآباء .

ولقد ساعدت ظروف الهند الاقتصادية المتمثلة في زيادة عدد السكان ، وقلة فرصة العمل ، في استمرار هذه المهن ، واستمرار الراغبين في العمل بها ، ويظل العرض حاليا من العمالة أكثر من الطلب عليها ، مما جعل أجورهم متدنية جداً ، فالعامل لايتقاضى من صاحب الورشة أكثر من ٥ روبيات عن كل جرام ، بالإضافة إلى وجبة من الارز للغذاء . وبمنطق صاحب الورشة فإن العامل يتقاضى ربع أجر الورشة التي تأخذ ٣٠ روبية للجرام ، وبالطبع فإن هذه النسبة ترتفع في حالات المشغولات الأكثر تعقيدا .

كل هذا الجمال :

للمشغولات الذهبية الهندية جمال خاص بها ، وسمات واضحة لاتخطئها عين ، فهي مشغولات تتصف بجمال التراكيب ، فكل وحدة مليئة بآلاف التفاصيل الصغيرة ، فبين الإطارين اللذين يحددان السوار نسيج من تفاصيل وجزيئات صغيرة متتالية ومركبة جميلة ، وللعقود جمال من نوع خاص ، تذكرك بمعروضات التحف في قصور الأباطرة والخلفاء والمهراجات.

ولهذا أكثر من تفسير ، أحد التفسيرات يقول إن هذا سببه أنها تنشأ في اقتصاديات متخلفة ، ولذا فهي توسع مجال العمل ، وهي تفتقر إلى البساطة ، وإلى العملية ، لأنها ابنة حضارة مركبة معقدة .

وتفسير آخر ، وهو أقرب إلى العقل والمنطق ، يقول : إن الهند كانت أرض حضارات عظيمة ، وأن فترة من أزهى فترات منطقة الشرق في الهند هي تلك الفترة التي ترعرعت فيها امبراطورية المغول الإسلامية ، وخلفت وراءها آثارا كثيرة معمارية ، كلها ذات طابع يتناسب مع الذوق الشرقي العربي ، وتتشابه هذه الآثار مع غيرها في كثير من المدن العربية الإسلامية كبغداد أو دمشق أو القاهرة .

ويفسر أصحاب هذا الرأي كل هذا الجمال في المشغولات الذهبية الهندية بأن المغول عندما أسسوا امبراطوريتهم لم يكن لهم قبل الإسلام تراث يتوارثونه ، ولكن مرورهم على مناطق كانت تحت السيطرة العثمانية ، وتدفق حركة التجارة بين البلاد العربية الإسلامية والهند ، في زمن الازدهار البحري العربي ، قد نقل معه خبرة الحضارة العربية الاسلامية التي تمثلت في أبهى اشكالها وأبرزها في ذلك الوقت ، في فنون العمارة والنسج والنقش واستخدام الألوان ، وابتكار المنمنمات والحواشي ، وامتزج هذا التراث ، وتفاعل مع حضارة أبناء الهند ، ومازالت آثاره باقية ، تنقل إلينا عبر مشغولات ذهبية تتعلق بالجمال والفن .

مصممون بالفطرة :

ومعظم المشغولات الذهبية الهندية يصممها أصحاب الورش ، بالفطرة والحس الموروث ، وبتراث عريق في هذه المهنة ، وبعد أن نظمت الحكومة الهندية حركة تصدير الذهب انفتح السوق العربي أكثر من ذي قبل للمشغولات الهندية ، ولذلك فإنه من عام ١٩٧٩ - كما يقول السيد منصوك - بدأت حركة تصدير وشغل الذهب لصالح أسواق الكويت وبعض أقطار الخليج العربي الأخرى ، ويتميز الطرف الكويتي المتمثل في الشركة الكويتية التي تنفرد بسوق الجملة في تجارة الذهب في الكويت بأنها تقترح تصميمات أو تضيف أو تعدل .

يقول السيد فهد الرشيد : « كنا في بداية تعاملنا نكتفي بالذوق الهندي كما هو ، وبعد فترة - لم تكن طويلة - بدأنا نتدخل في اختيار الأشكال ، فنحن نجيد الاستماع إلى الناس ، ونسمع رأي العملاء وهم يثرثرون حتى فيما بينهم ، كلمات قد تكون لغير المهتم بلا معنى ، مثل : ماذا لو كان هذا العقد محلّى بميناء ملون ؟ أو لو كان الشغل مفرغا وليس مصمتا ؟ وملاحظات عابرة مثل هذه الملاحظات ، وأحيانا قد لايتوافق الذوق الشرقي مع الذوق المحلي ، لأن لكل بيئة خصوصيتها . صحيح أننا جميعا شرقيو المزاج ، ولكن داخل هذه الشرقية فروق نوعية كثيرة ، تحكمها البيئة ، وخصوصيتها ، ولهذه الاعتبارات بدأنا نضيف ونعدل ونقترح للأشكال التي يشتغل بها الذهب ، ولوحظنا أن الإقبال قد أصبح كبيرا ، فاكتشفنا مزية تجارية مهمة ، أغرانا بها النجاح ، وهي أننا نستطيع أن نكون أصحاب طراز خاص وشكل خاص جدًا بنا ، لايمكن أن

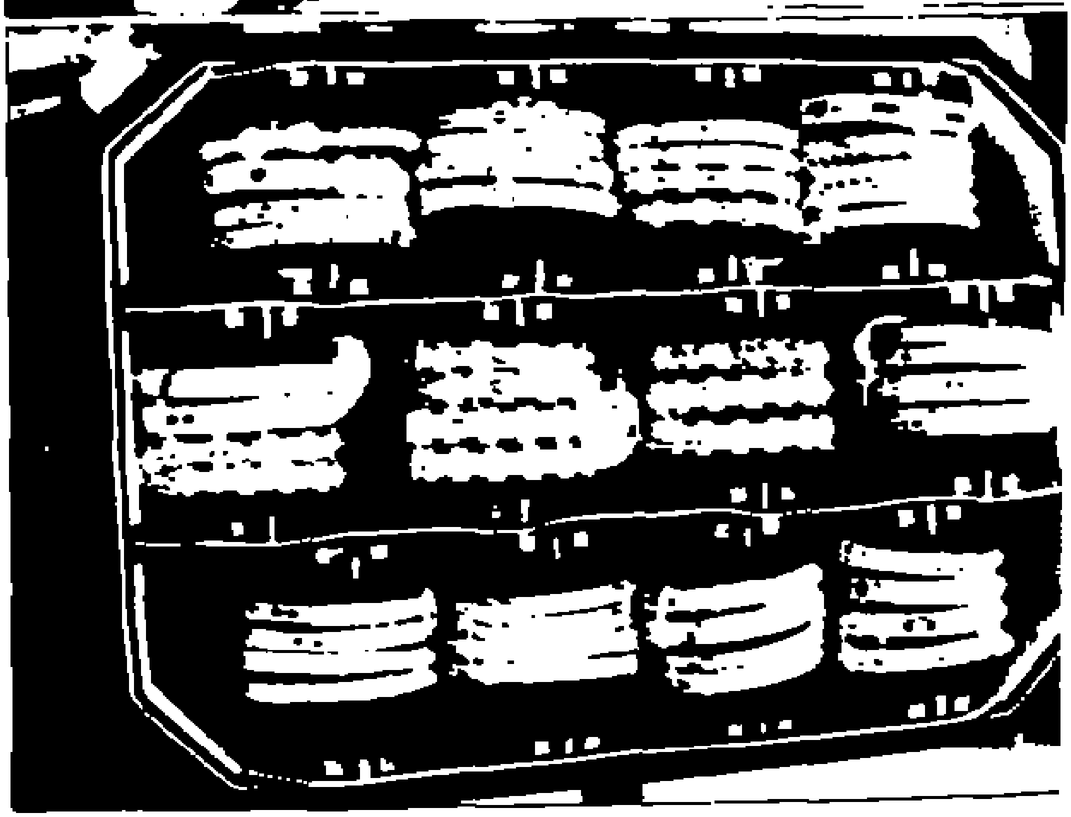






● (الصورة العليا) أسرة هندية في أحد المحلات في بومبي تتفرج على المعروضات تمهيداً لشراء هدية عرس ، أسفلها تناقش آخر من ورشة عمل بالكويت . (الصورة السفلى) تاجر ذهب في ويمبلي بلندن أتى إلى الهند خصيصا وهي موطنه الأول ، ليشتري مشغولات الهند ، ليبيعها للانجليز وبعض العرب هناك .





● على مصطبة حجرية في مدخل ضيق لبيت قديم ، جلس الرجل العجوز يطعم السوار باللؤلؤ ، حرفته الوحيدة التي يشغلها لحسابه الخاص ، يذهب إلى الورشة أو المحل ، ليتسلم السوار واللؤلؤ ، وينجز عمله ، ويعود ليسلم القطعة ويتقاضى أجره ، ولم يجد له مكانا إلا الطريق العام ، بعد أن أمضى ستين عاما يعمل في هذه المهنة . (الصورة أسفل) بعض المشغولات الفنية : يندر أن تجد سوارا شبيها بالآخر ، وأنها كلها جهد وعمل كثير .

يجده العميل في أي محل أو أي سوق إلا عندنا نحن ، وتوسعنا في هذا الاتجاه ، وأصبح لدينا الآن « موديلات » لاتباع حتى في الهند ، فهي تصنع لحسابنا نحن فقط . »

رمز له دلالته :

يحفل تاريخنا الاجتماعي العربي بتراث طويل حول هدية العريس للعروس ، وهي هدية كانت دوما تعبيرا عن مدلولات كثيرة ، أهمها الحرص على الرضاء والرغبة الحقيقية في إتمام الزواج والقدرة على الوفاء بمتطلبات الحياة ، ولذا فقد كانت دوما هدية من أغلى وأثمن ماهو متاح ، ففي القبيلة ، حيث الحياة في الصحراء كانت النوق والإبل - أيا كان عددها أو نوعها - هدية لاترفض ، وتعلي من شأن الخاطب والخطبة ، وفي مجتمعات الأنهار كانت الأجولة المحملة بالمحاصيل والأبقار هدية عزيزة غالية ، ومع التطور الاجتماعي ، وبعد أن أصبحت كل هذه الأنواع مقومة بالنقود ، أصبح بعض الناس يذهب لبيت الخطبة ويضع مبلغا من المال ، وبعد أن فقد الناس ثقتهم بالنقود التي تتآكل قيمتها بفعل عوامل التضخم والزمن أصبح الذهب هدية لها بريق ، وهي العرف المتبع والطقس السائد . وتتفاوت الهدية من مجرد « دبلة » إلى أجزاء من الكيلو (ربع أو نصف .. أو .. أو) والهدية ليست مجرد قيمة مادية فقط ، ولكنها أداة زينة كذلك. وسط كل



ماهو متاح من أشكال ذهبية يبرز الشكل الهندي الذي تتفنن ورش عمل كثيرة منتشرة في كل الوطن العربي في تقليد الشائع من أنماطه ، وعمل مشغولات تتسم ببعض سمات المشغولات الهندية الأساسية ، وتتمتع هذه المشغولات المقلدة أيضا بإقبال كبير ، في أقطار عربية اشتهرت بمشغولاتها ، وعلى الرغم من ذلك فإنها وجدت في الطراز الهندي جمالا وإغراء لايقاوم .

وظلت كل الفتيات يحلمن بأن الخطيب قد جاءهن بأقراط وأسورة من ذهب الهند ، ونذكر لهذا كانت كل كتب التاريخ تكتب عن هدايا للملوك ، فتقول : وأحضرت القافلة معها حريرا من الصين ، وذهبا من الهند ، فزوّج الملك شاه الزمان ابنته قمر بابن للملك عبدالرحمن ، وعاشا في ثبات وأنجبا البنين والبنات .

حاشية غير رقيقة :

في عام واحد ، هو عام ١٩٨٨ ، دخل إلى سوق الكويت مشغولات تقدر بـ ٣١ طناً ، كما تقول تقارير إدارة مراقبة المصوغات الكويتية ، وفي الهند يقولون : إنهم صدروا إلى الكويت مشغولات تقارب ٤ أطنان في العام نفسه ، وأغلب المشغولات الذهبية الهندية عيار ٢٢ أو ٢١ ، وهي نسبة الذهب في المشغول إلا أن الغالبية من عيار ٢٢ .

حاشية رقيقة :

يظل الذهب سيد المعادن وأنفسها ، فحوله دار الصراع ، وبه افتتنت النساء ، وإليه هرع المشترون للزينة أحيانا ، ولادخار الثروة أحيانا أخرى ، بعد أن فقدت أوراق النقد قيمتها . ولن يتساءل عقل بإلحاح بعد الآن : لماذا الذهب الهندي ؟ فقد أدركت أن الجمال والفن هو تراث عريق لبلدان ذات حضارة وثقافة ، ويسكب الصانعون روحهم في كل قطعة يشغلونها ليمنحوها سحرا وفتنة وجاذبية . □

خضراء

شعر : رضا الصخني*

إنكِ خضراءُ كحقلٍ يمتدُّ بحجمِ العالمْ
لكنّي وأنا أجتازُ حقولَكِ تحتَ المطرِ الناعمْ
تتجمعُ في قلبيَ أفراحُ الناسْ
مثلَ مراكبَ ترسو عندَ خليجْ
اعرفُ أنّكِ أصغرُ مِنْ زهرةِ آسْ
حتى أنّي أقدرُ أنْ أخفيكِ بقلبي دونَ ضجيجْ

حينَ تراشقْنا بالضوءِ ، أنا والنجمةْ
تلكَ المتطرفةَ اللمعانْ
حاذرتُ كثيراً أنْ أذكرَ اسْمَكِ
إنّ الإنسانَ يخشى أنْ تَسْمَعَهُ العتمةْ

بينَ دقائقِ نومي البيضاءْ
بينَ دقائقِ نومي ذاتِ الأطيافِ الكبرى
مِنْ جهةِ الفجرِ إلى جهةِ الفجرِ الأخرى
تخترقُ الليلَ عصافيرُ زرقاءْ
تتلى ، تتلى ، تتلى

لكنْ إذ أخرجُ مِنْ نومي
نحوَ شوارعَ خاليةٍ ودقائقَ حيرى
أسألُ عن وجهكِ كُلَّ الأشياءْ
فتسيلُ الخضرةُ حتى أطرافِ العالمْ
وأنا مشدوهٌ بالفرحِ الآسرِ تحتَ المطرِ الناعمْ



* شاعر وكاتب من القطر العربي العراقي

صدر العدد الجديد

العربي الصغير

مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي

مايو ١٩٨٩



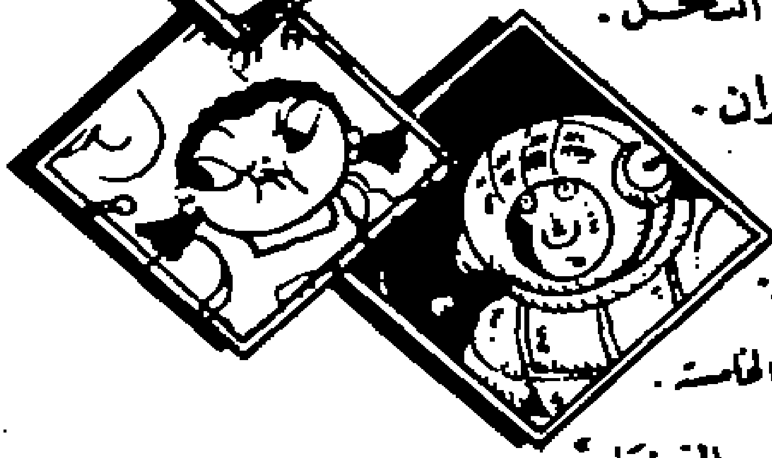
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي



يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين

في هذا العدد

- استطلاع "طالع النخل".
- هام .. مصارع الثيران.
- دعوة إلى زيارة سور الصين العظيم.
- "ذات الهمة" الحلقة الخامسة.
- قصة الخيال العلمي "سر أنبوب الفضاء".



إضافة للأبواب الثابتة

- إسلاميات
- كمبيوتر
- ٨ صفحات الملك الصغير والملكة الصغيرة
- دائرة معارف العربي الصغير



وجهاً لوجه





محمد سعيد الصكار * هاني مظهر

■ من خلال تجاربي اكتشفت أنني أحمل تصوراً خاصاً لشخصيات الحروف.

■ المشاهد يتجاوز الدلالة المباشرة للكلمة لا لكي يجد دلالة تعبيرية إضافية فقط، وإنما ليستمتع بوضعها التشكيلي.

■ الفنانون الذين استلهموا الحرف لم يستفيدوا مما في الخط من قيم تشكيلية!

محمد سعيد الصكار فنان متعدد المواهب ، فهو خطاط ومصمم أغلفة وملصقات جدارية وطوابع بريد ، وهو فضلا عن ذلك شاعر ومحرر صحفي . وقد أهلته مجالات النشاط التي يمارس أعماله فيها لأن يكون عضوا في أكثر من اتحاد أو نقابة ، فهو عضو جمعية التشكيليين العراقيين ، وعضو اتحاد الأدباء ونقابة الصحفيين العراقية . أصدر مجموعتين فنيتين لأعماله الخطية ، وأقام عددا من المعارض .

أجرى الحوار معه الفنان التشكيلي هاني مظهر ، وهو فنان من العراق ، حصل على عدد من الجوائز التقديرية والميداليات ، ويعمل رساما صحفيا منذ عام ١٩٨٠ .

* تأسيس نقد خطي وتحديد المصطلحات الخطية ، دعوة تتبناها باهتمام بالغ . ما مرتكزات هذه الدعوة والخط العربي مقنن إلى حد يجعلنا نعتقد أن المصطلح الخطي محدد سلفا ؟

- التقنين الذي تتحدث عنه قائم فعلا ، ولكنه لا يعني استقرار المصطلح ، لأن التقنين يحدد ميزان الحروف ، ونسبة الحرف إلى النقطة القياسية ، وهي نقطة مساوية لعرض سن القلم أو القصبة التي نخط بها ، ونقول مثلا : إن حرف الألف المفردة في خط الثلث تساوي سبع نقاط ، وأما في خط الرقعة تساوي ثلاثا ، وهكذا الشأن في بقية الحروف . وهذه مسألة قياسية ، وليست مصطلحا . أما المصطلح فهو تحديد دلالة العبارة . وهذه الدلالة غائمة في المصطلحات الخطية ، ومربكة للباحث . فمصطلح مثل (المشق) ، يعني مرة الكتابة السريعة ذات المدات ، ومرة التجارب الخطية التي يقوم بها الخطاط لتطويع يده قبل الخط ، وأخرى الحروف المفردة أو الموصولة التي يبين فيها الخطاط لتلاميذه كيفية أدائها ، وتسمى (الكراسة) أيضا ويذهب بعض الباحثين خطأ إلى أن (المشق) نوع من الخط .

وهكذا ترى أنه في مصطلح واحد تتشعب المعاني والدلالات ، وتبقى الاستنتاجات على أساس غير مستقر ، يذهب بالحقيقة بعيدا عن موقعها . وأنا أدعو إلى دراسة هذه المصطلحات في ضوء الواقع العملي ، لكي تتحدد الدلالة وتفهم المعاني ، ونميز بين ما هو خط وما هو كتابة ، فلا نحيل كل ما هو مكتوب على الإنتاج الخطي .

خلط في المفاهيم

* لكنني أعتقد أن مثل هذا الخلط في المفاهيم لابد أن ينعكس على « النقد الخطي » الذي تجتهد في الدعوة إلى تأسيسه .

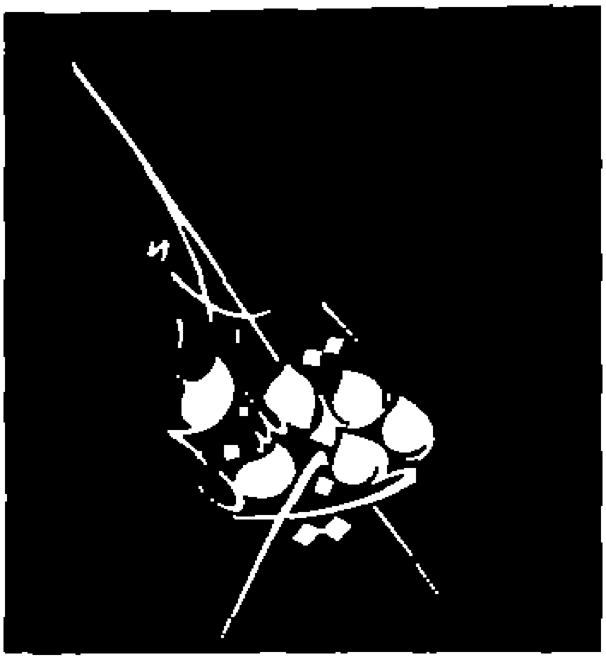
- نعم ، إن دعوتي إلى تأسيس (نقد خطي) استجابة لحاجة يفتقر إليها تاريخ الخط العربي ، لأن الكثرة الكاثرة في كل ما نقرأ عن الخط تفتقر إلى منهج علمي في تقويم الخط ، وهي لا تخرج عن حدود الانبهار والإعجاب . أما العناصر الجمالية المثيرة لهذا الاعجاب ، والأسس الفنية التي يقوم عليها ، فتلك قضية لم تعالج حتى الآن .

وفي كتابي (حديث القصبة) الذي سيصدر عن قريب ، أطرح مشروع منهج لنقد الخط العربي ، يقوم على تحليل الخط المجرد باعتباره (مسافة بين نقطتين) ، أو (مجموعة من النقاط)، والحالات التي يكون عليها في حركته ، ونصيب الخط العربي من هذه الحالات . فالخط المستقيم مثلا له تأثير على الرائي يختلف عن تأثير الخط المنحني ، وكلاهما يختلفان بعضا عن بعض إذا اختلفت كتلة كل منهما . وأنا أعطي اهتماما كبيرا لمستوى حركة الكتلة في الخط ، وعلى أساسها أبحث الآثار البصرية ، وما يتبعها من أثر في الوجدان .

لاحظت أن الخط العربي قد درس بعناية بالغة ، لا من خلال الوضع الهندسي للحرف ، وإنما من خلال حركة اليد وارتكازها ، وحركة سلاميات الأصابع ، لذلك سعيت إلى تحليل هياكل الحروف من خلال مسارها المرتبط بالحالة الفيزيولوجية . فقلت مثلا : إن الحرف الفلاني ، يؤدى جزؤه الأول بسحبة يد حرة ، وأن جزءه الأخير يدخل عليه (التمحل أو المعالجة) التي هي خارج حرية الحركة . وبينت أي الجزئين أكثر دلالة على موهبة الخطاط ، وأيهما أكمل في المستوى الجمالي وعلى هذا الأساس وضعت بعض الافتراضات لتحليل جمالية الخط العربي .

ومن ناحية أخرى ، حاولت في تجربة لي ، أن أجعل وعيي محايدا وأكلفه بالمراقبة ، دون اعتساف . وهي تجربة سبق أن قمت بها في كتابة الشعر ، وسميتها (الانفعال المدرب) أو (الخيال المروض) ، للتحرر من سلطة الوعي الناقد أثناء العملية الشعرية .

وفي تجربة الخط ، رافقت بوضوح إحساسي الداخلي ، وتناغمه مع حركة اليد ، وما رافق ذلك من صحو ذهني وبصري حادين لقد شعرت بتكامل فيزيولوجي وأنا أخط ، أي أن اليد كانت تجري على رسلها دون عنت أو كد ،



● ولقد مكناكم في الأرض (قرآن كريم)

وهذا الجريان يتناغم مع حركات أحسها في داخلي ، في جزء من صدري ، قريب من القصبة الهوائية ، وليس في القلب أو الرأس . مما كان يشيع نوعا من التوازن الداخلي ، والانتشاء والاحساس بالرضا ، ليس الرضا عن نتيجة العمل ، وانما الرضا عن كوني اعطيت كل ما أقدر عليه .

● وهل تترك لك هيئات الحروف حرية كافية لتشكيل تصورك الخاص عنها ؟

ـ من خلال تجاربي في دراسة هيئات الحروف ـ وأن أعرف بحكم المهنة هذه الهيئات ومستوياتها ، لأنها راسخة في (ذاكرة اليد) إذا جاز التعبير ـ اكتشفت أنني أحمل تصورا خاصا لـ (شخصيات الحروف) يصنف الحروف إلى شخصيات أليفة ، وأخرى مترددة ، وأخرى مكابرة أو عدوانية ، وهكذا . ومثل هذه التصورات كانت تتدخل حتما في الهيئة النهائية التي يكون عليها الحرف ، على الرغم مما ذكرته عن الهيئة الراسخة في (ذاكرة اليد) .

إن مثل هذه التجارب ، اضافة إلى الدراسة المتأنية الدقيقة لما تركه السلف الصالح من أصول وقواعد لهذا الفن الجميل ، تساعد حتما في التأسيس للنقد الخطي ، وتسهل علينا تحديد المصطلحات الخطية في ضوء الواقع العملي التطبيقي لها .

المصطلح النقدي للخط

● الدعوة إلى تحديد المصطلح الخطي تعني أننا لا نملك بعد مثل هذا المصطلح ، أو أننا لم نتفق عليه وهذا يعني أننا لا نملك مرتكزا للعملية النقدية ، ففي غياب المصطلح يعجز النقد عن تحديد مسارات واضحة للتطوير ، فكيف توفق بين الدعوة للتطوير والدعوة إلى تحديد المصطلح الخطي ؟

- الدعوة إلى التطوير ليست مشروطة بالنقد الخطي ، فقد جرى التطوير فيما مضى في غياب هذا النقد ، واعتمادا على الحس والتجربة الفنية والحياتية ، ولكن النقد يساعد على تسريع عملية التطوير بما يكشفه من جماليات خفية في العملية الخطية ، ويختصر الطريق على المبدعين بقدرته على التحليل والتصنيف ، واضاءة الأعمال الخطية . إنه يحمينا من الانزلاق إلى المنعطفات الخطرة ، وإضاعة الوقت في البحث عن تجارب قد لا تكون ذات أهمية ، والنقد يعنى بتحديد المصطلحات كما يعنى بكشف العملية الابداعية في الخط .



● وجعلنا من الماء كل شيء حي (قرآن كريم)

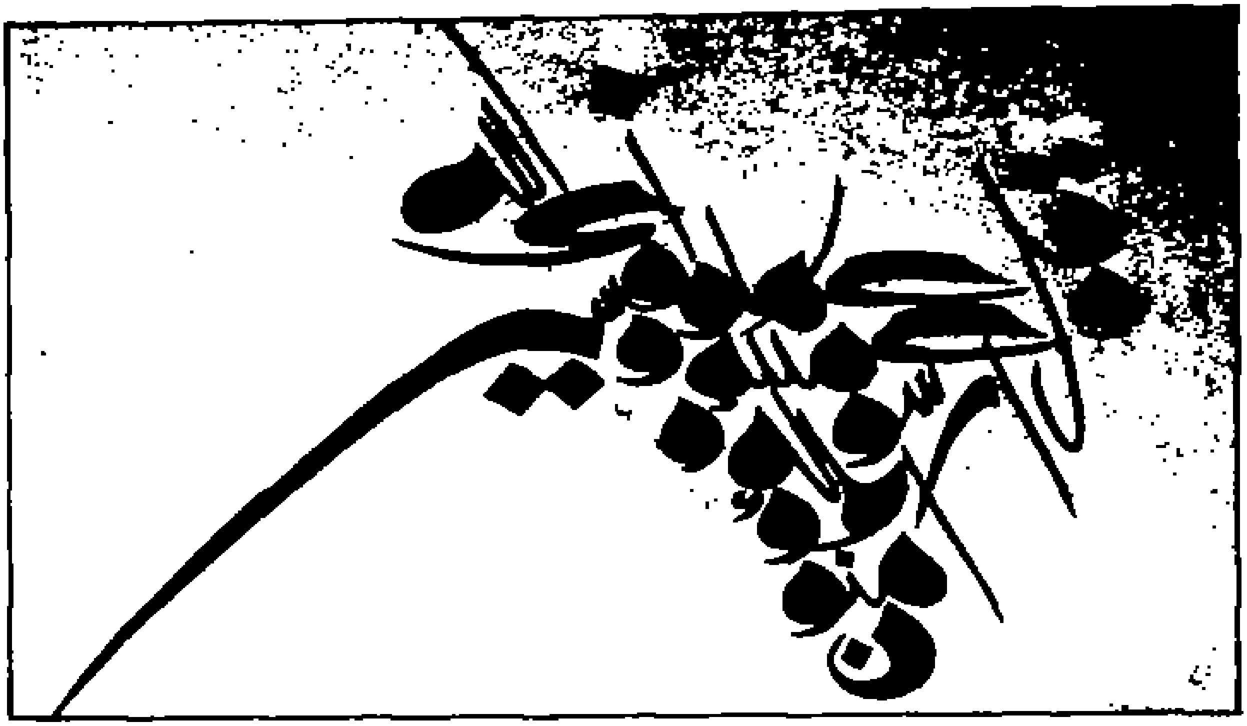
وهناك الكثير مما يمكن للنقد أن يبدأ به في غيبة دقة المصطلح ، من خلال ما يطرحه من اصطلاحات جديدة ، ومن خلال ما هو موجود من مصطلحات واضحة ، إذ ليست كل المصطلحات غائمة وغير ذات دلالة واضحة .

● هل يملك الخط العربي الطاقة التعبيرية الكفيلة بدفع المشاهد إلى تجاوز الدلالة المباشرة للكلمة ؟

- لاأشك في ذلك . لأن الخط قيمة تشكيلية ، إضافة إلى كونه قيمة تعبيرية،وهذا ما رمى إليه « الصولي » عندما قال : (ومن فضل حسن الخط أن يدعو الناظر إليه إلى أن يقرأه وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول) والمشاهد يتجاوز الدلالة المباشرة للكلمة لا لكي يجد دلالة تعبيرية إضافية ، وإنما ليستمتع بالوضع التشكيلي له . أي أنه يتجاوز التعبير المباشر إلى حالة من الجمال المطلق .

شخصية الخط المستقلة

● نظرية « البعد الواحد » التي وضعها الفنان (شاكر حسن آل سعيد) تعد من أهم الظواهر الفكرية في الفن العربي المعاصر . تنطلق هذه الظاهرة أساسا من الحرف وما يهمنا في هذا الحوار لا يدخل في جوهر التنظير للبعد الواحد وإنما ما نتج عنه من الالتباس في المفاهيم الخطية تجده مجسدا وبشكل سافر في اللوحة الحروفية التي روجت لها هذه النظرية . وقد تحدث الفنان آل سعيد - الذي أسس هذا الاتجاه وقاده - عن الحرف والأثر . والخط عنده ليس

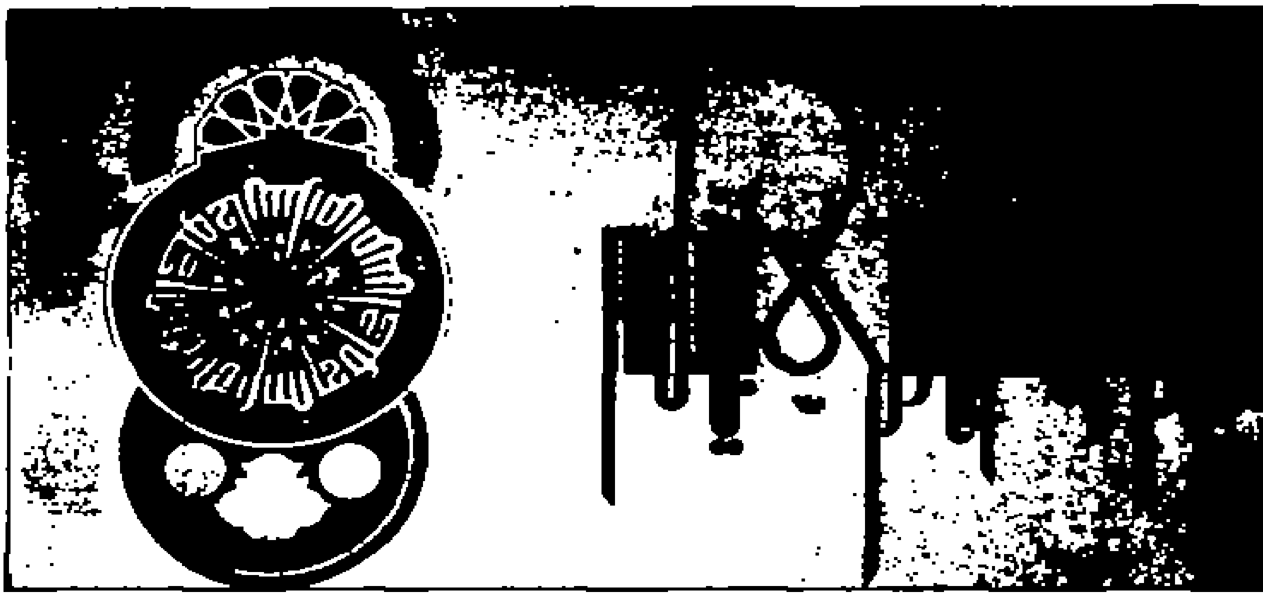


● وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون (قرآن كريم)

سوى « علامة » ليس لها صلة بمفهومنا المسبق عنها . في حين نجد أغلب الفنانين الذين استلهموا الحرف على ضوء هذه النظرية استندوا إلى « الخط » دون الاهتمام بشخصيته المستقلة التي بنيت على أسس جمالية وتاريخية تخصه دون سائر الفنون . وهذا يثير تساؤلا آخر هو هل تملك القيم الخطية القدرة على تحقيق الشخصية المستقلة للفن العربي بشكل يمنع عنه التصرف المتعسف ؟

- لست متفقا معك في كون الفنانين الذين استلهموا الحرف استندوا إلى الخط . لأنهم ظلوا في الواقع ضمن إطار الحرف من حيث هو إشارة أو سطح لا أكثر . ولم يستفد أحد منهم مما في الخط من قيم تشكيلية ، ربما لأنهم لايعرفونها ، وربما لأنهم يعرفونها وتخونهم (شجاعتهم) في التعامل معها بالحرية التي تتيحها اللوحة التشكيلية . وقد تدخلت جملة من العوامل في خلق ظاهرة اللوحة الحروفية ، منها ما وصل إليه الفنان العربي في بحثه عن الهوية القومية في الفن التشكيلي . ونحن نعرف أن الفنان العربي بدأ

بتقليد فنون الغرب وهو يتعامل مع اللوحة التشكيلية وفق المفهوم المعاصر لها ، ثم أخذ في بحثه عن نفسه يتلمس طريقه إلى الينابيع الفنية العربية ، وكان أبرز وأنقى هذه الينابيع هو الخط العربي ، فإلى جانب ما يتمتع به الخط العربي من أصالة بحكم نشأته وتطوره في محيط عربي صرف ، لم يخضع هذا الخط لمؤثرات الثقافات الأخرى في حين خضع لدراسة فكرية ووجدانية جادة تشكل نموذجا للفكر والوجدان العربي والاسلامي ، كما أنه أقرب إلى الفنان العربي المعاصر من معطيات الحضارات القديمة كحضارة الفراعنة وحضارة بلاد الرافدين بل هو أقرب إليه حتى من « الواسطي » بسبب البون الواسع بين مفهومي اللوحة عند الواسطي



● آيات قرآنية

واللوحة عند الفنان المعاصر .

وقد بدأت محاولات الفنان العربي في استلهام الحرف العربي ساذجة ، وهذا ليس عيبا ، فباب التجريب كان مفتوحا للوصول إلى نتائج قد تكون مجدية ، إلا أن الفنان العربي وبسبب خضوعه للمنطق الغربي في فهم واستيعاب الحرف العربي ، لم يتمكن من خلق رؤيته الخاصة التي تتيح له استيعاب البناء الداخلي للحرف العربي مما جعله يقف عند حدود المظهر التصميمي للحرف ، ومثل هذا المظهر لا يمكن أن يكون أساسا لخلق فن يملك القدرة على تحديد الهوية القومية للفنان العربي .

هوية قومية للفن العربي

● وهل نستطيع أن نقول بأننا لازلنا نفتقد إلى أوليات ووسائل تأسيس رؤية قومية متميزة ؟

- لا أستطيع أن أبخس الفنان التشكيلي حقه ، فهناك تجارب متميزة أضافت الكثير للوعي الجمالي العربي ، وللعديد من التجارب الفردية أثر قد لا يبدو ظاهرا ومؤثرا إلا أنه يتضح بالتقائه مع السياق الابداعي العام . ومع علمنا بأن التراكم الحضارى مهم في الوصول إلى قوانين الابداع نستطيع أن نقول بأننا نسير باتجاه تحقيق الهوية القومية للفن العربي ، وإلى أن نصل إلى غايتنا علينا أن نفتح لوسع الأبواب أمام التجريب والخروج من القوالب والمفاهيم الجاهزة التي لم تصل بعد إلى مستوى يمكن الركون إليه .

● كيف يمكن تحديد الهوية القومية ، وعن أي طريق ؟

- قلت ان الخط العربي أنقى ينابيع الابداع العربي وأبرزها ، ولم أقل انه الينبوع العربي الوحيد ، فالفنان العربي المعاصر يملك إرثا سخيا من القيم الجمالية ، وحتى من العناصر التشكيلية الناجزة ، وهو الآن يعيش حيلة يحتدم فيها الصراع بين حاجته إلى ترسيخ كيانه وتطويره وبين العوامل المضادة ، ويمثل هذا الموروث وهذه الحياة يكون بين يدي الفنان العربي مادة غنية للابداع ، ولا يبقى مطلوب منه سوى الابداع وهذا يمكن مناقشته في حدود كل تجربة إبداعية لأننا لم نتوصل بعد إلى نتائج تضع بين أيدينا حقوق التعميم . □

النظارات الشمسية

هل تضر العين ؟



بقلم : الدكتور توفيق عبدالحميد الدسوقي *

من المظاهر السلوكية المصاحبة للمجتمع الاستهلاكي ، اقبال الكثير من الناس على استخدام النظارات الشمسية والطبية ، لحماية العين من أشعة الشمس . فما مدى ملاءمة استخدام هذه النظارات للظروف المناخية ، وهل يسبب استخدامها أضرارا للعين ؟

في فصل الصيف يكثر الناس من استخدام النظارات الشمسية والطبية الملونة . والملفت للانتباه أن استخدام هذه النظارات يكون ذاتيا وتلقائيا دون اكراه على ذلك ، كما أن استعمالها ليس مقصورا على أعمار معينة ، بل تشمل جميع الأعمار ، وإن كانت شائعة بين الشباب والمسنين أكثر من الأطفال .

وفي هذه الأيام نرى أنواعاً كثيرة من النظارات الشمسية ، والتي تختلف في الشكل واللون والطراز ، بحيث لا تحجب أشعة الشمس القوية عن العين فقط ، بل وتعطي جاذبية أكثر وتزيد الوجه جمالا .

لكن هل تطرق إلى أذهاننا أن النظارات الشمسية أو الطبية الملونة يمكن أن تسبب ضررا

العين والألوان :

العين ترى جزءا صغيرا من طيف الشمس ، ويسمى بالطيف المرئي ، ويتكون من الألوان السبعة بدءا باللون البنفسجي فالنيلي فالأزرق فالأخضر فالأصفر فالبرتقالي فالأحمر على التوالي . هذه الألوان يعبر عن طول موجاتها (ل) بوحدة قياس طولية صغيرة تسمى النانومتر * حيث تبدأ أطوال الموجات للون

* أستاذ البصريات بكلية العلوم جامعة عين شمس القاهرة

* النانومتر يساوي واحد على المليون من المليمتر .

البنفسجي ل = ٣٨٠ نانومتراً ، وتنتهي بالأكثر طولا للون الأحمر عند ل = ٧٨٠ نانومترا .

وتختلف حساسية العين لرؤية هذه الألوان حيث تصل حساسيتها إلى أكبر قيمة للون الأخضر وتقل كلما اتجهنا نحو البنفسجي أو الأحمر .

لذلك نجد أن الله قد خلق لنا النباتات والأشجار كلها باللون الأخضر . كما أن الأطباء ينصحون الناس بالراحة في الريف حيث الخضرة تحيط بهم من كل مكان ، مما يجعل العين تتعرض لأقل إجهاد ممكن وبالتالي تكون أكثر استرخاء .

والأشعة التي لها تردد + (ت) أكبر من تردد اللون البنفسجي أو طول موجي أقل من ٣٨٠ نانومترا تسمى بالموجات فوق البنفسجية ، والتي لها تردد أقل من تردد اللون الأحمر أو طول موجي أكبر من ٧٨٠ نانومترا تسمى بالموجات تحت الحمراء .

وحيث إن المنطقة المرئية للعين تنقسم إلى الألوان السبعة ، فإن الأطياف فوق البنفسجية وتحت الحمراء تنقسم كل منها إلى ثلاث مناطق حسب المعايير الدولية ، وكما هو مبين بالجدول رقم (١) .

وكثير من النظارات الشمسية تهتم بالشكل والمظهر واللون والطراز الذي يرضي ويشبع رغبة ونفسية الأشخاص أكثر من الاهتمام في حماية العين من الأشعة غير المرغوب فيها ونسبة نفوذها بالقياس إلى الأشعة المرئية . ولقد أوضحت الأبحاث في السنوات الأخيرة ، أن النظارات الشمسية والطبية الملونة جميعها ، سواء كانت رخيصة أو غالية الثمن ينفذ منها جزء كبير من الأشعة فوق البنفسجية ، وتحت الحمراء لطيف أشعة الشمس ، بينما تحجب كثيرا من الأشعة المرئية . لهذا فإن العين التي تتعرض فترة طويلة لأشعة الشمس النافذة من النظارات يتسبب لها ضرر ، وخاصة إذا كانت نسبة الأشعة المرئية النافذة أقل من ٨٠٪ من الأشعة الكلية الساقطة على العين .

الضرر الكيميائي والضرر الحراري :

إن الضرر الناتج من أشعة الشمس على العين إما أن يكون كيميائيا أو حراريا . ومن دراسة نوعية الضرر يمكننا ربطه بطبيعة تكوين طيف أشعة الشمس حولنا ، وطاقة الأشعة التي تنفذ من خلال النظارة ، ثم خلال أجزاء العين حتى تصل إلى الجزء الحساس للرؤية وهو الشبكية ، ونوعية التأثير المتبادل فيما بينها . كما يعتمد على نوعية النظارة الشمسية أو الطبية الملونة التي تستخدم لتقليل كمية الضوء الساقط على العين . كما أنه يعتمد بالتالي على مدى اختلاف حساسية أجزاء العين لهذه الأشعة ، وأيضا على مقدار جرعة التعرض للأشعة

المنطقة فوق	الطول الموجي	المنطقة تحت	الطول الموجي
البنفسجية	بوحدة النانومتر	الحمراء	بوحدة الميكرومتر **
المنطقة أ	٣١٥ - ٣٨٠	المنطقة أ	٠,٧٨ - ١,٤
المنطقة ب	٢٨٠ - ٣١٥	المنطقة ب	١,٤ - ٣
المنطقة جـ	١٠٠ - ٢٨٠	المنطقة جـ	٣ - ١٠٠٠

جدول (١) الأطوال الموجية للمناطق فوق البنفسجية وتحت الحمراء

+ يقاس تردد الموجة بوحدة الهيرتز ، سرعة الموجة هي حاصل ضرب الطول الموجي في التردد .

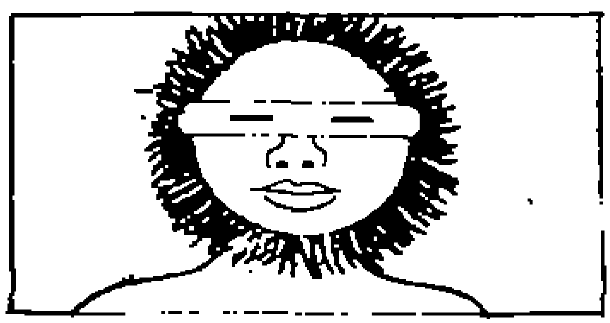
** الميكرومتر وحدة قياس طولية أكبر من النانومتر ، وتساوي واحدا من الألف من المليمتر .

الشمسية ، وأخيرا على نوعية الضرر الناتج إذا كان مؤقتا أو مزمنا .

الضرر الحراري لأشعة الشمس على العين يتم فقط ، إذا نظرنا بصورة مباشرة ولفترة زمنية طويلة ، أو حتى لفترة قصيرة لقرص الشمس ولكن باستخدام نظارة مكبرة أو تليسكوب رؤية . وفي الحالتين تعمل قرنية العين وعدستها على تركيز الطاقة الحرارية للأشعة تحت الحمراء الساقطة من أشعة الشمس على شبكية العين ، وتضاعفها آلاف المرات مما يسبب ضررا بالغا ، قد يأخذ شكل عمى مؤقت ، تماما كأن نجمع أشعة الشمس بعدسة محدبة على ورقة فتحرقها . وأكثر الأشخاص تعرضا لهذا الضرر الحراري هم الباحثون في محطات الأرصاد الشمسية .

وحقيقة الأمر أن الضرر الحراري عادة يسبقه ضرر كيميائي ، نتيجة تركيز الضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية ، أما إذا زادت نسبة الأشعة تحت الحمراء فإن الضرر الكيميائي يقل ، ويصبح الضرر الحراري هو السائد .

علمنا إذن أن تأثير الأشعة تحت الحمراء على العين هو تأثير حراري ، وعندما تنفذ هذه الأشعة من النظارات ، وبنسبة كبيرة ، فإن أجزاء العين تمتصها بنسب متفاوتة ، وتسبب ارتفاعاً في درجة حرارة أجزاء العين ، خاصة



الصيادون في بلاد الاسكيمو يغطون وجوههم بقطعة من العظم أو الخشب وبها شقان صغيران أمام العينين لتلافي الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة من سطح الجليد .

القرنية ، والقزحية ، ويظهر ذلك في شكل ألم شديد ، واحمرار في العين .

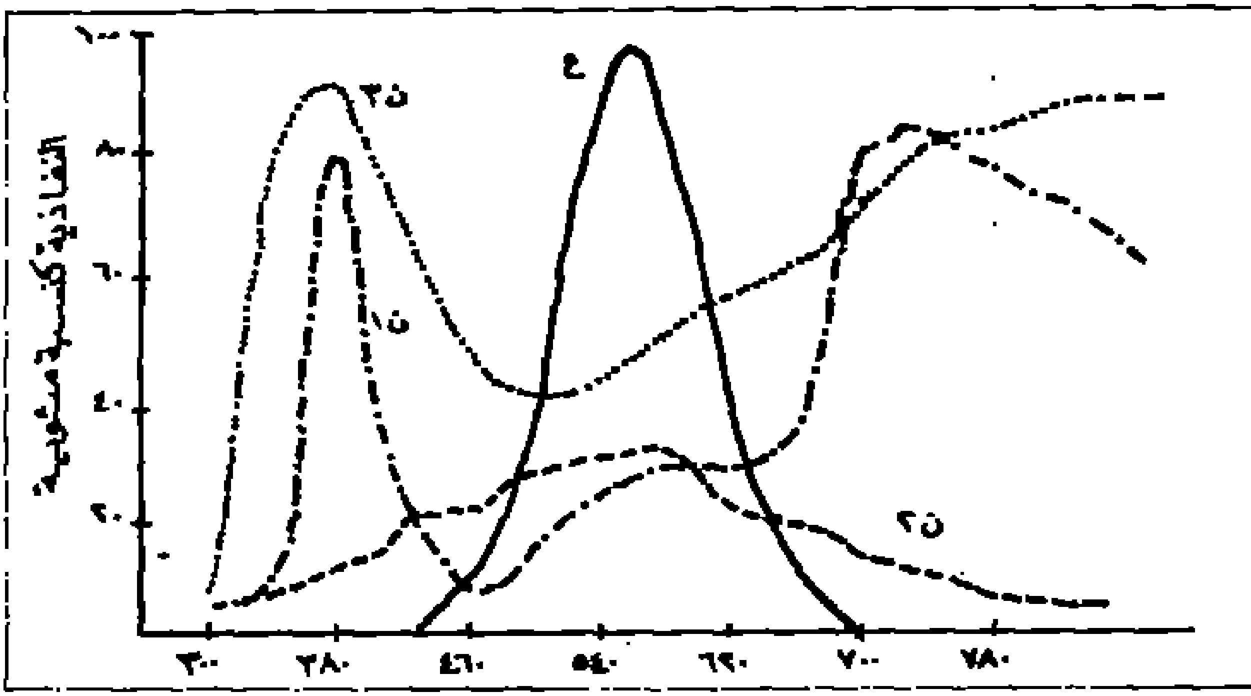
إن العصب الحسي الذي ينتهي عند القرنية والقزحية حساس جدا لأي ارتفاع بسيط في درجة حرارة العين ، ويزداد الألم والضرر إذا ارتفعت درجة حرارة العين إلى ٤٧ درجة مئوية حيث يسبب تعتيما مؤقتا لعدسة العين حتى ولو كان التعرض لفترات زمنية قليلة .

عمى الجليد :

هناك ضرر آخر يسمى عمى الجليد ، وهذا يحدث عندما تنظر عين الإنسان للجليد لفترة طويلة ، حيث إن سطح الجليد يعكس أكثر ما يكون الأشعة فوق البنفسجية لطيف الشمس ، وتفسير ذلك أن أكثر الموجات فوق البنفسجية ضررا على العين تلك التي لها طول موجي يتراوح ما بين (٣٠٥ ـ ٣٢٠) نانومتر ، حيث إنها أكثر نفاذية عبر جدار القرنية من باقي الموجات فوق البنفسجية ومسببة ضررا كيميائيا يظهر على شكل تعتيم لشفافية السائل المائي للعين والعدسة البلورية لها .

هذا الضرر يعتمد على فترة التعرض التي يمكن أن تكون ما بين عدة دقائق إلى ثماني ساعات حسب طبيعة تكوين خلايا العين لكل انسان .

عندما يسقط ضوء شديد على العين ، فإن بؤبؤ العين يضيق كي يحدد كمية الضوء المناسبة للسقوط على الأجزاء الداخلية للعين ، تماما مثلما نفعل بآلة التصوير (الكاميرا) عند أخذ صورة تحت الضوء الشديد . لكن ذلك لا ينطبق على القرنية التي لا يحميها من أشعة الشمس إلا قفل الجفون أو تضييقها أكثر ، مثلما يفعل رجال الاسكيمو لتفادي الأشعة فوق البنفسجية المنعكسة من سطح الجليد عند سقوطها على العين وعلى أجزائها الداخلية .



(٢) يمثل المنحنى ع حساسية عين الانسان للطيف الشمسي ، والذي تصل إلى أكبر قيمة عند اللون الأخضر للطيف المرئي وتقل إلى صفر عند طيف الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء . أما المنحنيات ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ فهي نفاذية ثلاث نظارات شمسية مختلفة للطيف الشمسي .

الفيض الضوئي النسبي :

إذا اعتبرنا الفيض الضوئي الساقط على أجزاء العين هو حاصل ضرب كمية الضوء الساقطة عموديا مضروبا في مساحة بؤبؤ العين ، ورمزنا بالرمز (ف) للنسبة بين فيض الضوء الساقط على العين باستخدام النظارة ، والفيض بدون استخدام نظارة ، فإننا نجد أن النظارة تكون أداة جيدة لحماية العين إذا كانت هذه النسبة (ف) أقل من واحد صحيح . أما إذا كانت النسبة أكبر من واحد صحيح ، فإن النظارة في هذه الحالة تكون أداة ضارة للعين .

في النظارات المثالية تكون هذه النسبة (ف) تساوي صفرا في المناطق فوق البنفسجية وتحت الحمراء لضوء الشمس لكن ذلك لا يحدث حتى لأجود أنواع النظارات الشمسية . ويبين الجدول رقم (٢) قيم هذه النسب لبعض مناطق الأشعة فوق البنفسجية للثلاثة أنواع من النظارات السابق تحديد نتائجها من قبل ، وذلك في وقت الظهيرة عندما تكون الشمس متعامدة في السماء ، وفي الأوقات الأخرى التي تميل فيها الشمس إلى التعامد بزاوية قدرها ستون درجة . كما يتضح من الجدول اتساع قطر بؤبؤ العين عندما تقل كمية الضوء أثناء مرورها بالنظارات . وتتزايد نسبة الأشعة فوق البنفسجية في طيف الشمس في منتصف النهار عنها في أي وقت آخر وكمثال على ذلك فإن الأشعة التي لها طول موجي ل = ٣٠٠ نانومتر تكون في وقت الظهيرة عشرة أمثال وجودها في طيف الشمس عن وقت العصر مثلا ، أي الساعة الثالثة بعد الظهر .

حماية العين :

عندما تظهر الشمس ساطعة وقت الظهيرة ، والسماء صافية تماما من الغيوم والسحب ، تكون شدة إضاءة الشمس كبيرة سواء في المناطق

الحارة أو على شواطىء البحار أو فوق الأسطح العاكسة لأشعة الشمس أو في مناطق باردة مغطاة بالثلوج ، ويلزمنا نظام وقائي كي نقلل من شدة أشعة الشمس الساقطة على أعيننا .
فإذا استخدمنا نظارات شمسية لفترة طويلة فإنها تقلل كمية الموجات المرئية أكثر من تقليلها للموجات فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، وهذا بالتالي يؤذي العين ويسبب لها أضرارا لسببين :

أولا : تزايد فتحة بؤبؤ العين كي يزيد من كمية الضوء المرئي المناسب للرؤية على الشبكية .

ثانيا : يتبع ذلك مع زيادة زمن التعرض أن تكون جرعة الموجات فوق البنفسجية وتحت الحمراء على أجزاء العين كبيرة وأكثر من ٢٠٪ من الضوء الساقط على أجزائها .

إذن نحن أمام خيارين ، وهما النظر إلى الشمس من خلال نظارة شمسية تحجب كثيرا من الضوء المرئي ، وقليلا من الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، أو أن ننظر إلى ما حولنا دون استخدام النظارة الشمسية حتى ولو كان الضوء شديدا .

في الحالتين فإن الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء سوف تسبب ضررا للعين ، لكن في الحالة الثانية يكون الضرر أقل لأن العين تكيف نفسها كي تحدد كمية الضوء الساقطة على أجزائها الداخلية ، فمثلا تضيق الجفون ، ويضيق بؤبؤ العين ، كذلك يمكننا الاستدارة عن المناطق المشمسة إلى مناطق الظل . لهذا فإننا ننصح بما يلي :

١ ـ عدم الثقة في أن النظارات الشمسية



تضيق الجفون عند النظر لأشعة الشمس القوية ، حتى تحمي العين من الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء .

تحمي العين تماما من أشعة الشمس ، ولهذا يجب تقليل استخدامها بقدر الإمكان وخاصة إذا كان ضوء الشمس ليس شديدا .

٢ ـ عدم الاهتمام بالمظهر الخارجي والألوان والطراز والسعر للنظارة الشمسية قبل الاهتمام بمقدار نفاذيتها لطيف الشمس والحفاظ على نسبة نفاذية ٨٠٪ أو أكثر للمنطقة المرئية بالنسبة لباقي طيف الشمس الواقع على العين .

٣ ـ اختيار نسبة الفيض الضوئي النسبي للنظارات الشمسية إن أمكن وخاصة في المناطق فوق البنفسجية ، واختيار النظارة التي لها نسبة فيض أقل من واحد صحيح .

٤ ـ إذا كان وضع الشمس بزاوية قدرها ستون درجة أو أكثر عن وضع التعامد في الظهيرة ، فإنه ينصح بعدم استخدام النظارات الشمسية وذلك لتقليل الأضرار الناشئة من الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية على أجزاء العين . ◻

● إن الأرض لتزين في عين الخليقة إذا كان عليها إمام عادل ، وتقبح في أعينها إذا كان عليها إمام جائر .

(ابن عباس)

أفكار للعقول

(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

مستقبل اللغة العربية *

جبران خليل جبران

١٨٨٣ ـ ١٩٣١

إنما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة ، أو ذاتها العامة ، فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر ، وفي التقهقر الموت والاندثار .

إذن فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن ـ أو غير الكائن ـ في مجموع الأقطار التي تتكلم اللغة العربية . فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها ، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية .

ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهب لأن العرب كانوا في حالة التأهب . وكان ينمو ويتمدد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النمو والتمدد . وكان يتشعب أيام المولدين لأن الأمة الإسلامية كانت في حالة التشعب . وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلون فيظهر آناً كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكي ، حتى راود النعاس قوة الابتكار في اللغة العربية فنامت ، وبنومها تحول الشعراء إلى ناظمين والفلاسفة إلى كلاميين والأطباء إلى دجالين والفلكيون إلى منجمين .

إذا صحّ ما تقدّم كان مستقبل اللغة العربية رهنَ قوة الابتكار في مجموع الأقطار التي تتكلمها . فإن كان لتلك الأقطار ذات خاصة أو وحدة معنوية وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيماً كماضيها ، وإلاّ فلا .

٢ ـ وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوربي والروح الغربية فيها ؟

إنما التأثير شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها ، فتمضغه وتبتلعه ، وتحول الصالح منه إلى كيانها الحي ، كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار . ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم ، فالطعام يذهب سدى ، بل ينقلب سماً قاتلا .

وأما الروح الغربية فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته . وحياة الانسان موكب هائل يسير دائماً إلى الأمام ، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوّن اللغات والحكومات والمذاهب . فالأمم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثّر ، والأمم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر . فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيتنا التأثير العظيم في لغاتهم ، وها قد

أصبحوا هم السابقين ، وأمسينا نحن اللاحقين ، فصارت مدنيتهم ـ بحكم الطبع ـ ذات تأثير عظيم في لغتنا وأفكارنا وأخلاقنا .

بيد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه ، فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه إلى كيانهم الغربي ، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ، ولكنه لا يتحول إلى كيانهم ، بل يحولهم إلى شبه غربيين ، وهي حالة أخشاها وأتبرم منها . !

إن روح الغرب صديق وعدو لنا . صديق إذا تمكنا منه ، وعدوّ إذا تمكّن منا . صديق إذا فتحنا له قلوبنا ، وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا . صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا ، وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه .

٣ ـ وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الأقطار العربية ؟

قد أجمع الكتاب المفكرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربية في حالة من التشويش السياسي والإداري والنفسي ، ولقد اتفق أكثرهم على أن التشويش جلبة الخراب والاضمحلال .

أما أنا فأسأل : هل هو تشويش أم ملل ؟ إن كان مللاً فالملل نهاية كل أمة وخاتمة كل شعب ، الملل هو الاحتضار في صورة النعاس ، والموت في شكل النوم .

وإن كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً ، لأنه يبيّن ما كان خافيا في روح الأمة ، ويبدل نشوتها بالصحو ، وغيبوبتها باليقظة ، ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الأشجار لا لتقلعها ، بل لتكسر أغصانها اليابسة وتبعثر أوراقها الصفراء . وإذا ما ظهر التشويش في أمة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها .

إذن فتأثير التطور السياسي سيحوّل ما في الأقطار العربية من التشويش إلى نظام ، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وألفة ، ولكنه لا ولن يبدل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة .

٤ ـ هل يعمّ انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتُعلّم بها جميع العلوم ؟

لا يعمّ انتشار اللغة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلّم بها جميع العلوم حتى تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية إلى أيدي الحكومات المحلية .

ففي سوريا ـ مثلاً ـ كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضوّرون ، ولقد أحيانا ذلك الخبز ولما أحيانا أماتنا . أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبه عقولنا قليلاً ، وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا ، حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتترنم بمحاسنها وأمجادها .

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي تتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً وتميتنا دهراً ؟

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلّم بها جميع العلوم ، فتتوحّد ميولنا السياسية ، وتتبلور منازعنا القومية ، لأنه في المدرسة تتوحد الميول ، وفي المدرسة تتجوهر المنازع ، ولكن لا يتم هذا حتى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمة . لا يتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه ، لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لأن المتسوّل المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحي . ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهوب مسيّر دائماً والواهب مخيّر أبداً . □

* من مجلة الهلال المصرية عام ١٩٢٩ .

فن السيرة من الفنون التي يقبل عليها القراء
للمتعة المتحصلة من قراءتها ،
لأنها تكشف عن جوانب متعددة من حياة العظماء والنابهين
في مختلف الميادين
لقد حظي هذا الفن باهتمام المبدعين العرب
الذين أضافوا للمكتبة العربية نماذج متميزة من السير ،
لكنه اهتمام لم يأخذ مداه .

فن السيرة الذي أهملناه

بقلم : الدكتور علي شلش

نشأ أدب السير والتراجم في أوربا قبل أن ينشأ عندنا . وكانت أولى ثماره وأقدمها كتاب « قصص حياة متماثلة » الذي ألفه المؤرخ اليوناني « بلوتارك » (٥٠ - ١٢٥ تقريبا) ، وبه أصبح أشهر أديب إغريقي في عصر النهضة الأوربية ، فقد ترجم إلى لغات العصر الأساسية ، وأثر تأثيرا كبيرا في مجرى الأدب و « الدراما » والسير . وحين نقله « توماس نورث » - عن الفرنسية - إلى الانجليزية ، ونشره في لندن عام ١٥٧٩ ، اختصر عنوانه إلى « قصص حياة » أو « حيوات » بمعنى أدق . ولكن هذا العنوان المختصر نفسه كان قد بدأ في الشيوع في الانجليزية قبل نقله إليها . ففي عام ١٥٣٥ نشر الكاردينال مورتون « حياة ريتشارد الثالث » متأثرا بنموذج بلوتارك في اللاتينية . ثم توالى ظهور عناوين السير والتراجم في صورة « حياة فلان » أو « حياة مجموعة » ، ابتداء من « حياة هنري الثامن » لفرانسيس بيكون عام ١٦٢١ ، إلى « حياة وليم بليك » لمونا ويلسون عام ١٩٢٧ ، مرورا بعشرات السير الأخرى المتشابهة العنوان ، ومنها « حياة جونسون » الشهيرة لجيمس بوزويل عام ١٧٩١ .

لكن الأهم من هذا كله أن كتاب بلوتارك وضع نموذجا لما يجب أن تكون عليه السيرة الأدبية ، فقد جمع فيه بعض أعلام اليونان والرومان في التاريخ والسياسة ، وتناول حياة كل منهم بأسلوب قصصي سردي بسيط ، مع إيراد بعض النوادر والحكايات عنه ، واستخلاص مغزى أخلاقي من حياته ، فكأنه مزج التاريخ بالأدب والأخلاق ، وكأنه أقام نموذجه في كتابة

السير على هذا المزيج ، مع التركيز على الأعلام والمشاهير من ناحية ، وبيان الخصائص الايجابية - أو الحسنات - في الشخصية من ناحية أخرى ، مع غض النظر عن خصائصها السلبية .

ظل هذا المفهوم « البلوتاركي » سائدا في السير والتراجم حتى نهاية عصر النهضة . وحين استقرت فكرة الفرد ، كأساس للمجتمع في ذلك العصر ، وجدت في مفهوم بلوتارك سندا كبيرا ، بل إن هذا السند كان قد قوي في العصور الوسطى ، قبل عصر النهضة ، حين ازداد الطلب على السير والتراجم بصفتها نموذجا للفضيلة والقداسة والعظمة في القديسين والملوك .

تطور فن السيرة

ولكن الحال مالبثت أن تبدلت بعد عصر النهضة ، وبداية العصر الحديث ، في القرن الثامن عشر . ومع نشأة الطبقات الجديدة ، وزيادة التعليم ، وإقبال الناس على القراءة ، بتأثير ضغوط السياسة والاقتصاد ، تطور مفهوم بلوتارك في كتابة السير ، ولم تعد حياة القديسين والملوك وأبطال التاريخ وحدها في الميدان ، بل تفكك التركيز على الخصائص الإيجابية في الشخصية ، وبدأ البحث في أغوارها ، والرجوع إلى آثارها الخارجية ، مثل الخطابات واليوميات والمذكرات والوثائق . وساهم الخيال مع العقل في رسم صورة هذه الشخصية ، وعصرها ، وسلوكها ، والبشر الذين أحاطوا بها . وحين أصدر « صامويل جونسون » كتابه « حياة الشعراء الانجليز » ، في الفترة من ١٧٧٩ إلى ١٧٨١ ، نادى في مقدمته بضرورة الصراحة في تصوير حياة البشر ، بحيث تخرج الحقيقة عارية غير مزوقة . وكان يرى أن حياة أي شخص تستحق التسجيل ، مهما كان نصيبها من العظمة . وهذا ما أخذ به « جيمس بوزويل » حين كتب سيرة « جونسون » نفسه بعد سنوات .

تنوعت السير منذ ذلك التاريخ تنوعا كبيرا ، وانتفعت كثيرا بتطوير العلوم الانسانية ومناهجها ، لاسيما علم النفس ، وحققت قدرا لا بأس به من الموضوعية والعقلانية مع المهارة الفنية وخفة الروح ، على يد رجل مثل « ليتون ستراتشي » (١٨٨٠ - ١٩٣٢) في بريطانيا الذي يعد مؤسس السيرة الحديثة . كما حققت قدرا آخر من الفنية القائمة على الجمال ، ونسبية الحقيقة ، والإطار القصصي ، والبناء الدرامي على يد رجل آخر مثل « أندريه موروا » (١٨٨٥ - ١٩٦٧) في فرنسا .

وهكذا نشأ فن السيرة في حضن التاريخ ، وظل مختلطا به قرونا عدة ، ثم استقل عنه - كما رأينا - وتفرع إلى جملة فروع . ومع ذلك ، ليس من السهل أن يتخلص من التاريخ بمعناه المجرد ، من حيث هو تراكم زمني ، وسلسلة من الوقائع والأحداث . وليس من الممكن أن تتحرر السيرة من الإطار الزمني ودورة الحياة ، ولا من التعامل مع الوقائع والأحداث العامة .

نشأة السيرة في الأدب العربي

عند هذا الحد يمكن أن نتساءل :

كيف نشأت السيرة في أدبنا إذن ؟

لقد حاول « أحمد أمين » أن يجيب عن هذا السؤال في مقال نشره في أوائل الأربعينيات ، وضمه إلى الجزء الثاني من كتابه الضخم « فيض الخاطر » بعنوان « تراجم الرجال في الأدب العربي » . وفي هذا المقال ذكر « أحمد أمين » أن تراجم الرجال تشغل في آداب اللغة العربية « أبين مكان وتستغرق أكبر حيز » . فأكثر ما نعرفه من ضروب التأليف القديم في الأدب نوعان : نوع تأسس على تراجم الرجال ، مثل كتب : الأغاني ، معجم الأدباء ، طبقات الشعراء ، يتيمة الدهر . ونوع آخر تأسس على المختار من المنظوم والمنثور ، مثل كتب : البيان والتبين ، الكامل ، العقد الفريد ، والسبب في

ظهور كلا النوعين ، في رأيه ، هو أنهما « أسهل الطرق على المؤلف » وكلاهما أيضا « نوع من التأليف الساذج ، وأول درجة في سلّم التأليف » . أما الباعث على تأليف تراجم الرجال فكان دينيا ، جاء بسبب الرغبة في تسجيل الأحاديث النبوية وسير النبي والصحابة . فكأن الأدباء ـ كما يقول ـ قلدوا المحدّثين ـ جامعي الأحاديث ـ الذين سبقوهم إلى هذا العمل . وبلغ تأثرهم بهؤلاء المحدثين أنهم قلدوهم في صيغ التعبير .

ومن أمثلة هذه التراجم ما فعله « ابن خلكان » في كتابه « وفيات الأعيان » حين ترجم لكل عين من أولي النباهة ، و « ياقوت الحموي » في كتابه « معجم الأدباء » حين اختص الأدباء بالسير ، « والثعالبي » في كتابه « يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر » حين جمع ما أمكنه من تراجم شعراء عصره . ولكن هذه الأمثلة وغيرها لم تسلك طريق البحث العلمي ، فوضعت الأساطير إلى جانب الحقائق ، وذكرت الحوادث على علاتها بغير تمحيص أو تحقيق ، وسردت الوقائع دون تقييم لموضوع نبوغ الذين ترجموا لهم على حد تعبير « أحمد أمين » .

وحاول « إحسان عباس » أن يدرس الموضوع على نحو أعمق ، فأخرج كتابا صغيرا قيما في أوائل الخمسينيات ، بعنوان « فن السير » تعرض فيه للسير قديمها وحديثها عندنا وعند غيرنا . وأجاب عن سؤالنا السابق بقوله :

« نستطيع أن نقرر في غير تعميم أن السيرة التاريخية ظلت حتى العصر الحديث أقوى أنواع السير عند المسلمين ... (وكان مؤرخوهم يعدونها جزءا من التاريخ) ، بل يرون أن التاريخ ليس إلا سير الحاكمين » وقال في موضع آخر من كتابه :

« ظل أكثر السير في العالم الإسلامي مجموعة من الأخبار المأثورة ، أو المشاهدات ، ليس فيها وحدة البناء ولا الإحساس بتطور الزمن ، ولا تتبع مراحل النمو والتغير في الشخصية المترجمة . وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام ، ودون محتوى واف كامل حتى العصر الحديث ، حيث واجهت بعض التغير في القاعدة والطريقة . وكان ذلك بتأثير من الثقافة الغربية » .

هذه الملاحظات والأحكام على السير والتراجم في الأدب العربي القديم صحيحة ، لا جدال في سلامتها . ومع ذلك ظلم « أحمد أمين » و « إحسان عباس » قدامى المترجمين وكتّاب السير ، حين لم يقارناهم بنظرائهم في أوربا خلال العصور القديمة . فقدامى الأوربيين من كتاب السير والتراجم ، ابتداء من « بلوتارك » حتى أوائل عصر النهضة ، وقعوا في الأخطاء نفسها تقريبا ، ولم يكونوا أحسن حالا من قدمائنا . ولكن من الواضح أن نشأة السير والتراجم عندنا كانت كنشأتها عند الأوربيين ، أي أنها نشأت في حضن التاريخ ، آيا كانت كفاءة التاريخ ، ثم ازدهرت في حضن الدين ، مثلما حدث في العصور الوسطى الأوربية حين شاعت تراجم القديسين .

أنواع السيرة

أما السيرة العربية الحديثة فقد تأثرت بالسيرة الأوربية كما لاحظ الدكتور عباس ، ولكن تقسيمه لها عام جدا ، فهو يقسمها إلى نوعين :

السيرة التاريخية ، ومن أمثلتها : « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل و « محمد على الكبير » لمحمد شفيق غربال .

والسيرة الأدبية ، ومن أمثلتها : « حياة الرافعي » لمحمد سعيد العريان ، « العبقريات » للعقاد ، « جبران خليل جبران » لنعيمة ، « منصور الأندلسي » لعلي أدهم .

ويكمن سر التعميم في هذا التقسيم فيما يسمى « السيرة التاريخية » التي لا أعتقد أنها موجودة ، فهناك سيرة ، وهناك أيضا تاريخ . وإذا كانت السيرة قد نشأت مختلطة بالتاريخ فهذا

ليس عيبا ، فضلا عن أنها لا تستطيع الاستغناء كلية عن التاريخ ، كما أشرنا من قبل . وإذا كان النبي (ص) شخصية تاريخية فهكذا كان محمد علي ، والرافعي ، وجبران ، ومنصور الأندلسي ، أبطال عبقريات العقاد . فكل هؤلاء أشخاص تاريخيون . وإذا كان التناول التاريخي سلاحا مهما من أسلحة مؤلف السيرة ، فليس معنى ذلك أن يستغني عن خياله عند الفهم والتفسير والتعبير . وإذا كان التناول الأدبي سلاحا مهما آخر ، فليس معنى ذلك أن يستغني مترجم الحياة عن عقله أو عن الحقائق الجافة عند التقييم والتقدير . وبذلك نستطيع أن نعمم فنقول :

كل السير تاريخية وأدبية في آن واحد ، ما دامت ليست بحثا في التاريخ أو الأدب ، وما دامت - أيضا - عن رؤية لحياة إنسان ما ، خطيرا أو حقيرا ، أي أنه لا توجد سيرة تاريخية ، وإنما يوجد كتاب تاريخي خال من عناصر الأدب ، ولا توجد أيضا سيرة أدبية ، لأن السيرة أدب مبني على التاريخ العام أو الخاص ، أو كليهما معا ، وإنما توجد في النهاية سيرة جيدة وأخرى رديئة ، سيرة فنية وأخرى غير فنية ، سيرة تفسيرية وأخرى « سيكلوجية » ، وهكذا .

غير أننا نتفق بعد ذلك مع الدكتور عباس في كثير من تحليله للسير التي ظهرت في أدبنا الحديث والحكم عليها . فهو يرى أن سيرة الرافعي « للعريان » ينقصها التمشي مع حركة النمو والتطور في البناء ، والتحرر من سلطان الإعجاب والتلمذة ، وعدم الاطلاع على بعض الوثائق المهمة مثل رسائل الرافعي « لمحمود أبي رية » . وهو يرى أن العقاد « حدّ من حريته في الكتابة ثلاث مرات : مرة حين افترض القداسة فيمن يترجم لهم ، وحاول أن يبرر ما يحسبه الناس خطأ . ومرة أخرى حين اختار أن يتحدث عن العباقرة لا عن الناس العاديين . وثالثة حين اختار للكتابة شخصيات لا يملك الشواهد الدقيقة عنها ، فإذا وجدها وجد الاضطراب الكثير . ونجم عن ذلك أنه لم يكتب سيرة ، وإنما كتب فصولا ، بعضها يتميز بالنظر الدقيق النافذ ، وبعضها يعتمد على قوة الذكاء في الفحص والتبرير ، كما هي الحال في كتابيه « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » . ولكن العاطفة الدينية قد حصرته في دائرة ضيقة . فليس هو العقاد الناقد الطليق » .

ويخرج الدكتور عباس من دراسته لعبقريات العقاد بأنها ليست سيرا بالمعنى الدقيق ، ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة ، والأحداث ، والأقوال المتعلقة بها ، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي ، مع لباقة في العرض ومهارة في اللمح والتفسير ، دون استقصاء أو تناول للمتعارف والمشهور بتفسير جديد . ولكنه يرى أن كتاب العقاد عن « سعد زغلول » كان أقرب كتبه إلى السيرة الصحيحة .

شيء واحد يدعو إلى الاختلاف هنا ، هو قوله : إن « العبقريات » ليست سيرا بالمعنى الصحيح ، وإن السيرة بمعناها الصحيح هي سيرة سعد زغلول . ولعل الأصح أن « العبقريات » سير ضعيفة ، وأن سيرة سعد زغلول قوية ، للأسباب التي ذكرها الدكتور عباس ، لأن السيرة مثل « فن رسم الوجوه portrait » كما قال « اندريه موروا » ذات مرة ، أي أنها رؤية شخصية لبطلها أو صاحبها ، ولكنها رؤية فنية أيضا ، مبنية على التاريخ العام ، أو الشخصي ، أو كليهما معا ، كما سبق أن أشرنا . وهي كذلك رؤية موثقة بالأدلة والقرائن والشواهد والمستندات . وبهذا المعنى تصبح « العبقريات » سيرا ، ولكنها سير ضعيفة

وينطبق ما ذكرناه الآن على « سيرة جبران » التي نشرها « ميخائيل نعيمة » عام ١٩٣٤ . فهي عند المؤلف نموذجية ، وبها « اكتمل للسيرة وجودها في الأدب العربي الحديث من حيث الغاية والتطبيق » ، وإذا وافقنا على الاكتمال من حيث

الغاية ، فلا يمكن مد الاكتمال إلى التطبيق ، لأن « نعيمة » أضعف السيرة بالتركيز ـ ربما دون أن يدري ـ على مظاهر الضعف في شخصية جبران ، حتى بدا الرجل كريها وانتهازيا وغشاشا ومتناقضا . ولم يعوضه « نعيمة » إلا في أدبه وكتاباته ، فضلا عن أنه لم يستقص علاقته الخاصة ببعض خاطبي صداقته ، مثل « ميّ زيادة » في مصر ، ولم يتتبع النمو والتطور والتغير في الشخصية مع مراحل التقدم في السن ، أو « تأثير الأحداث في الخارج والداخل على نفسية صاحبها » وهما خاصيتان لاحظ المؤلف وجودهما في السير الجيدة . ومع ذلك تظل سيرة جبران هذه من أفضل السير العربية الحديثة .

لماذا تدهور الاهتمام بالسير ؟

مر على ظهور هذه السيرة الجيدة نسبيا أكثر من نصف قرن ، دون أن تتلوها سيرة أخرى أفضل منها ،أو حتى من طرازها ، فماذا حدث ؟ هل أجدبت القرائح العربية المهتمة بهذا الفن العريق في أدبنا ؟

لقد أشار الدكتور إحسان عباس في كتابه المذكور إلى العديد من العقبات والمشكلات التي تواجه مؤلف السيرة ، لا سيما في جمع المادة وتفسير أجزائها . وأضاف قائلا : « لا أظنني متشائما أو مغاليا حين أقرر أن كتابة سيرة لأحد الأقدمين تعد أمرا معجزا » ، لأن الصدق التاريخي يكاد يكون مستحيلا إذا اكتفينا بمجرد الأخبار المتناثرة عن الشخص أو حياته . ثم أشار إلى قلة اهتمام المحدثين بالوثائق ، وإن كان « قويَ الميل أخيراً عند السياسيين أو المتصلين بحياة السياسة ، وحياة الرقص والغناء إلى كتابة مذكراتهم » .

وإذا كانت كتابة سير الأقدمين على النحو الصحيح قد صارت اليوم ضربا من المعجزات ، بسبب فقر المادة الخام ، كما أشار الدكتور عباس بحق ، فلماذا لانتج سيرا للمحدثين ؟ لقد مضى نحو ربع قرن على وفاة العقاد مثلا دون أن تظهر له سيرة ، وكذلك الحال مع طه حسين وكثيرين آخرين من صناع نهضتنا الفكرية الحديثة ، فضلا عن أبطال تاريخنا الحديث . فهل يرجع هذا النقص إلى فقر المادة الخام أو قلة اهتمام المحدثين بالوثائق ؟

ربما يكون من المفيد ، قبل الإجابة عن هذا السؤال ، أن نعود إلى الوضع الأوربي والأمريكي المعاصر في السيرة . فمع أن قراء هذا اللون من الأدب متوافرون ، والمطابع لا تكف عن إخراج السير ، في أوربا وامريكا ، إلا أنه من الملاحظ أن كبار مؤلفي السيرة المعاصرين يشكون من بعض الظواهر المعوقة لعملهم . وقد صدر حول هذا الموضوع كتاب مهم عن « دار ماكميلان » في لندن قبل سنتين ، بعنوان « حرفة السيرة الأدبية » وفيه جمع محرره « جيفري مايرز » ١٣ فصلا كتبها ثلاثة عشر مؤلف سيرة من بريطانيا وأمريكا ، من بينهم ثمانية أساتذة جامعيين ، واثنان محترفان متفرغان للسيرة ، هما « إليزابيث لونجفورد » ، و « نايجل هاميلتون » الإنجليزيان . ويدور الكتاب كله (٢٥٣ ص) حول المصاعب العملية التي تواجه كاتب السيرة ، وأهمها المال والمادة الخام والوقت .

وكان مما رواه محرر الكتاب أنه أنفق ٦٠٠٠ دولار على السيرة التي ألفها عن الروائي والناقد الفنان الإنجليزي « ويندام لويس » (١٨٨٢ ـ ١٩٥٧) حتى ظهورها عام ١٩٨٠ ، دون أن يعود عليه منها سوى حقوق النشر . وشكا « نايجل هاميلتون » من أنه اضطر إلى الانتظار خمس سنوات قبل الشروع في السيرة التي ألفها عن الأديبين الالمانيين « هاينريك مان » (١٨٧١ ـ ١٩٥٠) وأخيه « توماس » (١٨٧٥ ـ ١٩٥٥) ، لأنه لم يجد ناشرا امريكيا يساهم في نفقات إعداد السيرة ، ولم يكن النشر في انجلترا وحدها يؤمنه اقتصاديا .

تأتي بعد عقبة النفقات هذه ، التي يتكبدها

مؤلف السيرة ، عقبة المادة الخام والحصول على مفرداتها المتعددة ، لاسيما الاطلاع على الأوراق الخاصة لموضوع السيرة . ومؤلف السيرة السعيد هو من تشمله أسرة بطلها بالعطف والمساعدة فتمكنه من قراءة الأوراق الخاصة ، مثلما حدث مع السيدة « لونجفورد » التي مكنتها أسرة الشاعر والمؤرخ السياسي الانجليزي « ويلفرد بلنت » (١٨٤٠ - ١٩٢٢) من الاطلاع على كل متعلقاته عند إعدادها لسيرته التي ظهرت عام ١٩٧٩ . وفي بعض الأحيان تزيد المادة الخام عن حاجة السيرة ، مع أن معظم السير الحديثة تميل إلى الطول .

وأخيرا تأتي مشكلة الوقت ، فمؤلف السيرة يصرف عادة وقتا طويلا في مقارنة اليوميات والمذكرات ، وما يظهر فيها من وقائع ، بشهادة الشهود وغيرهم من المعاصرين لهذه الوقائع . وكان مما روته « ديردري بير » التي ألفت سيرة الأديب الايرلندي الأصل « صامويل بيكت » أنها لم تقبل التسليم بأي حقيقة - يختلف عليها - عن « بيكت » إلا بعد الرجوع إلى ثلاثة مصادر على الأقل . وذكر « رونالد هايمان » مؤلف سيرة الأديب الألماني « برتولت بريخت » (١٨٩٨ - ١٩٥٦) أنه اكتشف كذب بريخت في كثير مما رواه عن نفسه ، وأن كثيرين من شهود الوقائع الكاذبة أصروا على تجاهل كذبها ، مما سبب له ألما وضياعا للوقت . وأضاف « فيليب نايتلي » الذي كتب سيرة ضابط المخابرات البريطانية « ت . أ . لورنس » (١٨٨٨ - ١٩٣٥) أنه اكتشف أيضا كذب لورنس فيما ادعاه عن الاعتداء عليه جنسيا في بلدة درعا السورية .

ومع هذا كله يسلّم كتاب السير المشاركون في هذا الكتاب بأنه لاتوجد حقيقة نهائية أو مطلقة ، وسواء كتب مؤرخ السيرة ٣٠٠ صفحة أو ثلاثة آلاف فسيظل الشك في صحة الوقائع قائما ، ويظل هناك ما يمكن حذفه والتخلص منه ، لعدم أهميته .

هذه العقبات أو المشكلات الثلاث هي أهم ما يواجه مؤلف السيرة الأدبية المعاصر في أوربا وأمريكا في تناوله لأشخاص محدثين أو معاصرين . وأعتقد أنها - أيضا - أهم ما يواجه مؤلف السيرة عندنا اليوم ، مع الفرق في الدرجة ، بالطبع . فالحصول على المعلومات - مثلا - في بلادنا اليوم أشق وأصعب . وصرف الوقت في تجميع المادة الخام وإجراء الجانب البحثي من السيرة أصبحا يشكلان عندنا تضحية جسيمة ، لايقدر عليها إلا من أوتي المال الوفير ، والصحة الجيدة ، والارادة القوية !

وإذا كانت هذه العقبات مثبطة للعزائم ، فأولى بنا أن نيسّر السبل على الراغبين في العمل بهذا الميدان ذي التضحيات . ولعل أولى سبل التيسير هي أن نشجع تأليف السير عن طريق المسابقات الدورية ، والمنح . وبغير هذا التشجيع الذي يجب أن يتكافأ مع الجهد والتضحية ، سوف تظل السيرة جنسا أدبيا مهملا ، وربما صارت ديناصورا آخر في حكم الانقراض . □



منتدى العربي

قضية

المعجم النفسي والنص الأدبي

بقلم : الدكتور كمال نشأت

« يختار الكاتب أسلوبه ومفرداته ، وعالمه الذي يقدمه لنا ، وهذا الاختيار في حد ذاته له دلالة نفسية عن أعماق الكاتب التي يحاول أن يخفيها عنا . وهذه محاولة لصياغة مصطلح جديد ، لكي نقرأ ونحلل أدوات الكاتب نفسياً ، لنتعرف على ذاته الخاصة جداً . »

يشكل الشاعر أو الكاتب من خلال اختيار ألفاظ معينة من لغته القومية ما يسمى أسلوب تعبير ، يخضع أول ما يخضع لخصوصية شخصية في طريقة تركيب الجملة ، وهو دون أن يدري يختار أيضا ألفاظا معينة ، يكثر دورانها في أسلوب تعبيره ، وهي ألفاظ قريبة الصلة بنفسه ، وقد سمى العلماء والنقاد هذه الألفاظ المتكررة في شعر الشاعر (المعجم الشعري) ، ويعتبر هذا (المعجم الشعرى) أضواء كاشفة مسلطة على نفسية الأديب الشاعر . ولقد قمت أنا في دراستي لشعر « أحمد زكي أبو شادي » في كتابي (أبو شادى وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث) بعملية مراجعة إحصائية ، اكتشفت فيها أن من الألفاظ الأكثر دورانا في شعره كانت ألفاظ « اليتم وما يشتق منه ، والحرق وما يشتق منه ، والعذاب وما يشتق منه » . ويوضح الأصول النفسية التي على أساسها تم اختيار هذه الألفاظ لاشعوريا والتي تشكل بعض معجمه الشعرى علمنا أنه نشأ يتيما بعد موت أمه ، وقد سأله أحد الصحفيين عن السر في الحزن الذى يغلف شعره فكانت إجابته : « ربما يرجع ذلك إلى الفرقة بين الوالدين وما تركته في نفسي من أثر » .

إن (المعجم الشعرى) وثيقة نفسية تستبطن دخيلة الشاعر ، وهو قرين « الفلتة اللسانية » التي يتلفظ بها الإنسان دون إرادة منه ، فتكشف عن أشياء كامنة في نفسه ، وإن حاول إخفاءها . وطبيعي أن يعتمد عليها الأطباء النفسيون في معالجة مرضاهم .

ولما كان تعامل الشاعر أو الكاتب مع اللغة تعاملا شخصيا قال القائل : (الأسلوب هو الرجل) ، ذلك أن اللغة في القاموس ألفاظ ميتة ، قابعة في وجودها الفردي المنعزل ، وهي تكتسب حياتها حينما تكون لبنة في معمار لغوي هو الجملة التعبيرية التي يشكلها الشاعر أو الكاتب ، فتحمل بصمات نفسه ، وطبيعة مزاجه . لذلك كان من العسير نسبة الكتابة الأدبية عامة إلى آخرين . ولتحقيق الذات في الأسلوب ، وطبعه بطابع الشخصية التي تكتبه يجعلك - وأنت القارىء المتذوق لأساليب الكتابة - تفرق بين مقال كتبه طه حسين ومقال كتبه العقاد ومقال كتبه زكي مبارك . فطه حسين صاحب نفس هادئة ، وروح رضية ، ودراسته للغة الفرنسية قد طبعت أسلوبه باسترسال موسيقي ، يظهر في تقطيع الجملة فقرات منغمة . ولأصالة هذا الطابع التنغيمي لاتجد فرقا بين أسلوبه حين تقرؤه وأسلوبه حين تستمع إليه محاضرا . أما العقاد فهو صاحب مزاج حاد ، وقد كانت نشأته الأولى المكافحة ذات أثر في نفسه المتوترة التي كانت صاحبة كبرياء شديد . من هنا كانت عصبيته وكبرياؤه قرينة أسلوبه الذي يحمل طابع القوة . ولصحوة وعيه وعمق إدراكه كان هذا المنطق القوي الصارم الذي استعلن به أسلوبه .

أما زكي مبارك فهو فلاح « سنتريس » الأصيل ، أخذ من أصوله الريفية سماحة الطبع ، وبساطة الفطرة ، فكان هذا الأسلوب الواضح الذي يثير الأسئلة ويجيب عنها ، فيشي بعدم الثقة في تلك النفس التي ارتدت صور الغرور المبالغ فيه . وقراؤه يعرفون شطحاته الكثيرة التي يزعم فيها أنه أشعر الشعراء ، وأكتب الكتاب على سطح الأرض ، وربما خففت من وقع هذا الغرور على قرائه روحه المصرية التي عرفت بخفة ظل فتحت له قلوب الناس .

وإلى جانب هذا (المعجم الشعري) الذي أشرنا إليه ، الدال على نفسية الشاعر ، وإلى جانب أسلوب الشاعر أو الأديب الخاص به الذي على أساسه نستطيع معرفة كتاباته ، ولو لم يكن اسمه مقرونا بها ، هناك ما أستطيع تسميته (المعجم النفسي) للشاعر والأديب الكاتب ، وهو مصطلح سبق أن أشرت إليه في مقال من مقالاتي ، وإنني أدعو الشعراء والكتاب والنقاد لمناقشته ، حتى يأخذ مكانه في الدراسات الأدبية إن اتفقت عليه الآراء .

فموقف قاصّ أو روائي من المرأة نتيجة لتجربة خاصة مؤلمة مرت به ، بحيث لاترى المرأة في أدبه القصصي أو الروائي إلا خائنة أو مرائية أو عديمة الأخلاق ، يشكل ظاهرة تندرج تحت المصطلح المقترح ، كذلك ظاهرة اللون الأبيض في كتاب (الأسطورة والرمز) لجبرا ابراهيم جبرا التي تحكى عن الشاعر « دوبينيه » من أنه مرض وهو صبي صغير بحمى شديدة ، فتخيل امرأة مسربلة في بياض ، تقبله قبلة باردة ، فركبه رعب شديد ، فمن هنا ارتبط اللون الأبيض لديه بالرعب والخوف ، بينما البياض عند كل الناس الذين لم يمروا بمثل تجربته لايبعث في نفوسهم إلا الراحة والهدوء . وهكذا شكلت هذه التجربة ظاهرة تدخل في معجمه النفسي ، وكذلك ظاهرة (التصغير) للتحقير المعروفة في شعر المتنبي ، ما سببها ؟ ولماذا تكثر في شعره دون شعر الشعراء جميعا ؟

إنها في حالة الإجابة عن هذه الأسئلة تدخل في (المعجم النفسي) للمتنبي ، ويكون شأنها في الدراسة الأدبية شأن (المعجم الشعري) تماما . ويطول بنا الكلام إن رحنا نتتبع بعض الظواهر التي تدخل في (المعجم النفسي) للشاعر أو الأديب ، لكننا هنا سنذكر عددا قليلا منها للتدليل على أن هذه الظواهر النفسية أصلاً يجب أن يوضع لها مصطلح ، يكون عنوانا لها كبقية المصطلحات الأدبية . من هذه الظواهر

مثلا ظاهرة الألوان وكثرة ذكرها في شعر لوركا ، وصور الضوء الكثيرة في شعر شاعر الطبيعة ورد ورث ، وتصوير الالمان تصويرا يحط من شأنهم ، ويدل على كراهية شديدة في قصص « كاترين آن بورتر » . ولعلي استطعت في حدود قدرتي المتواضعة أن أعلل ظاهرة « المطر » في شعر السياب ، والتحلم الجمال واللذة والموت في شعر يوسف الصائغ في بعض دراساتي .

« إن للمعجم الشعري » و « للمعجم النفسي » والأسلوب الشخصي الدال على كاتبه ، كل ذلك يرجع إلى « الذاتية » التي تؤكد الملامح الخاصة للشاعر أو الأديب ، والتي بدونها تفتقد الأصالة ، ويصبح النص الأدبي مشاعا مثل قولة (السلام عليكم) التي يقولها كل الناس .

فالذاتية وظهورها في العمل الأدبي - كما نعرف جميعا - هي الطابع الذي لا يقوم أدب أو فن إلا به ، من هنا سقط أدب التقليد وأدب « الموضة » المتابع للتيارات السائدة ، ومن هنا كان الفارق بين ذاتية الأدب والفن وموضوعية العلم ، وعلى أساس من هذه الذاتية الشاملة التي تتضح في (المعجم الشعرى) و (المعجم النفسي) الذى نقترحه ، وفي الأسلوب الشخصي المتميز ، يمكن كشف النصوص الأدبية المنحولة .

منتدى العربي

تعقيب

الموشحات والقدود

حلبية أم حمصية ؟

بقلم : الدكتور سعد الله آغا القلعة *

قرأت في العدد رقم ٣٦١ ديسمبر (كانون الأول ٨٨) مقالا بقلم الزميل الكريم الدكتور عمر موسى باشا ، حول أصل الموشحات والقدود . . هل هي حلبية أم حمصية . ؟ وقد أرجع الزميل الكريم أصولها بنتيجة مقاله إلى الشيخ أمين الجندي الحمصي بعد أن اكتشف لدى قراءته لديوانه أن أغلب أشعاره تغنى ضمن القدود المعروفة بالحلبية ، وقد رأيت أن أعقب على هذا المقال توضيحا لبعض الأفكار التي يمكن أن تكون قد ذهبت إلى أبعد من حدود الاستنتاج المنطقي .

* استاذ بكلية الهندسة بجامعة دمشق ، وأحد خبراء الموسيقا العربية الدارسين .

الموشحات :

وردت كلمة « موشحات » مرة في عنوان المقال ، ومرتين فيه بشكل عرضي حيث اضيفت ، أو عطفت على القدود ، وكأنما القدود والموشحات شيء واحد ، أو شيئان متماثلان ، أو كأنما القدود هي شكل من أشكال الموشحات المتطورة ، ونلاحظ أن الدراسة انحصرت في الجانب الشعري دون النظر في الجانب اللحني . طبعا كلنا يعلم أن الموشحات ولدت كفن شعري في الأندلس بتحريض من الموسيقا الآتية من الشرق ، ولكن المهم هنا أنها انتقلت مع خروج العرب من الأندلس عبر اتجاهين : جنوبا إلى المغرب العربي ، وشرقا إلى الأقطار العربية في المشرق حيث كانت حلب هي المحطة الأولى . وفي حلب حافظ المطربون ، والملحنون عبر توالي الأجيال على ذلك التراث العربي ، ولكنهم إلى جانب ذلك أتوا بجديد فيه ، حيث لحنوا موشحات جديدة على نمط الموشحات القديمة ، والعلاقة بين ايقاع الشعر والايقاع الموسيقي فيها . كما وضعت في الكتب القديمة وخاصة « دار الطراز » لابن سناء الملك . وإن كانوا في أغلب الأحيان قد استعملوا الشعر العمودي أساسا للألحان . هذه الموشحات الحديثة دعيت بالحلبية ، لأنها لحنت في حلب ، وهي ليست كالقدود من الناحية اللحنية ، بل هي أعقد بكثير .

القدود :

إلى جانب الموشحات الحلبية ، كانت هناك القدود الحلبية . وهي ألحان قديمة جدا تداولتها حناجر الشداة حتى وصلت إلينا ، وقد نقلها إلى مصر مع الموشحات الأندلسية القديمة ، والحلبية الحديثة فنان اسمه « شاكر الحلبي » في المائة الأولى بعد الألف من الهجرة (كما جاء في كتاب الموسيقي الشرقي لكامل الخلعي) ، حيث حفظها عنه فنانو مصر ، وساروا في ألحانهم على منوالها .

هذه القدود كانت في أغلب الأحيان عامية الكلمات حلبية اللهجة ، (ولا زال أغلبها كذلك) وكانت الكلمات تتغير حسب الحالة . فأحيانا كانت دينية ، (وهنا من الممكن أن تصبح الكلمات بالفصحى) وأحيانا (دنيوية) على نفس اللحن ، وقد يوضع لها كلمات دنيوية أكثر جمالا وشاعرية وبالفصحى ، وهذه الحالة حديثة العهد . ولكن الكلام كان ينظم دوما على « قدّ » اللحن . ومن هنا جاءت التسمية بالقدود أي أن الكلمات كانت تكتب على نفس الوزن الشعري والقافية للكلمات القديمة ، أما لحنها فقد كان دائما بسيطا ، وبايقاع بسيط على عكس الموشحات ذات الجمل اللحنية المعقدة ، والإيقاعات المركبة .

وقد كان هذا هو دور الشيخ الجندي الأساسي أي نظم شعر فصيح على«قدّ»الكلمات العامية القديمة . وما دليلي على ذلك إلا ما جاء في مقال الزميل الكريم . حيث أورد بعض الأمثلة من ديوان الشيخ « أمين الجندي » ، ومعها عروض الكلمات الأصلية مثل : هيمتني تيمتني على عروض جوجحتني مرجحتني مع ذكر النغمة الموسيقية التي وضع عليها اللحن الأصلي .

وبعد

فلم تكن الغاية من هذا التعقيب التأكيد على حلبية القدود الحلبية ، وقد قلت : إنها قديمة لدرجة يصعب تحديد أصلها . ولكن كان لا بد من التمييز بين الموشحات والقدود لحنا ونظما ، وتبيان دور الشيخ أمين الجندي المهم في نظم الشعر الفصيح المقفى على « قدّ » عروض الكلام الأصلي العامي للقدود بحيث أصبحت أكثر ملاءمة للذوق الفني دون أن تكون الألحان التي وضعها ونظمها شعرا ـ إن وجدت ـ من الألحان التي يمكن أن ندرجها تحت عنوان « قدود » . □

لأن المسرح بمفهومه الاصطلاحي الدقيق وافد حضاري جديد، تعرفت عليه مصر - كما تعرفت على الصحافة - في بداية نهضتها الحديثة ، فقد كان المألوف أن يكتب الصحفيون للمسرح ، ولكن هناك نماذج رائدة دخلت الصحافة بعد شهرتها في عالم المسرح ، فأبدعت في المجالين ، مثل يعقوب صنوع ، وعبد الله النديم ، وفاطمة (روز) اليوسف ، وغيرهم ممن نقرأ عنهم في هذا المقال .

بين المسرح والصّحافة في مصر

بقلم : الدكتور أحمد حسين الصاوي

شهدت مصر مقدمات المسرح والصحافة ، إبان عهد الحملة الفرنسية فلقد أصدرت سلطات الحملة صحيفتين فرنسيتين ، كما أصدرت مئات المنشورات العربية والفرنسية . وفي الوقت نفسه أقام الفرنسيون مسرحا لمجتمعهم ، عرضوا عليه عددا من الروايات . ولم يفت مؤرخنا المعاصر للحملة عبد الرحمن الجبرتي أن يسجل هذا الحدث ، فكتب في « عجائب الآثار . . » يقول : « . . وفيه كمل المكان الذي أنشأوه بالأزبكية . . . وهو المسمى في لغتهم « بالكمدي » ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة واحدة ، يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم ، بقصد التسلي والملاهي ، مقدار أربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ، ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة » .

وسجل هذا الحدث كذلك المؤرخ لاجونكير في كتابه عن الحملة الفرنسية . وزاد الأمر تفصيلا عندما قال : إن بونابرت كان وراء تشجيع إقامة هذا المسرح ، وأن لجنة الفنون بالمجمع العلمي المصري الذي أنشأته الحملة كانت تتولى تنظيم النشاط المسرحي مع غيره من الأنشطة الفنية الأخرى ، وبينما كانت حكومة محمد علي تستعد لإصدار صحيفة « الوقائع المصرية » ، أولى الصحف العربية ، كانت الجالية الفرنسية في مصر تستعد كذلك لإنشاء مسرح للتمثيل . وهكذا واكبت الحياة المسرحية الحياة الصحفية منذ نشأتها ، وإن ظل المسرح محصورا في نطاق الجاليات الأوربية بالقاهرة والاسكندرية إبان عهد محمد علي وسعيد . ثم بدأ علية القوم من المصريين يهتمون بهذا الوافد الأوربي أيام الخديوي اسماعيل . ومرة أخرى نلاحظ تزامن

النهضة المسرحية والنهضة الصحفية أيام هذا الحاكم الطموح ، ففي الوقت الذي كانت صحافة الحكومة فيه تتجاوز حاجز الرسمية ، وتقترب من الجماهير وتتفاعل مع مشكلاتهم ، وتقدم لهم زادا متنوعا شهيا ، وبينما كان الحقل الصحفي يشهد مولد الصحافة الأهلية ، كانت الحكومة تبني دار الأوبرا الخديوية التي افتتحت في أواخر عام ١٨٦٩ م . وما لبثت مصر أن شهدت كذلك أول محاولة عملية لإنشاء مسرح عربي ، وكان على يد يعقوب صنوع عام ١٨٧١ م .

أسماء وأدوار

وكما اتسعت رحاب مصر تستضيف في كرم أبناء الشام الذين وفدوا إليها ، وساهموا مع إخوانهم المصريين في إقامة صرح الصحافة الأهلية ، فقد اتسعت كذلك ـ وفي الوقت نفسه ـ لاستضافة المسرحيين الشاميين الذين كانت لهم جهودهم في نمو المسرح العربي.

واطرد تقدم الحركة المسرحية ، كما اطرد تقدم الحياة الصحفية ، وتفاعلت كل منهما ، وما اضطربت به مصر من أحداث ، وما مرت به من محن ، وما حققته من انتصارات . ونما المسرح كما نمت الصحافة ، وتعددت مدارسهما ، وأصبحا من المكونات الأساسية لبنية المجتمع المصري .

وإذا طرحنا جانبا تلك العلاقة التقليدية المعروفة التي تقوم دائما بين الصحافة والمسرح ، من حيث إن الصحافة تتابع النشاط المسرحي ، فتعلم به قراءها ، ويتخصص من كتابها من يتناولون هذا النشاط بالنقد والتحليل ، على أساس أن ذلك من صميم العمل الصحفي ، فنستطيع القول بأن الصلة بين المسرح والصحافة في مصر اتخذت أبعادا أخرى أكثر عمقا ، وذات طابع خاص متميز .

ومن ذلك أن عددا من الصحفيين المرموقين اتجهوا إلى تزويد المسرح المصري ، عبر مسيرته الطويلة ، بمجموعة كبيرة من الروايات المنقولة والمبتدعة . وقد تراوح النقل بين الترجمة (عن الفرنسية أو الانكليزية) والتعريب والتمصير . نماذج هؤلاء :ـ

ـ نجيب الحداد : صاحب صحيفة « لسان العرب » ، ومحررها الذي أصدرها بالاسكندرية في أواخر القرن الماضي . لقد ترجم هذا الصحفي للمسرح روايتي « السيد » و « حلم الملوك » عن كورني ، كما عرب رواية « طبيب رغم أنفه » لموليير .

ـ محمد عثمان جلال : من أبرز تلاميذ رفاعة الطهطاوي ، من خريجي مدرسة الألسن . حرر « الجريدة العسكرية المصرية » مع زميله عبد الله أبي السعود ، وأصدر صحيفة « نزهة الأفكار » ، كما حرر في مجلة « روضة المدارس » . لقد قدم هذا الكاتب المبدع للمسرح المصري مجموعة رائعة من المسرحيات التي نقلها عن راسين وموليير ، ولعل أبرزها الكوميديات التي عربها زجلا عن موليير ، مثل « الشيخ متلوف » ، و « مدرسة الأزواج » ، و « مدرسة النساء » .

ـ أنطون الجميل : ناشر صحيفة « الزهور » ، ورئيس تحرير « الأهرام » بعد ذلك . كتب للمسرح عدة روايات ، كان أهمها « السموأل أو وفاء العرب » التي اقتبسها من التراث العربي القديم ، و « أبطال الحرية » التي كانت رد فعل لإعلان الدستور العثماني .

غير أن ما ينفرد به تاريخ الصحافة المصرية حقا ، في قصة علاقتها بالمسرح ، يتمثل في ظاهرة لا نجد لها نظيرا في غير مصر ، وهي أن بعض أعلام الصحافة المعروفين كانت لهم تجارب مسرحية ناجحة ، قبل اشتغالهم بالعمل الصحفي ، أي أنهم خاطبوا الجمهور من فوق خشبة المسرح ، قبل أن يمارسوا الاتصال به من خلال صفحات الصحف . وكان أبرز هؤلاء يعقوب صنوع وعبد الله النديم وروز (فاطمة) اليوسف . والحق أن كلا منهم جدير بحديث خاص .

تجربة يعقوب صنوع

هو يعقوب بن رافائيل صنوع، اليهودي المصري الذي عرفه تاريخ الصحافة المصرية علما بارزا من أعلامها. ولد بالقاهرة عام ١٨٣٩ م، وفي صباه أتيح له أن يتعلم في إيطاليا على نفقة أحد الأمراء المصريين، فأتقن عدة لغات. ولما عاد إلى مصر أخذ يقوم بتدريس الموسيقا والرسم وما يعرفه من اللغات الأجنبية لبعض أعضاء الأسرة الخديوية، وغيرها من الأسر الكبيرة، كما كان يلقي هناك بعض المقاطع التمثيلية بالإيطالية والفرنسية بين حين وآخر.

وكان نجاحه في هذه التجربة المحدودة النطاق حافزا له على أن يفكر في عام ١٨٦٩ م، وهو في الثلاثين من عمره، في تأسيس مسرح عربي.

تمكن صنوع من انشاء أول فرقة مسرحية للتمثيل باللغة العربية في مصر من الشباب، وعرض أولى مسرحياته التي ألفها وأخرجها واضطلع بتمثيل أهم أدوارها، على مسرح مكشوف بحديقة الأزبكية عام ١٨٧٠ م.

واصل صنوع تقديم عروضه، واستطاع أن يجتذب إلى مسرحه كبار المصريين، وعلى رأسهم الخديوي اسماعيل نفسه، وأن يحظى بإعجابهم الشديد، حتى أن الخديوي أطلق عليه لقب «موليير مصر»، وأغدق عليه من عونه المادي ما مكنه من تطوير مسرحه والارتقاء بعروضه.

واستمر مسرح صنوع مزدهرا متألقا طوال عامين من الزمان. ولكن يبدو أن طبيعته الساخرة الناقدتغلبت عليه في بعض ما قدم من تمثيليات، فأكثر من الإسقاطات السياسية التي تعبر عن موقفه تجاه تزايد النفوذ الأجنبي ومفاسد الجهاز الحاكم. وحدثت النتيجة المتوقعة، فقد ضاقت السلطات بمسرح صنوع، فأغلقته لخطورته على جهاز الحكم.

وعاش صنوع خمس سنوات عجاف، حاول خلالها أن يجد متنفسا للتعبير عن أفكاره وآرائه بالخطابة وللمحاضرة، فيها أنشأ من منتديات أحيانا، وبالكتابة في بعض الصحف أحيانا أخرى. ولكن السلطات كانت له دائما بالمرصاد، تغلق منتدياته، وتمنعه من الكتابة في الصحف. ثم أتيح ليعقوب من سعى له من أصدقائه لدى السلطات، لكي ترفع عنه اضطهادها، وتمنحه فرصة العيش الكريم. وفي الوقت نفسه كان المناضل المشهور جمال الدين الأفغاني، يبث أفكاره النارية في تلاميذه ومريديه من الشباب، على مختلف نزعاتهم وانتماءاتهم، ويرشدهم ويوجههم إلى شتى أساليب الكفاح ضد الظلم والاستبداد والتسلط الأجنبي. وكان صنوع من تلاميذ الأفغاني المقربين إليه، وقد وجهه ونفرا من زملائه، لما أنس منهم من استعداد، إلى الصحافة كوسيلة من أهم وسائل الكفاح.

وهكذا - وبعد عدة تجارب لم تعش طويلا - أصدر يعقوب صنوع في عام ١٨٧٧ م صحيفة «أبو نظارة»، التي كانت أول صحيفة فكاهية في مصر، وأول صحيفة تنشر الرسوم الساخرة (الكاريكاتير)، وأول صحيفة تستعمل اللغة الدارجة في تحريرها، وأول صحيفة حادة النقد لاذعة اللهجة.

كانت هذه الصحيفة هي المنبر الذي اصطنعه صنوع ليبث من فوقه آراءه، وينيع أفكاره، ويعبر عن مواقفه. لقد استبدل بخشبة المسرح صفحات الصحيفة، واستبدل بلسانه قلمه وريشته، واستبدل بالتجسيد الحي للشخوص تجسيدا مكتوبا ومرسوما، واستبدل بالحوار الناطق المسموع حوارا صامتا مقروءا.

واستطاع الممثل المطبوع في إهاب الصحفي الساخر أن يعبر بصدق في «أبو نظارة» عن واقع المصريين، وأن يسجل آلامهم وآمالهم، وساعده ما استحدثه من أسلوب للعرض بالكلمة والرسم على أن يفوق نجاحه في الصحيفة نجاحه في المسرح، فارتفع توزيعها ارتفاعا كبيرا

بمقاييس ذلك العصر ، وأدت بحق رسالتها ، فكانت وسيلة جماهيرية مقبولة بما تقدمه من مادة ساخرة ضاحكة . وكانت الصحيفة في الوقت نفسه أداة نضالية بما تكشف عنه من حقائق سياسية مرة ، وما تعرضه من مساويء الحكم

ولم يكن غريبا أيضا هذه المرة أن تفطن السلطات لخطر الصحيفة ، فتغلقها بعد أن صدر منها خمسة عشر عددا حافلة . وخرج « أبو نظارة » نفسه منفيا من البلاد في منتصف عام ١٨٧٨ م ، حيث استقر به المقام في باريس . وهناك واصل إصدار صحيفته متخذا لها عدة أسماء ، فهي تارة « أبو نظارة » ، وتارة أخرى « أبو زمارة » ، أو « أبو صفارة » ، أوغيرها . وكانت كلها امتدادا لصحيفته القاهرية بكل ما اتسمت به من مظاهر التأثر بتجربة صاحبها المسرحية ، وما ألفه من طرائق التعبير .

عبد الله النديم

هو الصحفي المناضل ، والوطني الثائر عبدالله مصباح ابراهيم . ولد بالاسكندرية لأسرة متواضعة ، ولكنها ذات نسب شريف ، وتعلم بالطريقة التقليدية السائدة في ذلك الوقت ، محفظ القرآن الكريم ، والتحق بمسجد ابراهيم باشا لتلقي العلوم الدينية ، تمهيدا للالتحاق



● عبد الله النديم

بالأزهر . ولكنه لم يتم مسيرته التعليمية ، إذ غلب عليه حب الأدب ، وظهر استعداده لقرض الشعر والزجل ، وكان موهوبا في قوة الحفظ وبراعة الإلقاء .

وأمضى عبد الله عدة سنوات يطوف بين القاهرة وبعض بلدان الوجه البحري ، وينادم السراة (ومن هنا جاءت تسميته النديم) ، ويعاشر الدهماء ، وتقلبت به الأيام بين « الستر » والإملاق . وهو في أثناء ذلك يكتسب الكثير من المعرفة والخبرة ، وتلتصق بذاكرته الواعية ملامح مختلف الشخصيات ، وتنمو في كل يوم قدراته الفذة على قول الشعر وارتجاله وإلقائه

ثم التقى النديم بالداعية العظيم جمال الدين الأفغاني ، وحضر حلقاته وندواته مع غيره من خيرة شباب تلك الأيام المتطلعين الواعدين . وما لبث أن صار من أخلص مريدي الأفغاني وأقربهم إليه . ونجح المفكر الكبير في أن يوجه النديم إلى توظيف طاقاته الخلاقة وملكاته الفريدة في خدمة مجتمعه ، وإلى استثمار مواهبه المتعددة ، لتكون سلاحا للكفاح في سبيل تحقيق الأماني الوطنية .

عمل النديم بالثغر في الصحافة مع تلميذين آخرين من تلاميذ الأفغاني ، هما سليم النقاش وأديب اسحق ، في صحيفتي « مصر » و « التجارة » ، ثم في صحيفتي « المحروسة » و « العهد الجديد » . وفي خلال ذلك أسس الجمعية الخيرية الإسلامية ، التي جعل من أغراضها إنشاء مدرسة لتعليم أبناء الفقراء مجانا ، وبث الروح القومي في البلاد .

وسرعان ما أنشئت المدرسة ، وتولى النديم إدارتها وتدريس الآداب والخطابة لتلاميذها . كما كوّن من بينهم فريقا للتمثيل ، قام بتدريب أعضائه ، وتأليف المسرحيات وإخراجها لهم ، وبالاشتراك معهم في التمثيل .

واضطرت بعض الظروف غير المواتية النديم إلى ترك الجمعية والمدرسة ، ثم استقل بعمله الصحفي ، فأنشأ عام ١٨٨١ م صحيفة

« التنكيت والتبكيت » التي كانت نموذجا فريدا لمسرحة الكتابة الصحفية ، يشبه ما فعله صنوع من قبل في صحيفته « أبو نظارة » .

حرر النديم صحيفته بالفصحى والعامية معا ، متخذا من كل منها أداة يخاطب فريقا من القراء . وكانت معظم موضوعاته أقرب إلى الفصول المسرحية منها إلى المقالات . فكل منها يتناول حكاية أو صورة متخيلة ، شخوصها نماذج لأنماط معروفة في المجتمع ، ويعرضها الكاتب عن طريق الحوار والسرد القصصي . وقد فاق النديم سلفه « صنوع » في دقة استخدامه للعامية ، وبراعة التلاعب بألفاظها ، وفي حدة سخريته ، كما فاقه في رسم صور الشخصيات وإنطاقها بما يناسبها من لهجة وألفاظ .

تصاعد المد الثوري في مصر ، واستقطبت الحركة الوطنية بقيادة عرابي خيرة العناصر المناضلة . وسرعان ما انضم إليهم النديم بصحيفته التي بدل اسمها في أواخر عام ١٨٨١ إلى « الطائف » ، وجعلها لسانا للثوار ولمجلس شورى النواب ، ونقل مركزها إلى القاهرة .

واختلفت صورة « الطائف » تماما عن صورة سابقتها ، فاختفت منها اللغة العامية ، واقتصرت لغة تحريرها على العربية الفصحى ، واختفت منها الموضوعات « التشخيصية » التي تعتمد على الحوار والحكاية والخيال . وعندما نشب القتال بين الجيش المصري والقوات البريطانية الزاحفة لاحتلال مصر ، أدت هذه الصحيفة مهمتها في تغطية أنباء المعارك ، وفي محاولة رفع الروح المعنوية للجنود .

انتهت الثورة ـ كما نعلم ـ بالإخفاق . وحوكم زعماؤها ، فمنهم من نفي ومنهم من سجن . أما النديم فاختفى عن الأنظار ليبدأ مرحلة جديدة من النفي الاختياري داخل الريف المصري ، استمرت أكثر من تسع سنوات ، انتقل فيها من بلد إلى بلد ، شريدا ومطاردا خائفا يترقب .

صحيفة الأستاذ

ثم شاء حظه أن يكتشف أمره ويقبض عليه وينفى من مصر . ثم عفا عنه الخديوي الشاب عباس حلمي . فعاد إلى وطنه ليبحث من جديد عن منبر يمارس منه ما كان يجيده من فنون « التعبير » الهادف . واستطاع النديم أن يحصل على ترخيص بإصدار صحيفة باسم شقيقه ، أطلق عليها اسم « الأستاذ » . وظهر أول أعداد هذه الصحيفة التي كانت آخر منابر النديم ، في أغسطس عام ١٨٩٢ م .

التزم النديم منذ البداية أن يحرر الصحيفة على غرار « التنكيت والتبكيت » بالعربية والعامية ، ولكنه حرص ـ نتيجة لتغير الظروف ـ على أن يمس المسائل العامة برفق ، فأخذ يعالج عدة موضوعات « إصلاحية » ، كالتعليم والتصنيع والوحدة الوطنية ، ويوغل في هذه الموضوعات بخفة ولباقة تجنبانه المزالق والعثرات .

وكان النديم في الوقت نفسه قد تخلى عن بعض حذره ، وجاوز التلميح إلى شيء من التصريح ، فبدأت صحيفته تقلق السلطات . وما لبثت نغمة النقد والمعارضة أن ارتفعت ، واحتدت لهجة النديم ، فأصبحت مساجلاته مع خصومه هجوما سافرا عنيفا . وكان لا مفر من المصير المحتوم ، فأسقطت الصحيفة بعد اثنين وأربعين عددا صدرت في عشرة أشهر ، وبعد أن أثرت أبلغ تأثير في الحياة المصرية . ونفي النديم مرة أخرى فلحق بأستاذه الأفغاني في الآستانة ، حيث قضيا سنوات عمرهما الأخيرة .

روز اليوسف الفنانة

روز اليوسف هو الاسم الذي اشتهرت به السيدة فاطمة اليوسف ، الصحفية المعروفة ، عندما كانت ممثلة مرموقة ، تعمل مع أكبر الفرق المصرية ، وتؤدي أدوار البطولة في أفضل ما قدمت تلك الفرق من مسرحيات . والحق أن هذه السيدة تقدم نموذجا فذا للجمع بين العمل

المســرحي والعمـل الصحفي في سيـرة حيـاة واحدة .

ولدت فاطمة محمد محي الـدين اليوسف في طرابلس ، بلبنان ، في أواخر القرن الماضي ، ومرت بظروف بالغة القســوة في طفولتهـا . ثم وفدت على مصر في أوائل هذا القرن ، فيمن وفد من أبناء سوريا ولبنان ، يلتمسون الأمن وخفض العيش وراحة البال .

وتعلقت الصبية الرقيقة الجميلة بالتمثيـل ، بعد أن بهرها ما كانت تداوم على مشاهدته من عروض لأكبر الفرق المسرحية في ذلك الوقت ، مثل فرقة اسكندر فرح ، وفرقة أولاد عكاشة ، كما تعهدها الفنان الشهير عزيز عيد برعايته تثقيفا وتدريبا وتوجيها ، حتى أصبحت من أبرز ممثلات فـرقته . ثم عملت مـع فرقـة جـورج أبيض ، وبعدها فـرقة يـوسف وهبي . وأصبحت تحتل مكان الصدارة بين ممثلات المسرح المصري . وقد أجمع نقاد زمانها ومعاصروها ، ممن شاهدوها أو زاملوها ، على أنه منذ عرف المسرح في مصر لم تخط فوق خشبته ممثلة أجادت وأمتعت كما اجادت وأمتعت روز اليوسف .

وفي عام ١٩٢٥ اعتزلت روز اليوسف التمثيل المسرحي ، وهي في أوج مجدها وذروة اكتمالهـا ونضجها ، وبدأت تعد لمشروع جديد جريء . لقـد أرادت الممثلة الكبيرة أن تستبـدل بخشبـة المســرح منبرا آخـر ، تخاطب منـه الجماهـير ، واختـارت أن يكون هـذا المنبـر صفحـات مجلة جديدة ، صدر العدد الأول منها في أواخر العام نفسـه .

روز اليوسف المجلة

وكان هدفهـا من إصدار هـذه المجلة ، التي جعلتهـا تحمل اسمهـا الذي اشتهرت به ، أن . . . مجلة فنية ذات مستوى رفيع ، تعنى بشئون المسرح والتمثيل في المقام الأول ، وتعمل على نشـر الـوعي الفني ، وتحمـل رسـالـة النقـد الموضوعي الهادف ، كما تهتم بتأكيد قيمـة الفن



● روز (فاطمة) اليوسف .

المسرحي ، ومـا ينبغي لأبـطالـه من تقـديـر واحترام .

وقد استعانت روز اليوسف بعدد من صفوة شباب المثقفين في ذلك الوقت لكتابة مختلف الموضوعات الفنية والأدبية ، كما استعانت ببعض رسامي « الكاريكـاتـير » وكتّـاب الفكـاهـة ، لتخفف من طابع الموضوعـات الجادة في المجلة وتسبغ عليها شيئا من المرح .

ولم يكن الطريق معبدا أمام المجلة الجديدة ، فالقراء لم يألفوا هذا اللون من الصحف التي تركز اهتمامها على ما يتصل بفنون المسـرح والتمثيل والتصوير . هـذا إلى جانب « بدعة » أن تتـولى « سيـدة » إصـدار مثـل تلك المجلة ، ودهشـة النـاس أو استنكارهم لقيام ممثلة مرمـوقـة ، لم تعـرف سـوى خشبـة المســرح مجـالا لبـروزهـا وتفـوقهـا ، بخـوض تجـربـة إصـدار الصحف وتحريرها .

ولعـل روز اليوسف كـانت تحس بما سـوف تواجه به من مثل هـذه الاعتراضـات ، عندمـا نوهت في افتتاحية العدد الأول من المجلة بسمة « التعبـير » المشتركـة بين التمثيـل والكتـابـة ،

وأكدت أن الممثل الحق إذا كان مؤمنا بفنه وأثره في التهذيب، ثم وجد من وقته متسعا ليلهو، أو تولاه سأم من تنقله فوق المسرح، عمد إلى القلم يداعبه أو يبثه شجوه، ويستجديه طمأنينة وسلاماً».

ولم يكن من المنطقي أن تستمر مجلة مثل روز اليوسف في الظهور موجهة عنايتها في المقام الأول إلى الفنون وما يتصل بها، دون أن تعرض للمسائل العامة. فإن ظروف مصر في العشرينيات، وما كانت تضطرب به حياتها من صراعات بين مختلف القوى السياسية، وآمال وتطلعات شعبية، وأفعال وردود أفعال في شتى مجالات التطور والنمو، حتم أن تلتفت المجلة إلى معالجة تلك المسائل. وساعد على ذلك أن صاحبة المجلة نفسها كانت سيدة فائقة الحس، تؤرقها هموم بلدها وتشغلها آماله و آلامه.

ومن ثم بدأت المجلة تمس الأمور العامة مس رفيقا. وما لبثت أن أوغلت في تناول مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من منطلق ما كانت تجيش به نفس صاحبتها ونفوس معاونيها من الكتاب والمحررين من مشاعر وطنية صادقة وجارفة.

ومضت روزاليوسف تدافع عن منجزات ثورة ١٩١٩ م، وعن حقوق الشعب ومكتسباته الدستورية، وتحارب الظلم والرجعية والاستبداد. وتعرضت من أجل ذلك إلى الكثير من العنت والاضطهاد، فصودرت المجلة، وأغلقت عدة مرات، وسجنت صاحبتها كما سجن محرروها، ولكن ذلك لم يثن تلك السيدة المناضلة عن المضي قُدُماً في طريقها الحافل بالصعاب.

وجعلت روز اليوسف من مجلتها مسرحا تشخيصيا من طراز فريد، أرست به قواعد مدرسة ذات خصائص متميزة في حقل الصحافة المصرية بخاصة والعربية بعامة. فمنذ بدأت المجلة تتحول عن طابعها الفني البحت إلى الناحية السياسية أخذت تستعين بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) على تجسيد الأفكار والمواقف وتبسيطها. ولم تكن هذه الرسوم قد تطورت إلى المستوى التعبيري (الكارتون) الذي نألفه اليوم في الصحافة، والذي يحتاج ... فيه إلى أقل الكلام لنقل الفكرة أو الرأي الساخر إلى ذهن القارىء ووجدانه، وإنما اعتمدت تلك الرسوم دائما على ... الحوار ... المكتوب ... حتى تستكمل مقومات رسالتها. وقد ابتدع رسام روز اليوسف عدة شخوص ونماذج، ظلت من المعالم الثابتة للمجلة، ولما سار على نهجها من صحف ... حين ...

وأضافت روزاليوسف إلى ذلك الـ... الصحفي الساخر عنصرا فنيا جديدا، هو الزجل السلس الرشيق. بذلك تكونت من الرسوم وما يصحبها من حوارات بالنثر أو الزجل لوحات (تشخيصية) رائعة، أدت مهمتها في النقد السياسي والاجتماعي الساخر على أكمل وجه.

وواصلت الممثلة الصحفية مسيرها جهيرة الصوت، حادة النبرة، لاذعة النقد، تخوض بمجلتها الصعاب تلو الصعاب، لا تلين لها قناة، ولا تخشى في الحق لومة لائم، حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٥٨، بعد أن كان ولدها قد حمل أمانة المجلة، التي ما زالت تعيش وتؤدي رسالتها علما من أعلام الصحافة العربية. □

◉



● وللأوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق.

(أحمد شوقي)

الجديد في العلم والطب

اعداد : يوسف زعبلاوي



● يؤثر عن شكسبير شاعر الانكليز المعروف قوله : حيثما توجد الإرادة تنفتح الأبواب وتنشق الطرق . ونحن نستطيع أن نقول إضافة إلى ما قاله الشاعر : « وتنهزم الأمراض حتى اخطر منها » . هذا على الأقل ما تؤكده قصة ويات جريفث وزوجته هيري جريفث ، فقد تحابا وتزوجا سنة ١٩٨٦ ، وتطلعا بحماس شديد إلى ثمار الحب الطيبة ، البنين والبنات

وشاءت الأقدار أن يصاب العروسان بالشلل النصفي ، الشلل الذي يصيب النصف الأسفل من الجسم (Paruplegic)، فيفتك بحيوية ذلك النصف ، ويجعل الإنجاب فضلا عن الحركة ، ضربا من ضروب المستحيل . وعلم الزوجان بالمصيبة الكبرى ، وأدركا ما أكده لهما الأطباء ، من أن ثمار الحب الطيبة ، وغيرها لم تعد متاحة لهما .

ولكن العروسين مفطوران على العلم وحب البحث ، لا عجب إذن أن انكبا على دراسة آخر التطورات العلمية التي شهدها مجال الحمل والولادة في السنوات الاخيرة ، ثم بدآ في إجراء التجارب العملية .

وشملت أبحاثهما أساليب التلقيح (أو الإخصاب) الصناعي ، وهي الطريقة التي طورها العلماء ، ومضوا في تطبيقها على الماشية في الشهور الأخيرة . ومما يذكر أنها طريقة مؤلمة جدا ، حتى اضطر الزوج إلى إجراء تخدير شامل لكل جسمه من أجل تطبيقها ، واضطر أيضا إلى تطبيقها والقيام بعمليات التجميع والتخدير تلك ثماني مرات مختلفة ، حتى كانت المعجزة ، معجزة الطب في سنة ١٩٨٨ ، فقد رزق العروسان المشلولان طفلة حلوة ، وذلك في ١٩٨٨/٨/١٤ ، فقام بذلك دليل آخر على صدق ما قاله شكسبير .

■□□

● أثبتت الدراسات التي أجريت في افريقيا أن الختان (طهور الذكور) يكسب المختون مناعة ضد بعض الأمراض الخطيرة ، تبلغ (٨) أضعاف المناعة التي يتمتع به الذكور غير المختونين . وتشمل تلك الأمراض مرض السفلس والهربز ومرض الايدز أيضا .

وقد أجريت الدراسات المذكورة في نيروبي . وتناولت جماعة من الرجال الذين يترددون على بيوت الدعارة ، والذين أثبتت الفحوص أن ٨٥٪ منهم

مصابون بمرض الايدز الكامن ، والغريب أن إصابتهم هذه لم تكن ذاتها نتيجة انتقال الفيروس بالعدوى عن طريق الجماع ، وإنما كانت في بعض الأحيان نتيجة استعداد الذكور غير المختونين لالتقاط الفيروس الذي حملته إفرازات المومسات ، وذلك بحكم كونهم غير مختونين .

■□□



● ذهب علماء دانمركيون ، في بحث لهم ، نشرته مؤخرا مجلة لانست (المجلة الطبية البريطانية المعروفة) إلى أن قصر النظر (الحسر) قد يصيب المرء تبعا لحرصه في الطفولة على « استكشاف بيئته القريبة منه استكشافا بصريا » ، وأكدوا أن مثل قصر النظر في ذلك كمثل الذكاء ، فالطفل الذي اعتاد « التجوال البصري » في الصغر ، يحقق مستوى أعلى للذكاء في الكبر ، وقد أجرى البحث المذكور فريق من أساتذة جامعة كوبنهاجن ، يرأسهم البحاثة تيزديل (T. W. Teasdale) ، وذلك بالتعاون مع معهد أبحاث متخصص في آفة قصر النظر (Myopia) . أما الأشخاص الذين أجريت الدراسة عليهم فنفر من المجندين الذين تناهز أعمارهم ١٨ سنة .

■□□



● قد يتساءل المرء : ماذا جرى للمشاريع العلمية العملاقة ؟! فمنذ اكتمال مشروع المكوك الامريكي الذي كلف تطويره ما يقارب (١٠,٠٠٠) مليون دولار وأخبار المشاريع الضخمة لاتنقلها إلينا المجلات العلمية بالكثرة التي ألفناها فيما قبل ، ترى هل هذا صحيح ، أم أن المشاريع العملاقة كثيرة ، وأخبارها أيضا كثيرة ، مع الفارق بأن هذه الأخبار قد تكون مغمورة ، ولا يسهل العثور عليها في غمرة الطوفان ، طوفان التقدم العلمي الزاخر ، الذي تتكاثر أخباره يوما بعد يوم ؟!

نذكر من هذه المشاريع « مشروع الصادم الأمثل ذا الموصلات الفائقة » (Super Conducting Super Collider) وتحتاج معدات هذا الجهاز إلى نفق يؤويها ، وأن طول هذا النفق يبلغ نحو ٧٥ كيلومترا ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع أكثر من (٦٠٠,٠٠٠) مليون دولار ، وقد بلغت إحدى الدفعات التي رصدها الكونجرس الامريكي لأعمال البحث والتطوير الخاصة بهذا المشروع ٢٥ مليون دولار . ولن تستكمل الأعمال في هذا المشروع قبل عام ١٩٩٦ ، أما المهمة الموكولة إليه فباختصار شديد هي سبر حقيقة المادة ، وتفهم بنيتها ، وإلقاء الضوء على نشأة الكون الأولى .

ونذكر أيضا مشروع مفاعل الاندماج النووي الذي سيوفر الطاقة النووية النظيفة الرخيصة بكميات هائلة ، وذلك نتيجة الاندماج لا الانشطار في الذرة ، بل نواة الذرة ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع (١٠٠٠) مليون دولار .

على أن المشاريع العملاقة ليست وقفا على الفضاء ، والمادة ، والطاقة ، فالكثير منها منصب على بنية الإنسان وبيئته .

فثمة جهاز طموح جدا يستهدف تحديد المواد الكيماوية الموجودة في الدنا (DNA) ، وعددها لا يقل عن (٣٠٠٠) مليون مادة ، بحيث يصبح في مقدور الأطباء تشخيص عدد كبير من الأمراض الوراثية ، كالسرطان وتصلب الشرايين ، ومعالجة عدد من تلك الأمراض معالجة ناجعة . وسيستغرق العمل في هذا المشروع ما بين ١٠ أعوام إلى ٢٠ عاما ، وستبلغ تكاليفه ٣٠٠٠ مليون دولار .

وليس حظ البيئة بأقل من حظ الطب من المشاريع العملاقة ، ولكن العمل في مشروعها الضخم جدا لن يبدأ قبل سنة ١٩٩٢ ، ولا تعرف على وجه الدقة تكاليف هذا المشروع ، ولكنها تبلغ ملايين الملايين من الدولارات ، فهو يستهدف تحديد العوامل العديدة التي تتفاعل فيما بينها وتؤثر قليلا أو كثيرا على البيئة والمناخ العالمي ، أي الذي اصطلح العلماء على تسميته (Geosphere — Biosphere) ، وحظر تلك العوامل .

■□□

منذ نحو ثلاثين عاما والتجارب تجري على قدم وساق لنوع جديد ممتاز من ورق الجرائد NEWSPRINT ، ويستخرج هذا الورق الجديد من نبات افريقي قديم ، يعرف باسم كناف Kenaf ، ويمتاز هذا النبات بسرعة نموه ، ويمتاز الورق الذي يستخرج منه بلمعان يفتقر إليه ورق الجرائد ، وبمزيد من القوة والمتانة ، وبمحافظته على لونه الأبيض ، وبعدم الاصفرار مع الزمن ، وبثبات أحبار الطباعة عليه ، وقلة ما يحتاجه منها ، بحيث لا تكاد تتسخ اليد التي تمسك بجريدة مطبوعة على ورق الكناف .

ويبدو أن ورق (كناف) هذا قد اجتاز المرحلة التجريبية المخبرية ، وهو الآن قيد التجارب الميدانية الواسعة ، التي تجريها ست صحف ، على نطاق واسع ، هذا إذا لم نقل : إنه في سبيله إلى مرحلة الانتاج الصناعي الواسع النطاق . وقد أنشئت مصانع عديدة لإنتاجه .

وأول هذه المصانع قائم في تكساس قرب بلدة مالك الن ، وثانيها قائم في مدينة مونتريال الكندية التي تعد ثاني أكبر منتج لورق الجرائد في العالم ، أما ثالث مصانع (كناف) ففي كوينزلاند ، باستراليا ، ورابعها في فرنسا . وستبدأ هذه المصانع إنتاجها في مستقبل قريب جدا ، سنة ١٩٨٩ ، و١٩٩٠ وسنة ١٩٩١ .

والسؤال الذي يطرح هو : هل في الإمكان زراعة نبت (كناف) في الوطن العربي ؟! وإن كان ذلك ممكنا فلم لا تقبل على زراعته الهيئات أو الحكومات ؟ ولم لا تبادر إلى إنشاء مصانع ورق (كناف) من أجل التصدير ، فضلا عن الاستهلاك المحلي ؟ ومن يدري فلعلنا نحقق الاستغناء عن استيراد ورق الجرائد من فنلندة وكندا والنمسا في مستقبل غير بعيد . !

سلامة البشرية في سلامة البيئة

تخبر
بصمات
جينات
وراثية

● كانت قفزة كبيرة في تاريخ الجريمة والقضاء حين نجحت الهند في الاعتماد على بصمات اليد محكا لإثبات الهوية الشخصية وفي تطوير الأسلوب المعمول به عالميا للافادة من ذلك المحك في شتى المعاملات والدعاوى ، ولانعرف على وجه الدقة متى كانت البداية في شبه القارة الهندية ، ولكننا نعرف أن الانكليز حذوا حذو الهند سنة ١٩٠١ م فاتخذوا من بصمات الأصابع دليلا لإثبات هوية الأفراد ، سواء في المعاملات العادية أو في الجرائم . وفي تحديد هوية مرتكبيها . وانتشر أسلوب بصمات اليد في مشارق الأرض ومغاربها ، واستأثر بثقة الحكومات والهيئات والأفراد جميعا ، ذلك أن بصمات اليد لأي فرد من بني الإنسان فريدة ، وتختلف عن بصمات أي فرد آخر غيره ، أضف إلى ذلك أنها لاتتغير ، بل تلازم صاحبها ، وتبقى المحك المميز لهويته حتى آخر يوم من حياته . حقا قد تضعف أو تنطمس بعض معالمها كثيرا أو قليلا في خريف العمر ، لكن معالمها الأساسية تبقى كما هي لاتتغير .

ثم كانت القفزة الأخرى سنة ١٩٦٦ حين اكتشفوا في امريكا بصمات الصوت ، وقد تمكنوا من تسجيل أو تصوير نمط الخطوط التي يحدثها صوت المرء ، واعتقدوا أنها فريدة كبصمة اليد ، لكنهم مالبثوا أن اكتشفوا ضعف بصمات الصوت واحتمالات تكررها كثيرا فعمدت المحاكم في أمريكا إلى حظرها ومنع الاعتماد عليها في القضاء سنة ١٩٧٤ .

وأخيرا جاءت القفزة الكبرى قفزة البصمات الجينية أو الوراثية ، وهذه فئة فريدة ١٠٠٪ ، تنجح في اتباع الهوية الشخصية في مجالات مهمة يبعد عن بصمات اليد الاقتراب منها .

ونذكر من تلك المجالات مجال جرائم الاغتصاب ، ومجال إثبات صلة الأبوة أو نفيها ، وهي ذات خطورة كبيرة في قضايا الإرث وقضايا الهجرة لاسيما الهجرة إلى الولايات المتحدة الامريكية . ونذكر أيضا مجال التعرف على هوية الميت بتحليل رفاته ، ذلك أن البصمات الوراثية موجودة في كل أعضاء جسم الإنسان ، في دمه وشعره وجلده ومنيه ، بحيث يستحيل على المجرم أن يفلت من العدالة بحجة عدم توافر الأدلة الكافية ، إذ لابد أن يترك أثرا ما في موقع الجريمة ، ولابد لذلك الأثر من أن يدين صاحبه أو يبرئه لدى تحليله وراثيا ، فمتى وجد الاثر وجد الدليل القاطع لامحالة ، وذلك بالتحاليل الوراثية .



البصمات الجينية بصمات الجينة الوراثية كما تدل عليها شفرتها .

والتحاليل الوراثية مازالت في أول عهدها ، فقد ظهرت في الولايات المتحدة لأول مرة سنة ١٩٨٧ ، واستغرق تطويرها بعض الوقت ، حتى كانت القضية الأولى التي اعتمدت فيها البصمات الجينية في شهر نوفمبر ١٩٨٧ ، وكانت قضية اغتصاب ، فصلت فيها إحدى محاكم فلوريدا في مدينة أورلاندو ، ولم يتجاوز مجموع القضايا التي اعتمدت البصمات الوراثية حتى الآن ١٥٠ قضية ، وقد نظرت فيها المحاكم في ١١ ولاية من الولايات المتحدة الامريكية .

■■□□

● نعود الآن الى تقرير كبير الجراحين الأمريكي ايفريت كوب ، لنستكمل ما بدأناه في العدد السابق .

يصل النيكوتين الى مخ المدخن في غضون ٧ ـ ١٠ ثوان من اشعال السيجارة ، وهذه سرعة فائقة وتعادل ضعفي السرعة التي تصل بها المخدرات ، وثلاثة أضعاف السرعة التي يصل بها الكحول الى مخ الانسان .

ولا يكاد النيكوتين يصل المخ حتى يحدث آثارا تشبه آثار الأدرنالين والاستيلكولين ، والأول هرمون بينما الثاني موصل أعصابي قوي neurotransmitter من شأنه أن يحرض جهاز الانذار في مخ الانسان .

وهكذا يصبح المدخن ، لدى وصول النيكوتين الى مخه أكثر يقظة وحضورا ذهنيا ، ولربما أسرع بالتفكير أيضا ، ولعله يصبح أيضا أهدأ بالا تبعا لما يفرزه النيكوتين من مادة مخدرة طبيعية تعرف باسم (بيتا أندروفين)

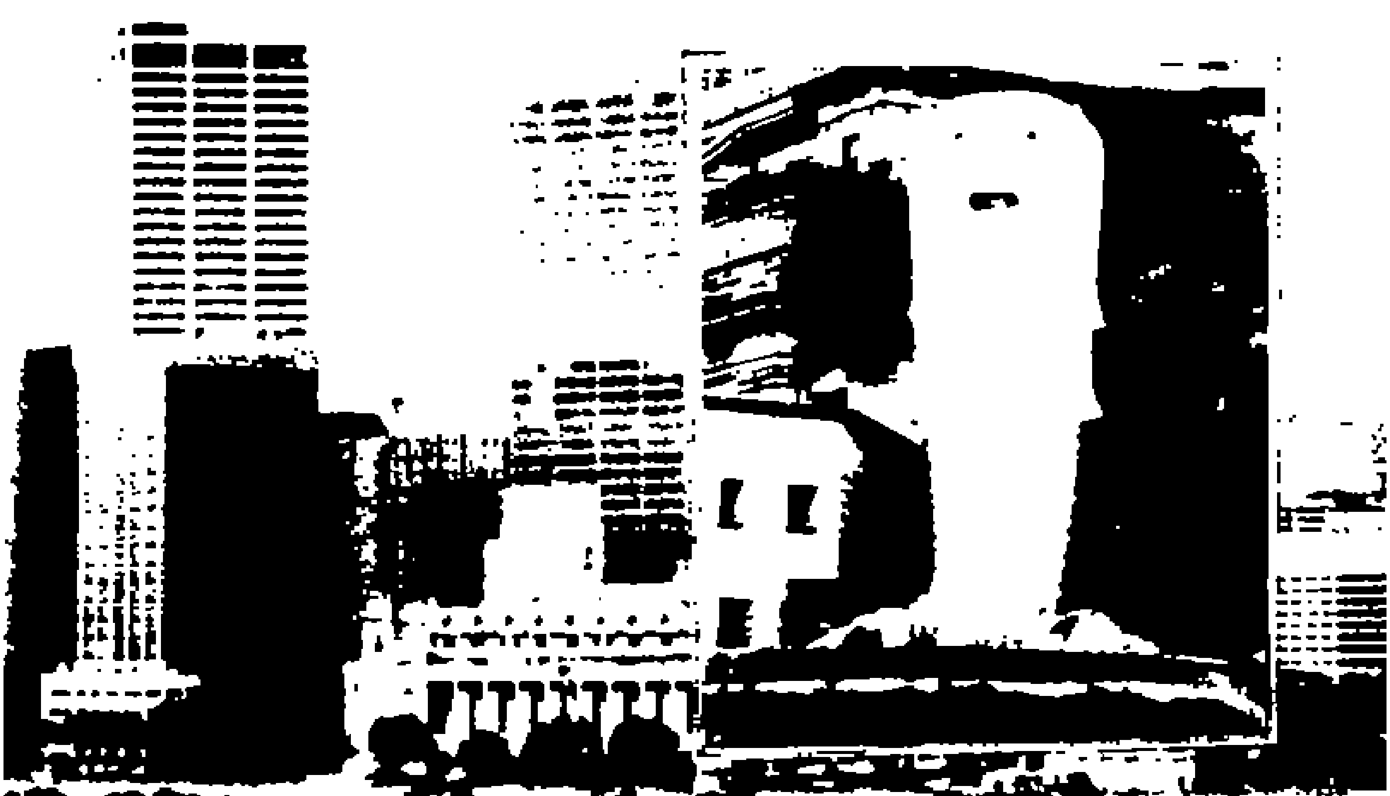
ويمضي المدخن في تدخينه ويتزايد النيكوتين في الدم ، فيزداد الوجه شحوبا ويتضاعف خفقان القلب ويرتفع ضغط الدم ، ويترتب على ذلك ضيق في الأوعية الدموية وضعف في الدورة الدموية على الأخص ، لا سيما في الأطراف التي لا تلبث أن تشعر ببعض البرودة ، ويتسبب ذلك بترخية العضلات والحد من شهية الطعام ويختزن جسم المدخن النيكوتين في دمه، ويواصل المدخن تدخينه مكرها ان لم يكن راغبا ، وذلك لكي يحافظ على كمية النيكوتين في الدم ، ويضمن بقاءها ثابتة غير منقوصة ، وقد دلت التجارب على أن ٣٠٠ ـ ٤٠٠ (شفطة) تدخين يوميا تمثل الحد الأدنى الذي لا غنى عنه للابقاء على محتويات النيكوتين في الدم ، وهذه (الشفطات) هي التي تتحكم بمزاج المدخن وأدائه ، وهذا هو سر الادمان على النيكوتين .

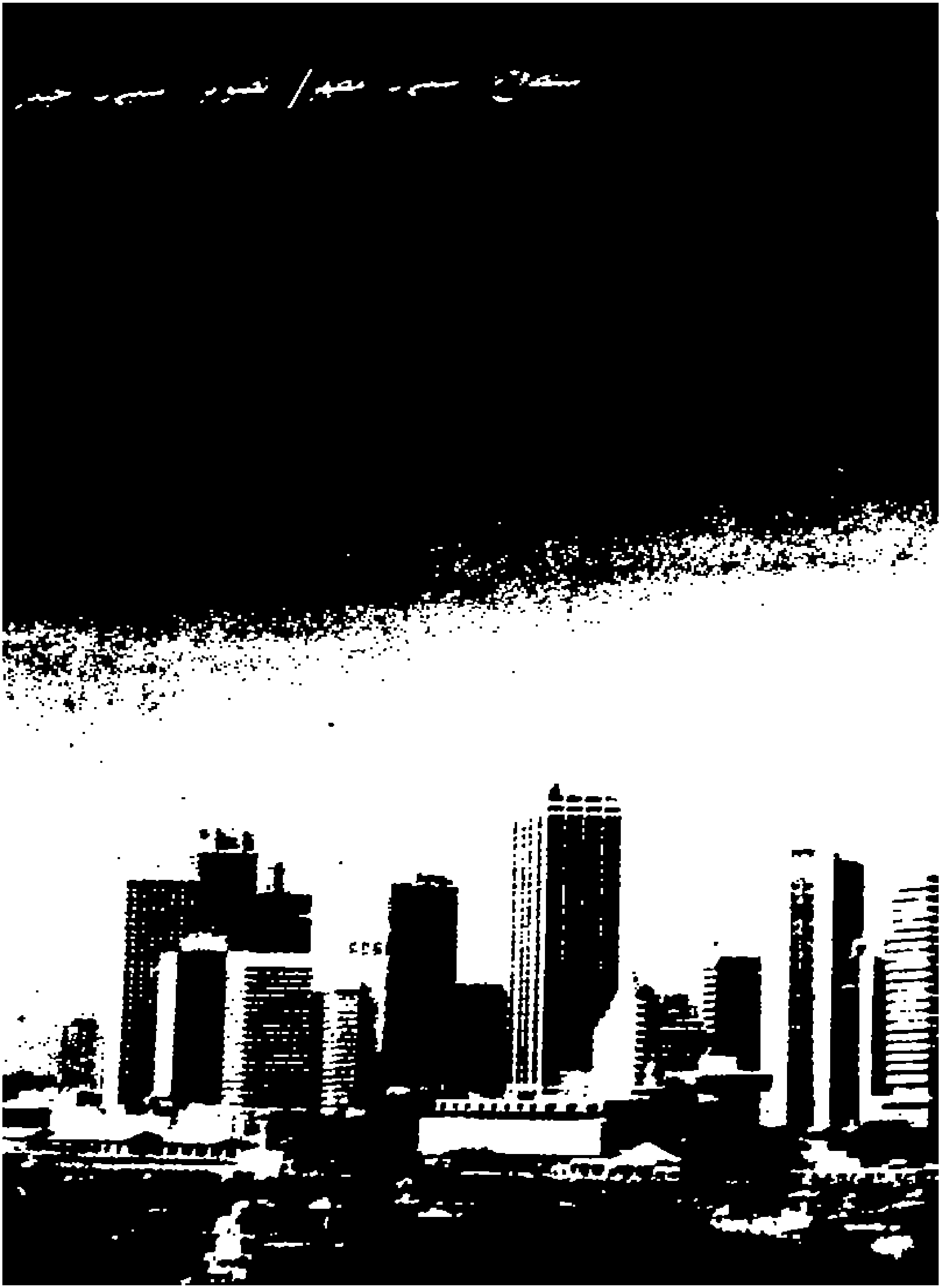
لقد بلغ هذا الادمان من السيطرة على الانسان أن ذهب الكثيرون الى التأكيد بأنه يفوق ادمان الهيروين طغيانا ، وان الاقلاع عن التدخين قد يكون أصعب مثلا من الاقلاع عن تعاطي الهيروين ، ولعل هذا صحيح ما دمنا نسقط من اعتبارنا أو نغفل عن أهم مقومات الاقلاع ، أعني قوة الارادة . □

العربي
عيونك
على العالم

سنغافورة

جزيرة العجائب والمتناقضات!





أنظف مدينة في العالم ..
هنا نستطيع أن نتنفس بعمق ،
فالهواء بلا ملوثات ،
والشوارع بلا مهملات ،
لا أعقاب سجائر ولا نفايات .
هكذا يراها كل من زارها ،
وهكذا رأيناها ونحن نتنقل في جزيرة الزهور ،
والعجائب ، والمتناقضات .. سنغافورة .

قالت لنا وهي تداعب باقة من زهور الاوركيد :

ـ انتم الآن في أجمل حديقة في العالم ، الا تشعرون أنكم تتبخترون في طرقات الجنة ؟ الحدائق ، والورود ، والأشجار ، والخضرة ، والماء الرقراق ، وزقزقة العصافير ، وتغريد البلابل ، وموسيقا الملائكة ، والحور الحسان ، وعبير الاوركيد والريحان ؟ !

كنا حينئذ في قلب « سنتوزا » ، الابنة البكر لسنغافورة ، جزيرة الأحلام والجمال والأعاجيب .

قبل سنوات قليلة لم يكن هناك سوى تلال سوداء ، يمرح في وديانها وعلى سفوحها مئات القراصنة والمهربين ، وتسرح في غاباتها النمور والقرود ، ولم تعرف لنفسها اسما سوى « جزيرة الموت السوداء » ، إذ كانت منفى القراصنة الملاويين . وحين اكتشف الانجليز موقعها الاستراتيجي مع نزول الجنرال ادوارد ليك بها عام ١٨٢٧ كان أول ما قاله : « إن أي عدو يتمكن من النزول بقواته على أرض هذه الجزيرة ، يستطيع أن يكون سيد المنطقة كلها » . ولهذا فقد جعلها الانجليز قاعدة مدفعيتهم الثقيلة ، للسيطرة على جنوبي بحر الصين ، ولكن هذه القاعدة المحصنة لم تستطع الصمود طويلا حين غزا اليابانيون سنغافورة ، في الحرب العظمى الثانية . في ذلك الوقت كانت المدفعية كلها موجهة نحو البحر ، فعجزت عن تحويل فوهاتها حين جاء الهجوم من الشمال ، فكانت الهزيمة الساحقة للانجليز الذين عجزوا عن استعادتها الا بعد سقوط اليابان !

الجنة العائمة

اختلف الأمر كله منذ عشرين سنة فقط ، ففي عام ١٩٦٨ . ومع النهضة الحديثة لسنغافورة ، تطورت « جزيرة الموت السوداء » ، لتصبح منتجعا يحمل اسم « سنتوزا جنة الأحياء » ، وامتد التلفريك الكهربائي ، ليطل الناس من عل ، قبل أن يهبطوا لينعموا بالجنة العائمة الخضراء !

المشهد من نوافذ التلفريك كما رأيناه بدا لنا خلابا رائعا ، ففي المواجهة جزيرة سنتوزا بحدائقها وغاباتها ومباهجها وألوانها ومغانيها وزهورها وتلالها تنتظر هبوطنا . فإذا عدنا بأبصارنا الى النافذة الخلفية وجدنا الجزيرة الأم « سنغافورة » شامخة بعاصمتها وشواطئها التي

تنافس أرقى مدن العالم ، وهي تستلقي في غفوة حالمة ، سابحة في مياه بحر الصين الجنوبي ، الواقع في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة الملايو ، بطول ٤٢ كم ، وعرض ٢٣ كم على مساحة تبلغ ٦٢١ كم٢ ، محتضنة ٥٩ جزيرة صغيرة ، يعيش عليها ما يقرب من ثلاثة ملايين نسمة ، متوسط دخل الفرد منهم لا يقل عن ١٠ ألف دولار سنغافوري في السنة ، بما يساوي حوالي ٨ آلاف دولار امريكي ، وهو من أعلى الدخول الفردية في العالم الثالث .

ونغادر التلفريك لنتجول بين أنحاء سنتوزا ، الجنة العائمة .

أحد أجمل ماشاهدناه في سنتوزا الطريقة التي استطاعت أن تجمع بين ملامح الغابات والخضرة الاستوائية مع الشواطيء الرملية الناعمة البيضاء . عندما اخترق القطار الضيق بنا الغابات الخضراء الممتدة على الجانبين شهدنا الجمال الاستوائي ، بأشجاره المثمرة المميزة التي تتقافز بينها القردة والسناجيب ، ومن تحتها القنوات والجداول ، تتلوى مخترقة أرض الغابة .

في كل مكان تتناثر الملاعب الرياضية للكبار والصغار ، بما فيها ملاعب التنس والجولف وأحواض السباحة والسباقات المائية والتزلق ومتجمعات الاستجمام والراحة على شاطيء البحر . وليس أروع من مشهد النافورة الموسيقية الراقصة ، بتشكيلاتها المائية ، وأضوائها المتراقصة ، وموسيقاها التي تقدم أشهر أعمال الموسيقيين العالميين ، وتتدرج من السيمفونيات حتى موسيقا الجاز .

ونتنقل الى متحف المرجان ، حيث أجمل التشكيلات المرجانية ، وأندر البقايا البحرية التي اختيرت من مختلف أنحاء العالم . الجدران والسقوف وديكورات الإضاءة كلها من الشعب المرجانية والأصداف الملونة . أما المعروضات ففي داخل أحواض ومياه جارية ، تماثل بيئاتها

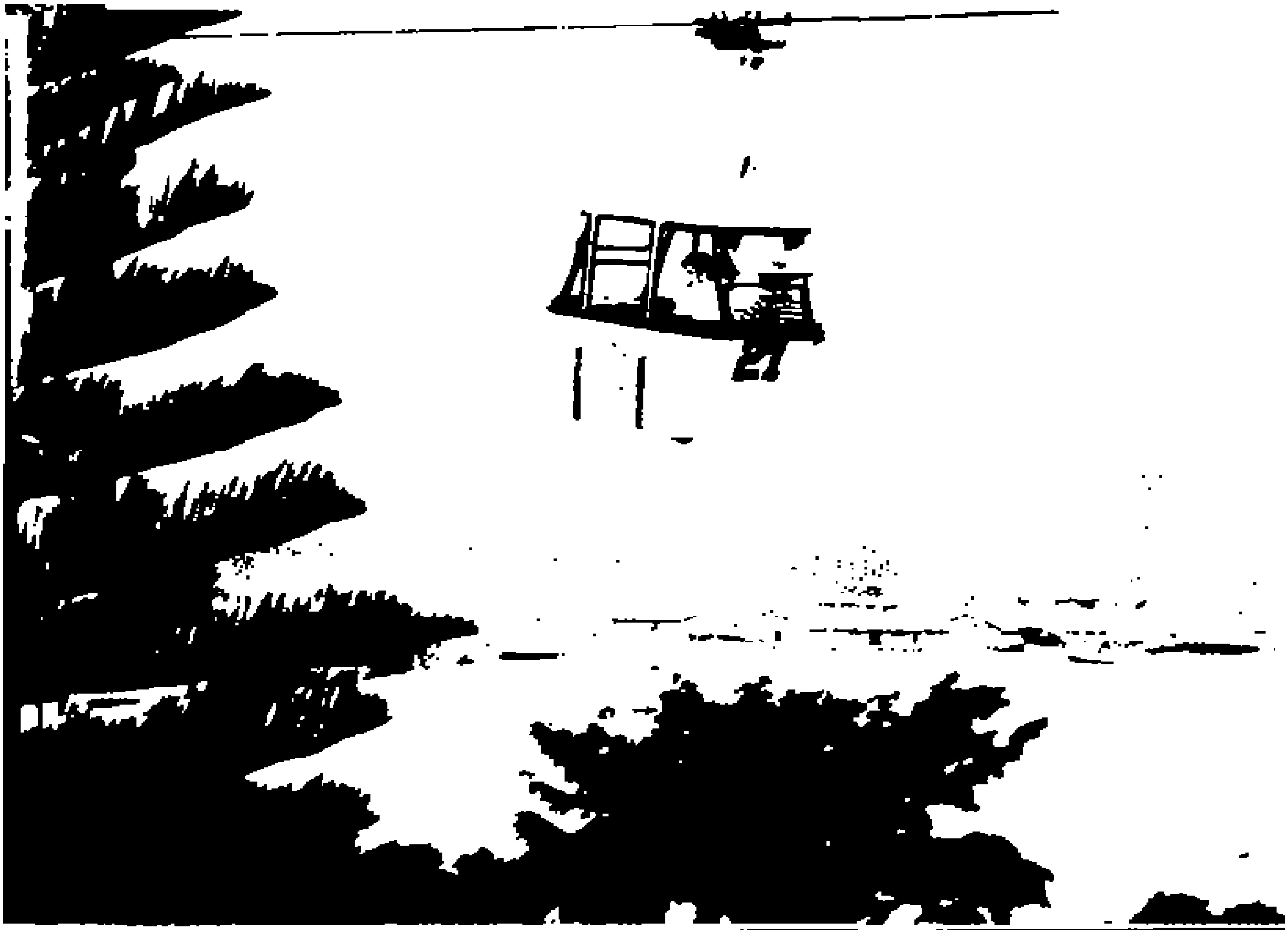


● خريطة تبين موقع سنغافورة وشبه جزيرة الملايو

الطبيعية ، حيث تسلط عليها أضواء تشبه أضواء الأعماق في البحار والأنهار . أما أنواع الأصداف البحرية فتقرب من ٢٢٠٠ نوع أغلبها يعد نادرا .

ونتنقل من مكان الى اخر ، بين منتزهات وزهور تغطي المساحة السهلية والطرقات ، بطريقة مميزة بديعة ، حتى نصل الى قلعة « سيلوزو » التي أقامها الانجليز عام ١٨٨٠ ، والتي تتميز بممراتها المحفورة التي تتلوى تحت الأرض ، وفتحات الفوهات التي نصبت فيها المدافع والقاذفات والبنادق السريعة الطلقات .

قالت لنا مرافقتنا ، وهي ألمانية غربية ، جاءت الى سنغافورة منذ خمسة عشر عاما ، فعشقتها ، واكتسبت جنسيتها دون أن تفكر في العودة الى وطنها الأصلي : لا تستصغروا مساحة بلادنا ، فهي كبيرة بقيمتها ، غنية بموقعها الاستراتيجي ، رائعة بطبيعتها ، بلاذخة بمنتجاتها ، راقية بجهود شعبها ، وهو ما ستشاهدونه بأنفسكم . المهم هنا أن هذا








● الإطلالة من
الشرفة تعطيك رؤية
بانورامية كاملة للمجاورة
وبينها البحر ستتوزع
حة المدينة بشواهدها
التاريخية وبانوراميتها
ترفقه. وتستطيع أن
تشاهد الأفق مع التمتع
بالصحة. وأن تتناول
بعدوا مع العربية
امام العادة



الشعب الذي جاء من أصول عرقية متباينة قد أصبح اليوم يعزف سيمفونية واحدة تقول : « شعب واحد ، والوطن للجميع » .

الكل في واحد

شعب يفيض بالمرح ، يبتسم دائما ، فيه رقة وجاذبية وذكاء . ألوان من الناس متباينو الأعراق والعقائد والثقافات ، يثيرون الاستغراب ، فمنذ اللحظة الأولى التي هبطنا فيها من الطائرة في مطار شانجي ، عرفنا أن هذا الشعب يضم مجموعة من الجنسيات ، خلطت في بوتقة واحدة ، ليصبح الكل في واحد ، فالأغلبية من الصينيين القادمين من اثني عشر إقليما من أقاليم الصين الأم ، ويشكلون نسبة ٧٦٫٣٪ من السكان ، أما الباقون فمن الملايويين ، ويشكلون ١٥٪ ، والتاميليين من جنوب الهند ، والبنجابيين ، والسيخ ، والسيلانيين ، ويمثلون ٦٫٤٪ ، ثم الأوروبيين والعرب واليمنيين والعمانيين ويمثلون ٢٫٢٪ .

هذا المزيج الغريب من الأعراق يشكل الان شعبا واحدا ، يتمسك بوطنه الجديد ، ولا يشعر أحد منهم بغرابة من الاختلافات العرقية أو اللونية أو اللغوية بينهم ، ولا يهتمون بالاختلافات العقائدية بين بوذيين وهندوس وكونفوشيين وطاويين ومسلمين ومسيحيين ، بل إنهم يعرفون كيف يتعايشون بتآلف مع كل القادمين إلى بلادهم ، من سياح وتجار وعلماء ومهندسين وعمال ، وبالإضافة الى ذلك فإن السنغافوريين - مع عدم انفصالهم عن جذورهم العرقية - قد تعودوا طويلا على الاتصال مع الاجانب .

ولكن قبل ذلك بسنوات طويلة أدى خلاف حول ستة أرطال من الأرز إلى معركة وحشية بين الصينيين ، وبلغ عدد الضحايا ستمائة قتيل ، والاف الجرحى ، وبلغ عدد البيوت التي دمرت ثلاثمائة بيت ، أما الأسلحة المستخدمة فكانت الفؤوس والبلطات والعصي المسنونة .

جاء اللاجئون من مختلف المقاطعات الصينية ليستقروا في الجزيرة الخضراء ، ومعهم تقاليدهم وعاداتهم ، وكان لا بد مع مرور السنين أن يتلاحموا ويتحدوا ويمتزج الجميع في البوتقة ، لينتج المزيج الثقافي والاجتماعي واللساني الذي يشكل المجتمع الصيني السنغافوري ، بكل عقائده المؤمنة بالهة البوذية والكنفوشية والطاوية ومختلف الفروع العقائدية التي عرفتها الصين ،

وينصهر ذلك المجتمع السنغافوري الجديد مع كل الأعراق الأخرى القادمة من مختلف أنحاء جنوب شرق اسيا . ولعل ما جمعهم في هذه البوتقة الواحدة هو الرغبة في تعويض أنفسهم عن أوطانهم التي فقدوها بالعثور على موطن جديد ، ينتسبون اليه ، هو سنغافورة . والذي زاد في الاحساس بالانتماء هو أن القادمين الأوائل كان أغلبهم من الرجال ، مع أقلية من النساء . فكان أن تمت زيجات مع الفتيات الملاويات ، أدت مع مر السنين إلى تدعيم الرابطة الثقافية الموحدة بين الجميع .

الناس في الشوارع الخلفية

الصورة البراقة الباذخة للمدينة الجميلة الحديثة المغرقة في أساليب التقنية المتقدمة لا تستطيع أن تعطي صورة حقيقية لقطاعات الشعب التي تعيش في الشوارع الخلفية ، حيث الأحياء القديمة المنعزل بعضها عن بعض ، منذ وضع تخطيطها سير رافلز . واستمرت على ذلك التخطيط حتى الان . إنها الحي الصيني ، والحي الملايوي ، والحي الهندي ، والحي العربي .

وكان لا بد لنا أن ننزل الى الشوارع الخلفية ، لنشهد كيف تجري حياة الناس ، بادئين بالحي الصيني ، أبرز هذه الأحياء وأكثرها ازدحاما بالسكان .

المجتمع التقليدي بأجداده وآبائه وأبنائه هو مقصدنا ، ونحن نخترق شوارع الحي الصيني الذي يسمونه « شاينا تاون » . هناك ، وجدنا أنفسنا نعود الى الوراء من خمسين الى مائة سنة ، فالشوارع لا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل تلك السنين ، ما عدا تلك الخلفية من ناطحات السحاب الأنيقة الجميلة النظيفة التي أقيمت لتكون مساكن لذوي الدخل المتوسط والمحدود من سكان الحي ، والحي الصيني - تماما كبقية الأحياء الشعبية التقليدية الأخرى - يتطور إلى الأحدث . ويبدو أنه لن تمر سنوات قليلة حتى تكون المعالم القديمة قد اندثرت تحت وطأة التجديد المستمر والتقدم العمراني ، ولا يبقى منها غير بقايا متناثرة هنا وهناك ، تروي قصة الماضي القديم .

وندور في الشوارع الخلفية التي ما تزال تتمسك بطابعها العتيق ، الطرق ضيقة ، شديدة الازدحام ، والمباني غير متشابهة ، إلا في الارتفاع الذي لا يتجاوز طابقين أو ثلاثة ، مع طابع هندسي غريب ، غير متكامل ، ومتاجر متباينة الأشكال والواجهات ، ومستودعات قاتمة وباهتة .

قارئو الطالع يلاحقون المارة ، أو يجلسون والساق فوق الساق ، ويطلقون كلمات مبهمة غير محددة . الطبيب الشعبي يحمل حقيبته العامرة بالادوية والأعشاب والخدع ، ويزعم أحدهم أنه يشفي أمراض القرحة بابتلاع ثلاثة فئران بيضاء وهي حية !

هنا أيضا يجد الصينيون والزائرون متعتهم في الأطعمة المعدة إعدادا خاصا . في المطعم الرئيسي بسوق « كريتا اير » تجد كل أنواع أطباق المكرونة المصنوعة من الأسماك والدجاج ، إلى جانب لحم الخفاش والحملام والسنجاب والثعابين . دعينا للغداء في أحد هذه المطاعم ، فقدمت لنا عدة أطباق ، وعندما بدأنا نأكل قالت لنا مرافقتنا :

- هل تعرفون هذا النوع الذي ستأكلونه ؟

قلنا : حمام وسمك .

قالت : بل لحم الوطواط والسنجاب .

وتصور ما الذي يمكن أن يحدث حين تتوقف اللقمة في فمك ، ولا تعرف كيف تقذفها ، ولا تطيق بلعها والآكلون من حولك بالعشرات ، وطلبنا سمكا وأرزا فقط ، وجاء النادل وفي يده سطل ملء بالأرز المسلوق ، وفرش أمام كل منا ورقة موز كبيرة بدلا من الصحن ، وراح يغرف كميات الأرز من السطل بمغرفة صغيرة ، بينما أكثر الأرز في كفه ، ومن سطل اخر يخرج السمك الغارق في الكاري ، وعلينا أن نأكل كل ذلك حتى لا نهين من يجلسون حولنا !

كل شارع من الشوارع يتخصص في تجارة معينة ، ولكن أبرز ما لفت نظرنا هو محلات النعوش والأكفان . قال لنا صاحب المحل « جان انج سنج » : إن بعض هذه الصناديق الخشبية يكلف بضعة آلاف من الدولارات ، وهي ثقيلة حتى أن رفعها يحتاج الى عشرين رجلا ، وهي بالطبع للأغنياء من أصحاب الملايين . الصناديق ليست وحدها ما يستحق الملاحظة ، فالمحل يبيع أيضا نماذج من البيوت والسفن والسيارات ، لا يقل طول أي منها عن نصف متر ، مصنوعة من الورق المزخرف بالألوان والخيزران . وهي ليست للعب ، ولكنها بعض ما يهدى للميت في جنازته لتحرق معه ، حتى يتمتع بها في حياته الأخرى !

في شارع اخر تخصص أصحاب المحلات في صناعة الوجوه الملونة الخشبية أو الورقية ، إنها تمثل الالهة المنزلية التي ما تزال تماثيلها تملأ بيوت الصينيين . أمام هذه المحلات يجلس الصناع المهرة المتخصصون في هذه الصناعة بسراويلهم القصيرة وملابسهم الداخلية وأذرعهم وسيقانهم العارية ، يعملون على تلوين الوجوه بالألوان الصارخة ، وتلميعها ، حتى ساعات متأخرة من الليل .









● تاريخ سنغافورة تحكيه لك التماثيل في متحف الشمع. وفي الشوارع الخلفية تضيع عينيك في الازدحام الشديد حيث تتزاحم السيارات مع المشترين. والنسمة رطبة تناسب كل الصفقات. وحتى في الحدائق تستطيع أن تشاهد الطالبات الصغيرات يتناولن الوجبات على الموائد المخصصة بين الأشجار والزهور







المعابد والأوبرا !

أما المعابد البوذية فمنتشرة في كل مكان ، وهي تقوم وسط المباني القديمة ، ليس في الحي الصيني وحده ، بل في كل أنحاء سنغافورة !

في شارع « تيلوك اير » دخلنا معبد « يثان هوك كنج » ، المعبد بناه عام ١٨٤١ مهاجر صيني ، ليقدم الشكر للآلهة لوصوله وصحبه سالمين من بر الصين . الناس يدخلون المعبد فيركعون على ركبهم في صلاة قصيرة ، وهم يشعلون أعواد البخور ليغرسوها أمام تمثال بوذا أو تماثيل الأباطرة التسعة الإلهيين !

قصة هؤلاء الأباطرة المقدسين يحكيها لنا الراهب الأكبر الدكتور « شوهون كونج » ، في معبد « تومو كونج » ، المتخصص لعبادتهم ، القائم في شارع سيرانجون منذ ١٨٨٠ ، قال : إنهم لم يكونوا آلهة أول الأمر ، بل كانوا بشرا ، ولكن من خلال فضائلهم تحولوا إلى نحو خالدين ، ينزلون إلى الأرض في إقامة مؤقتة لمصاحبة الرجال والنساء الذين ولدوا من آباء أطهار بلغوا مرحلة « السمو الروحي » . وما تزال أرواحهم محومة بين السماء والأرض . هؤلاء الأباطرة المقدسون هم نجوم « الدب الأكبر » السبعة ، أربعة منهم يمثلون المحوره الوسطى ، وثلاثة يمثلون الأيدي التي تحركها ، أما الإلهان الآخران فيسكن كل منهما في نجم خفي قريب ، وهما نجما التحويل غير المرئيين إلا للخالدين . . !

يتمثل الأباطرة التسعة بعض الأحيان في تمثال الإلهة الأم « دومو هونج » كما ينطقونها بالمندرين ، والتمثال كما رأيناه لامرأة لها عدة أذرع ، وعلامة مميزة على جبهتها ، ويقول بعضهم : إن موطنها الأصلي هو الهند ، وفي صباها منحت القدرة على السير فوق الماء دون أن تبتل قدماها ، مما جعلها قادرة على إنقاذ الغرقى ، وقد تزوجها ملك المملكة الشمالية ، فأنجبت له تسعة أبناء ، أصبحوا هم الأباطرة الالهيين الذين يعبدون في معبدين في سنغافورة ، بالاضافة الى ٣٥ معبدا آخر في ماليزيا ، وتسعة معابد في تايلند . ويجري الاحتفال الكبير بهم مرة كل عام مدة تسعة أيام وتسع ليال ، في اليوم التاسع من الشهر التاسع من التقويم القمري . ويحظر على المتعبدين أن يأكلوا اللحم قبل دخول المعبد بيوم كامل على الأقل ، وعليهم أن يتطهروا ، ويبتعدوا عن العلاقات الجنسية ، وأن تكون أفكارهم نقية طاهرة ، وثيابهم بيضاء غير ملوثة .

في الساحة الخارجية للمعبد أقيم مسرح الأوبرا ، حيث تقدم عروض تاريخية ودينية ، أما الممثلون فمن المتطوعين للتمثيل دون أجر ، وأما المتفرجون فعلى كل منهم أن يبحث عن مقعد من المقاعد المكدسة في جانب الساحة ، ويجلس في أي مكان خال ، والدخول والخروج مسموح به في أي وقت . . !

الأوبرا الصينية كما رأيناها تمزج بين التراجيديا والميلودراما والكوميديا . وكان المشاهدون يقهقهون بالضحك لموقف البهلوان ، مضحك الملك ، وهو يوقعه في خدعة مثيرة ، ثم ينفجرون بعد لحظات في البكاء لنعي فتى صغير وتعذيبه وهو بريء ، ثم يصخبون بالتأييد وهم يشاهدون الرجل الخير ينتصر على العملاق الشرير . « والوايانج » ، أحد أنواع العروض الأوبرالية في سنغافورة ، يمزج بين الأصالة والمعاصرة ، ولا يُكْتَفى في ذلك بالمشاهد التمثيلية والوجوه الملونة والملابس التقليدية و « الديكورات » البسيطة ، ولكن تقدم في الوقت نفسه ألوان حديثة من الأوبرا والغناء ، كلها في عرض واحد ، يهلل له المشاهدون . وكل حركة من حركات التمثيل كانت تُؤَدّى طبقا لقواعد من الرشاقة منسجمة مع النغمات الموسيقية التي تعزف خلال التمثيل . وكانت حركات اليدين تستخدم رمزا للكثير من الأعمال ، كما كانت تصاحب الكثير

من الأقوال . وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة ، متفقة مع العرف والتقاليد القديمة . تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين يؤلف نصف ماقي المسرحية من شعر

الحي الهندي

عرض موسيقي راقص شهدناه أيضا في المعبد الهندوسي عندما انتقلنا الى الحي الهندي . كان الاحتفال دينيا ، يسمونه « ديبافالي » ، ويعني « عنقود الأنوار » وعودة النور هو ما يقام من أجله الاحتفال . أما الديبافالي فتحكي قصة هزيمة اله الشر « أسورا » على يد البطل الالهي « فشنو » ، أو التجسيد البشري له ، وهذا يتفق مع أسطورة « المهابها راتا » ، إذ ينتصر كريشنا على الشرير كامسا . وهذه القصة تمثل انتصار الحق والنور والحياة على الشر والظلام والموت .

دخلنا المعبد بعد أن خلعنا أحذيتنا وتركناها في السيارة ، حتى لا نفقدها إذا تركناها عند الباب كما نصحتنا مرافقتنا . المشهد داخل المعبد كان مثيرا صاخبا مليئا بالضجيج ، والأضواء تغمر المكان والشموع منتثرة أمام تماثيل الآلهة . وأعواد البخور المحروقة تملأ القاعة بالدخان . اتساع القاعة يسمح بوجود خشبة مسرح كبيرة جلست عليها فرقة موسيقية ، لا يقل عدد أفرادها عن عشرين عازفا . وأمامهم فرقة غنائية من الأطفال يهزجون ويترنمون ، ثم تقوم بينهم راقصات ، يؤدين رقصات دينية ، تتثنى خلالها أجسادهن وأذرعهن مع تعبيرات تؤديها العيون والأصابع بتناسق فني مثير .

المشاهدون يجلسون على أرضية المعبد الرخامية ، يتابعون المشاهد في إعجاب وانبهار ، وبين الحين والحين يتجه بعضهم إلى حيث تمثال الاله كريشنا ، لتقديم القرابين ، أو لإشعال أعواد البخور ، ثم يعودون إلى أماكنهم ، وقد أنجزوا نصيبهم من الاحتفال ، وحصلوا على البركة من الراهب الذي يرش عليهم الماء المقدس ، ويعطيهم بعض حبات الأرز التي باركها الاله . ونجد بعض الرجال ينجذبون فينهضون للمشاركة في الرقص والاهتزاز العنيف ، تماما كما كنا نشاهد « المجاذيب » في موالد الأولياء

قالت لنا مرافقتنا : إن الاحتفالات تبدأ في ساعة مبكرة من الصباح . تنهض الأم قبل طلوع الشمس ، تحضر الملابس الجميلة التي سترتديها هي وزوجها وأبناؤها ، وتجهز مظاهر الاحتفال التقليدية ، مثل الزهور وقطع الحلوى والزعفران وزيت الزنجبيل وبودرة الألوان والفواكه . وللتطهير يأخذ الجميع حماما من زيت الزنجبيل ، قبل أن يرتدوا ملابسهم . ويتجمعون أمام المذبح لأداء صلوات الشكر للآلهة ، قبل أن يقضوا النهار كله في تبادل الزيارات مع الأقارب ، والنزهة في الحدائق . ويستمر ذلك حتى يهبط الليل ، فيتجهون الى المعبد ، حيث تعرض الغناء والرقص التي حضرنا بعض مشاهده .

هنا الهند

الحي الهندي القديم ما يزال على حاله . صورة طبق الأصل مما شاهدناه في الشوارع الخلفية في بومباي .

يقولون : إذا كنت تريد أن تذهب إلى الهند ، فوفر نقودك . فقد انتقلت الهند بنفسها إليك هنا في سنغافورة ! « الهند الصغرى » . هكذا يسمون الحي الهندي الذي يخترقه شارع سيرانجون الرئيسي ، وتتفرع منه عدة طرقات أخرى ، تمثل أقاليم شبه الجزيرة الهندية ، حيث حط القادمون منها ليستقروا ويعيشوا منذ أكثر من مائة عام ، إنها صورة مصغرة من الهند ، بكل تقاليد شعوبها وعقائدها ومعابدها وثقافاتها وأزيائها وتجارتها وصناعتها وبخورها وعطورها ، بل حتى رائحتها النفاذة المميزة







● مشاهد الأوبرا في أحد العروض تمزج بين التراجيديا والميلودراما والكوميديا والأخرى تتألق بصوت آخر لأصبح مشاهدين ، الصورة العليا ، ولا سيما الناس في سنغافورة ، يسحر راقص التونسي الأول الذي يصور في مسخ لشبح بعدولس مع السعن ، في اليسار ، أما الصورة السفلى ، فلفرقة هندية تعرف أثناء الاحتفال في المعبد الهندي ، يبنز في أعلى البيت تتألق الآلهة الأم



بالكاري والبهارات التي تجذبك مهما كنت بعيدا لتقول لك : هنا الهند . . !

الساري بألوانه الصارخة وزخارفه المذهبة هو قوس قزح الذي لا يغيب عن بصرك ، سواء كانت السماء صحوا أو ممطرة ، فإذا لم تلمحه على أجساد النساء والفتيات فستراه على الأقل معلقا على جميع واجهات المحلات التي تبيع الأقمشة والأزياء ، سواء الحريرية أو القطنية أو المصنوعة من الصوف والنايلون والموسلين والفوال والشيفون . وبين كل محل وآخر من محلات الأزياء تتناثر الدكاكين والمتاجر التي فرشت أمام واجهاتها كل بضائع الهند ، من قمصان مشجرة وبلوزات ملونة وأحذية وشباشب وخلاخيل وأساور وعقود من الخرز أو الزجاج ، إلى جانب دكاكين الأواني المنزلية ، والفواكه والخضراوات واللحوم والأسماك والروبيان المجفف ، ومحلات الكاسيت التي تصرخ بالموسيقا والأغاني ، وتضرب أذنيك مهما تنقلت من شارع إلى شارع ومن رصيف إلى رصيف .

لا تتوقع أن تجد « سوبر ماركت » أو مجمعات تجارية ، فالمشترون ـ سواء النساء أو الرجال ـ يحملون دائما أكياسا أو حقائب من الجلد أو البلاستيك ليملئوها بما يريدونه من البضائع المدلاة على الواجهات أو المفروشة أمامها ، إنهم ليسوا على استعداد لدخول مخزن تجاري أو « سوبر ماركت » للشراء ، ما دام كل شيء معروضا على الرصيف . أما التجار فهم يبيعون بضاعتهم في أي مكان يقعون عليه . تكفي « فاترينة » أو ثغرة في حائط قديم أو كشك على رصيف أو دولاب على حائط أو درجات سلم خارجي أو طاولة على بقايا سور ، أو حتى صينية أو صندوق معلق على الكتف أو الرقبة ، ومع ذلك فالأمن والأمانة متوفران ، فلن يخطف أحد شيئا ويهرب ، ولن يأخذ أحد بضاعة دون أن يضع قيمتها ، حتى ولو لم يكن البائع موجودا .

« انظر حولك » غير معترف بها هنا ، فالأطفال والمواليد والصبية يملأون الأرصفة والدكاكين ، والأغلبية تشارك الأم أو الأب في عمل باقات الزهور والفل والياسمين . الخياط يعمل وهو متربع على الساقين ، وماكينة الخياطة على الأرض بين يديه . طحان التوابل والحبوب يجلس وهو يدير الرحى الحجرية التي ارتقت عند بعضهم فتحولت إلى آلة وإن لم تكن عصرية . بائع التوابل يغرف الفلفل والبهار والكاري ليعبئها في أكياس من البلاستيك للمشترين . الحداد ينفخ الكير ويضرب الحديد المحمي داخل الدكان الصغير . صانع الأحذية أو الإسكافي يفترش مدخل دكانه ، والصغار والكبار كل منهم يأخذ دوره في إصلاح الحذاء أو تركيب نعل أو كعب جديد من المطاط . صانع الأطعمة يقف على الرصيف أمام فرنه أو موقده أو صينيته ، يقلب الفطائر والمعجنات والسمبوسة في زيت مقلاته الذي يغلي ، ويملأ الشارع بالأبخرة والروائح النفاذة .

وكلما اقتربت من معبد من المعابد الهندوسية وجدت نفسك وسط زخم من دكاكين بيع الشموع وأعواد البخور وتماثيل الآلهة وهياكل القرابين والأرز الملفوف في أوراق المانجو ، وكل ما يرتبط بالعبادات من الصور والأضحيات ، مما لا يعد ولا يحصى . دخلنا أجمل وأكبر المعابد الهندوسية في سنغافورة ، معبد « بيري بيرومال » . المدخل الرئيسي يقوم فوقه برج ، طوله ٢١ مترا ، يسمونه « راجا جوبورام » ، من خمسة طوابق مدرجة ، تمثل التماثيل الملونة على جوانبه ومدرجاته بالشكل التقليدي جميع الآلهة الهندية والقصص الأسطورية للعقائد الهندوسية . ما أن ندلف من بوابة المعبد حتى يُطلب منا خلعُ أحذيتنا ، قبل أن نجتاز ساحة رحبة مترفة ، تقوم في جانبها قاعة المهرجانات الدينية وحفلات الأعراس ، وإلى اليسار يقوم

حرم قدس الاقداس ، حيث هيكل الاله الفيل « فيتا جايار » ، وأخيه « موروجان » ، وإلى اليمين يقوم هيكل الاله القرد هانومان ، أما الهيكل الرئيسي في المعبد ففي الوسط ، وهو مخصص لتمثال الاله فشنو ، تحيط به زوجتاه ، لاكشمي « زوجـه الأولى إلى يسـاره ، « ولانداي » زوجه الثانية إلى يمينه . ويؤدي الهندوس صلاة جماعية أمام فشنو في السابعة صباحا والسادسة مساء يوميا .

ثمة مشهد غريب رأيناه ، وهو عملية « حمام الاله » التي يؤديها الراهب الهندوسي الأكبر ثلاث مرات في اليوم . في كل مرة يقوم الراهب بغسل تمثال الاله تسع مرات ، فيرشه في كل مرة بماء مطهر ممزوج في الحمام الأول بالزيت ، وفي الثاني بعصير جوز الهند ، ثم بالحليب الصافي ، فاللبن المختر ، فكوكتيل من عصير الفواكه ، فالعسل ، ثم عصير الليمون ، فعصير قصب السكر ، ويكون الحمام التاسع بماء الورد ، وبعد الحمام يقوم الراهب بتغطية تمثال الإله بباقات الزهور والجواهر ، ويضع أمامه قرابين الأرز وجوز الهند والموز والسكر والبلح ، وينثر أوراق الشجر الخضراء تحت قدميه . . !

مآذن الاسلام

كل هذه المشاهد تتباين تماما عندما ننتقل إلى القلب الاسلامي النابض في سنغافورة ، الحي الملايوي والحي العربي . عدد المسلمين في البلاد حوالي نصف مليون نسمة ، يمثلون سدس عدد السكان في سنغافورة . ولهم مساجدهم ومآذنهم وتراثهم ومتاجرهم وبضائعهم التقليدية المحلية . وأزياؤهم التي تختلف عن أزياء بقية السكان .

الوصول الى الحي العربي يتم من خلال طريق جيلانج سيراي ، حيث أسواق الحي الملايوي .

في هذا المكان استقر الملاويون في قرية صغيرة للصيادين ، نمت مع الأيام ، لتصبح مدينة حديثة قائمة بذاتها ، كان اسم القرية الأصلي « جيلانج كيلابا » ، نسبة إلى جوز الهند الذي كان يزرع في ذلك المكان وسط شجيرات الليمون (سيراي باللغة الملايوية) ، ولهذا حملت اسمها الجديد « جيلانج سيراي » .

في عام ١٩٦٠ حدثت تغيرات سريعة في كيلانج . فمع زيادة النسل والتزاحم الشديد بين الملاويين كان لا بد من توسعة المنطقة ، وردم بعض جوانب النهر الذي كان يقسم القرية الى نصفين ، وأقيمت مبان رأسية يمكنها استيعاب الأعداد المتزايدة ، هدمت هذه البنايات ليقوم محلها ما يشبه ناطحات السحاب لإسكان أبناء الحي . وتمت توسعة سوق كالانج لتغطي الاحتياجات الاستهلاكية والغذائية والحياتية للسكان .

ومن خلال التزاحم الشديد في طرقات الحي الملايوى نشق طريقنا بصعوبة الى الحي العربي .

هنا . . . تحمل الشوارع أسماء مدن عربية واسلامية مثل بغداد ومسقط وقندهار ، وعندما نبدأ سيرنا من طريق الشاطىء نجد أنفسنا بين صفين من الدكاكين التي تبيع كل ما هو تقليدي مثل أقمشة الباتيك والحرير والمخمل والمقصب والجدائل والضفائر والترتر والسلال المصنوعة من القش .

وفي شارع بغداد حيث البنايات ذات الطابع التقليدي الاسلامي وبخاصة المغربي والأندلسي ، تباع صناعات تقليدية أندونيسية مثل أغطية الرأس وملابس الاحرام والمجوهرات والعطور وسجاجيد الصلاة . وفي نهاية شارع مسقط نجد أنفسنا أمام مسجد السلطان الذي شيد عام ١٩٣٤ . إنه أحد أكبر المساجد التي يشرف على أغلبها المجلس الاسلامي الأعلى الذي يرعى الدعوة الاسلامية التي دخلت سنغافورة مع قدوم التجار من العرب والمسلمين من اليمن وخاصة من









● هنا الهند .. هكذا تؤكد هذه المجموعة من الصور التي التقطتها عدسة مصور العربي إلى أقصى الشرق ، بدءاً من سرح أكبر المعابد المنحوتة في سومنات ، بتماثيله الملونة للآلهة الهندية .
أما الصورة العليا (إلى اليمين) فلإحدى المعابد مقدمة قرابين في المعبد (أعلى) وفي الوسط ، لقطة للحفل الفني الشعبي الدينافي والكاهن يقدم القربان أمام تمثال الإله (يسار) .

حضرموت والذين صحبهم عدد من الدعاة لنشر الاسلام وانتشرت مع وجودهم مساجد عديدة في جميع المناطق ، بينها مسجد النور والسلطان ، ودار الأمان والشاكرين والمجاهدين والمهاجرين وفاطمة وآمنة وقاسم وخالد والتقوى .

ونتأمل مبنى مسجد السلطان قبل أن ندخله . القبة المذهبة شامخة ، والمئذنة قائمة تناطح السحاب . هندسة المسجد من الخارج مزيج من الفن الهندي والصيني . ويتميز من الداخل ببساطته واتساع صحن الصلاة . والجدران غير المزخرفة . وقد خصص جانب من الطابق الثاني للنساء لأداء الصلاة ، في هذا الطابق نجد واحدة من الطبول الضخمة بمقرعتها حيث كانت تستخدم للاعلان عن مواعيد اقامة الصلاة قبل أن يصبح الأذان بالميكروفون فوق المنارة هو الوسيلة لدعوة المصلين لأداء فرائضهم الخمس .

بجوار المسجد يقوم قصر السلطان وكان يسمى « استانة كامبونج جلام » وتدخله من احدى بوابتين رئيسيتين ، القصر يقيم فيه الآن بعض أحفاد السلطان وحريمه ، وهم لا يحبون لقاء الزوار ، ولا تغادر سيداته القصر القديم ، حتى أن الحديقة الواسعة أصبحت الآن مهملة على الرغم من ثراء أشجارها التي تنبيء بما كان عليه القصر من فخامة في عهد مضى . حول المسجد وفي الطرقات المحيطة يعيش خليط من العرب والأندونيسيين والملاويين والهنود المسلمين . الملفت للنظر هنا أن المسلمين في سنغافورة بعيدون عن مظاهر الفقر والإهمال التي يعاني منها المسلمون في الدول غير الاسلامية في جنوب شرق آسيا .

ولكنهم في كل ذلك يعتمدون على الجهود الذاتية في مسيرة حياتهم ، وحماية معتقداتهم والمحافظة على تقاليدهم وتأمين مستقبلهم المادي والروحي ، وحين تتحدث اليهم تدرك أن ثمة شخصيات إسلامية بارزة لعبت دورا كبيرا في تطوير أحوال المسلمين والنهوض بهم وسط خضم من أصحاب المعتقدات غير السماوية ، والاتجاهات العدائية المناهضة لانتشار دعوتهم ، أشهر هذه الأسماء عبدالرحمن باجنيد آل جنيد الذي جاء من حضرموت واستطاع أن يحتل مركزا تجاريا كبيرا ، ثم أقام مدرسة أهلية لتعليم اللغة العربية والمنهج الاسلامي ، ويتلقى التعليم فيها أكثر من ثلاثمائة طالب في مراحل الابتدائي والمتوسط والثانوي ، ويؤهل الخريجون لتلقي دراساتهم العليا في الأزهر والمملكة العربية السعودية والكويت .

مزرعة التماسيح

في نهاية شارع سيرانجون الرئيسي وجدنا أنفسنا أمام « مزرعة التماسيح » احدى أشهر مزارع التماسيح في جنوب شرق اسيا . هنا يجري عرض شبه يومي يجتذب مئات الزوار لمشاهدة الرجل الذي يحيط عنقه بتعويذة ، ويؤدي صلاة أمام تمثال بوذا قبل أن يتجه الى حافة الموت ، ويخترق الخط الفاصل بين الأمان والخطر ، ذلك أن عمله الرسمي هو اطعام التماسيح الضارية وملاعبتها وتحديها أمام الزائرين .

استقدمت تماسيح المزرعة في البداية من اندونيسيا حيث يقوم الصيادون المتخصصون بصيدها في الليالي غير المقمرة حين تستلقي التماسيح على جوانب الأنهار والبحيرات ، ثم تنقل الى المزرعة في سنغافورة . وتجري تغذية التماسيح بالروبيان والاسماك واللحم ورئات الخنازير ، وعلى الرغم من أن بداية انشاء المزرعة كان يستهدف انشاء واحدة من ضمن الحدائق المتخصصة المتنوعة لمتعة المشاهدين ، إلا أنها سرعان ما اتخذت صبغة تجارية ، وتدفق السياح الغربيون لمشاهدتها في أحواضها التي أقيمت متباينة حسب البيئة التي استقدمت منها

التماسيح ، وتنحصر هذه البيئة في ثلاثة أنواع إذ أن بعضها يعيش في البحيرات والأحواض المائية والقنوات والمستنقعات ، وهناك أنواع تعيش في المياه المالحة المعروفة علميا باسم « بروسلس » كما أن هناك تماسيح المياه العذبة « سيامنسلس » والتماسيح المعروفة شعبيا باسم « الغريال » وعلميا باسم « توستا شليغيلي » .

ولأن الانسان ـ في سعيه الى مباهج الحياة ـ بدأ يستغل جلودها في صناعات كثيرة ، فقد تحولت المزرعة لتكون المورد الرئيسي للصناعات المرتبطة بجلود التماسيح . وأقيم مصنع خاص مع قاعة كبيرة لعرض هذه المشغولات التي تتضمن الحقائب النسائية والأحذية والأحزمة . وفي مكتب مدير المزرعة نجد الرجل غارقا بين المحاليل والمواد الكيميائية المستخدمة في تجفيف الجلود ودباغتها ، وحوله عدد كبير من الفتيات المشتغلات بهذه الصناعة ، وهن يجهزن الطرود التي تصدر الى مختلف الأسواق العالمية .

فوق تل القصدير

الآن .. نحتاج الى شيء من الراحة والمتعة والاستجمام ، ونستطيع أن نجد ذلك في إحدى أشهر معالم سنغافورة ، غابة تل القصدير ، التي وصلنا اليها بعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة من قلب المدينة .

هناك تذكرنا ما قرأناه عن عالم الطبيعيات « الفريد رسل ولاس » الذي قال منذ أكثر من مائة وعشرين سنة وهو يتحدث عن مغامراته في الغابة المحيطة بتل القصدير والتي تسمى « بوكيت تيما » : ضرب سمعنا زئير النمور مرة أو مرتين في المساء بينما كنا نصطاد الفراشات الملونة بين سيقان الأشجار المستلقية في الغابة . وغير بعيد منا يستعد ذلك الحيوان المفترس في انتظار فرصة لينقض علينا » .

نحن إذن نسير في الغابة المليئة بالنمور .. ! ولكن هذه النمور لم يعد باقيا منها شيء الآن ، وكانت في الفترات الماضية تفترس شخصاً على الأقل كل يوم ، وخلال عشر سنوات منذ ١٨٦٠ بلغ عدد ضحايا النمور سنويا بين خمسين ومائة رجل من مرتادي التل والمشتغلين على سفوحه ، مما جعل الحكومة ترصد جائزة قدرها مائة دولار لكل من يقتل نمرا ، وكان من حظنا أن جئنا بعد أن قضى الصيادون على كل نمور الغابة .

في ذلك الوقت كان « تل القصدير » المغطى بالأشجار والنباتات المتسلقة مرتعا لملايين الفراشات التي تجتذب جامعي ذلك النوع من الحشرات الرائعة الالوان التي لا يوجد مثلها في أي مكان في العالم ، الآن ما تزال هناك ملايين من هذه الفراشات التي يبلغ حجم بعضها ما يقرب من عصفور صغير ، ويمكن صيدها بسهولة دون خوف من النمور وأشباحها .. !

تل القصدير يكاد يكون المكان الوحيد الذي ما تزال تمثل فيه الغابة شكلها الطبيعي ، فقد أصبح منذ عام ١٩٥١ محمية طبيعية كاملة ، دون أن يمنع ذلك من شق طرقات وإقامة مشاريع سياحية على جوانب سفوحه . الغابة قائمة على تل من صخور الجرانيت يصل ارتفاعه الى ١٦٠ مترا . وهي متجمع ومتنزه لأبناء الجزيرة في عطلاتهم حيث تمتلىء طرقات الغابة بالأسر والأبناء والطلاب وهم يتسلقون الصخور ويرتمون بألعابهم ويتناولون طعامهم الذي يأتون به باردا ومحفوظا دون أن يشعلوا نارا حتى يحافظوا على الغابة وسلامتها ونظافتها ، وحتى لا تمتد النيران الى الأشجار الاستوائية الضخمة التي يبلغ عمر بعضها مئات السنين على الرغم من سقوط بعضها على جوانب الغابة واللجوء الى تقطيع سيقانها وإبقائها في أماكنها لتكون مرتعا للفراشات والنمال ، وأعشاشا ومأوى لبعض الحيوانات الصغيرة مثل الفئران والسناجب والأرانب البرية . ولكن اذا أراد أحد الزوار أن يشهد الحياة الوحشية في الغابة







● مسجد السلطان أحد مساجد سنغافورة (إلى أعلى) ومسجد في عاصمة الفلبين (إلى اليمين). بينما في الصور الثلاث بأقصى اليمين تبدو المفارقة بين القديم والجديد في العمارة، والشارع الرئيسي [illegible] العصري ومزرعة التبغ إحدى أشهر المزارع المنتشرة في جنوب شرق آسيا

فإن أحسن الأوقات لذلك هو الصباح المبكر أو قبيل الغروب ، ففي تلك الأوقات يمكن مشاهدة الأصلة والثعابين والزواحف الضخمة ، كما يمكن رؤية حيوانات الليمور من فصيلة القردة طويلة الذيل وهي تتقافز بين أغصان الأشجار وكأنها ثعالب طائرة .

قفزة اقتصادية هائلة

الأشجار والخضرة هي بعض مصادر الصناعة والزراعة والاقتصاد في سنغافورة وعلى الرغم من أن أقل من ربع مساحة الأراضي تحت الاستصلاح ، إلا أن الرقعة الزراعية وما تنتجه من فواكه وخضراوات ومطاط تمثل حوالي ٣٪ من الانتاج العام . ومع أن سنغافورة ليست دولة منتجة للبترول الا أن البترول يلعب دورا هاما في اقتصادها حيث يوجد لديها ثالث أكبر مجمع لتكرير البترول في العالم . كما أن هناك حوضا كبيرا لاصلاح السفن .

وسنغافورة من الأمثلة الحية على مواجهة الفقر عن طريق البناء الصناعي ، فقد نجحت في اقامة مجتمع خال من الفقر . واستطاع الاقتصاد السنغافوري أخيرا وخاصة منذ ١٩٨٧ أن يختط مسارا صحيحا متميزا . وما حققته البلاد في معدل النمو الذي بلغ ٧,٣٪ في النصف الأول من ذلك العام تجاوز كل التقديرات الحذرة .

القراصنة الجدد

أدركنا مدى الازدهار الاقتصادي في سنغافورة من خلال وجوه أبناء الشعب المتفتحة المتفائلة المستبشرة ، ومن الحركة الدائبة في المحلات التجارية المتخمة بالمنتجات الصناعية

والزراعية بالاضافة الى زخم السائحين الذين يملأون الشوارع والأسواق والفنادق والمعالم السياحية في كل مكان . كما يبرز ذلك لمن يتابع حركة الترانزيت الجوي والبحري الواضحة من المطار الضخم البالغ الاناقة والنظافة ، العامر بالمغادرين والقادمين من جميع أنحاء العالم الذين يعدون بعشرات الآلاف كل يوم . ويبدو لنا التطور من خلال حركة البواخر والسفن وأعمال الشحن والتفريغ المتواصلة في الميناء الكبير الذي أصبح يتفوق على ميناء روتردام ، أكبر الموانىء ازدحاما في العالم .

ولعل ازدهار حركة الشحن والنقل بالسفن كانت وراء تعرضها لبعض السلبيات من خلال قراصنة من نوع جديد ، أغرتهم الزيادة الكبيرة في البضائع وهي تمر أمام شواطىء سنغافورة . سمعنا هذا من أحد مسؤولي الشحن في الميناء . قال ان القراصنة الجدد غيروا أساليب أسلافهم السابقين ، فهم لا يهاجمون السفن الكبيرة العابرة للقارات ، ولكنهم يهاجمون السفن الصغيرة المليئة بالواردات ، وبدلا من استخدام المدافع والبنادق أصبحوا يستخدمون السكاكين والمدى لتهديد بحارة السفن وعمالها كي يستولوا على كل ما هو ثمين من البضائع أو الأموال من شحناتها . بل إن بعض هؤلاء القراصنة لا يمتنعون عن مهاجمة البواخر الكبيرة بما فيها ناقلات البترول واحتجاز قباطنتها تحت تهديد السلاح مما جعل الشرطة والقوات البحرية تكثف دورياتها جنوب سنغافورة ، وقرب جزر باتام الاندونيسية لتوفير الأمان للسفن العابرة للمحيطات .

بصرف النظر عن هذه السلبيات فإن النمو الاقتصادي يتضح في انتعاش القطاع المالي والمصرفي الذي تخلص من العثرة المؤقتة التي مر بها في بداية ١٩٨٦ مع ظهور انجازات القطاعين التي حققت الفضل الناتج بنسبة تتجاوز ٦٥٪ عنها في الفترات السابقة ، بالاضافة الى الموارد الضخمة التي بدأ القطاع السياحي يضخها من خلال النشاط الواسع لاجتذاب السائحين من جميع أنحاء العالم ، بما يقدم من انجازات وتسهيلات ، وتطوير للمعالم

السياحية والفندقية والثقافية والفنية في البلاد .

استطعنا متابعة معالم الازدهار الاقتصادي ونحن نخترق المركز الرئيسي الحديث للمدينة الذي يسمى « اوركارد رود » فلقد تجاوزت شهرته شهرة الشانزليزيه في باريس ، والشارع الخامس في نيويورك . واكسفورد في لندن . على الجانبين ناطحات السحاب بفنادقها الفاخرة وأضوائها المشعة ، وبمسارحها ودور السينما فيها ، وبمعارضها الفنية ، والأهم من ذلك مجمعاتها الضخمة الحديثة ذات الطوابق التي يصل أكثرها الى عشرة طوابق ، عامرة كلها بالمنتجات المحلية والمستوردة ، حيث يباع كل شيء بأرخص الأسعار ، في محلاتها التي يتجاوز عددها ألف محل ، كما شهدنا في أسواق « لاكي بلازا » و « تانجلين » و « منجاتونج » . ولا تقتصر المحلات على البضائع المعروضة للبيع ، فهناك أيضا ملاعب للأطفال وحدائق داخلية وساحات للراحة ونافورات ومطاعم للبيتزا الكنتاكي والهامبورجر ، وكافتيريات بل ومعارض للسيارات ، ومكاتب للسياحة والسفر والتصوير .

أنظف مدن العالم

ومن أجل مزيد من جعل المدينة قمة لا مثيل لها من قمم الفخامة والنظافة والأناقة والتنظيم بين مدن العالم الكبرى ، صدرت قوانين صارمة لمعاقبة كل من يسيء الى الصورة المتألقة للمدينة ، وأقامت الحكومة « خطا ساخنا » لتلقي شكاوى الجمهور ضد المؤسسات التجارية والمطاعم التي تتسبب في وجود أي نفايات أو مخلفات سواء في داخلها أو خارجها . ويواجه المخالفون أحكاما تفرض غرامات باهظة يمكن أن تصل الى إغلاق المؤسسة بضعة أيام مع التنديد علنا بمخالفاتهم .

وقد اتخذت حكومة « لي كوان يو » اجراءات حازمة يقابلها حوافز تشجيعية لدفع الجماهير الى التصرف بانضباط وبروح من المسئولية . في مجالات التطور والصحة والنظافة ، وقد أدت الحملات الدعائية المستمرة الى امتناع أغلبية الناس عن التدخين والقاء المهملات خارج البيوت أو على الارصفة ، كما اهتمت بتوعيتهم لتنظيم النسل سواء بالاكثار أو الاقلال من الانجاب طبقا للظروف ، ويدخل في ذلك تخفيض الضرائب عن المستجيبين للدعوات التنظيمية . وأكثر ما لفت نظرنا بعد أن أثارت مرافقتنا انتباهنا أن السلطات قد وضعت كاميرات فيديو خفية داخل مصاعد المباني من أجل الحفاظ على نظافة العمارات السكنية ، وتتصل هذه الكاميرات بأجهزة الكترونية تؤدي الى توقف المصاعد اذا ارتكب أحد مخالفة للنظافة بداخلها مع ضبط المخالفين بالصوت والصورة وخاصة أن هذه الأجهزة حساسة جدا لمياه التبول بالذات . وفي حالة حدوث ذلك فإن المخالف يظل محبوسا داخل المصعد دون أن يفتح بابه حتى حضور مسئول يفتح له الباب بعد أن يحصل منه الغرامة التي بدأ تطبيقها ابتداء من يونيو الماضي ، وهي تصل الى ألف دولار سنغافوري (٥٠٠ دولار أمريكي) ، وتتضاعف الغرامة لمن تتكرر منه المخالفة وكذلك لمن ينسى تشغيل آلة التنظيف في المراحيض العامة حيث يقوم مسؤولون من دائرة الصحة بالتفتيش على الحمامات العامة للتأكد من نظافتها كما يتم تكليف صحفيين بالقيام بجولات مستمرة لاكتشاف دورات المياه البعيدة عن النظافة حيث توضع في « قائمة العار » التي تنشر علنا في الصحف كما يعلن أسماء الأفراد الذين يتسببون في قذارة الحمامات في القائمة السوداء .

إن سنغافورة تصر على الاحتفاظ بصورتها المتألقة كمدينة تمثل المرتبة الأولى في العالم من حيث النظافة والأناقة وهي تسعى جاهدة لتصبح مركزا ماليا وحضاريا رئيسيا في اسيا يتحدث عنه الجميع . □



«الصوبة»

هل تتحول صحارانا إلى جنات خضراء؟

بقلم : مجدي نصيف

«الصوبة» تعني زيادة درجة حرارة الجو الناتجة عن التركيزات المتزايدة لغازات معينة في الغلاف الأرضي ، ويناقش الكاتب الآثار المحتملة لمثل هذه التركيزات على مستقبل الأرض والبشر .

الجفاف الشديد الذي أصاب الغرب الأوسط للولايات المتحدة الأمريكية أخيراً ، أفزع علماء عديدين ، وأدى إلى ظهور تقارير مثيرة في وسائل الإعلام عن فوضى عالمية وشيكة . وقد أثار هذا الاهتمام غير العادي الصلة الممكنة بين الجفاف وبين تأثير «الصوبة»[1] ، وهو اللفظ الذي يطلق الآن على زيادة درجة حرارة الجو الناتجة عن التركيزات المتزايدة لغازات مثل ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوى لكرتنا الأرضية . وخمن العلماء وجود هذه الصلة منذ سنوات .

بينما كانت وسائل الإعلام تنشر التقارير المفصلة عن جفاف الغرب الأوسط الأمريكي ، كان هناك مؤتمر دولي يعقد في تورنتو بكندا ،

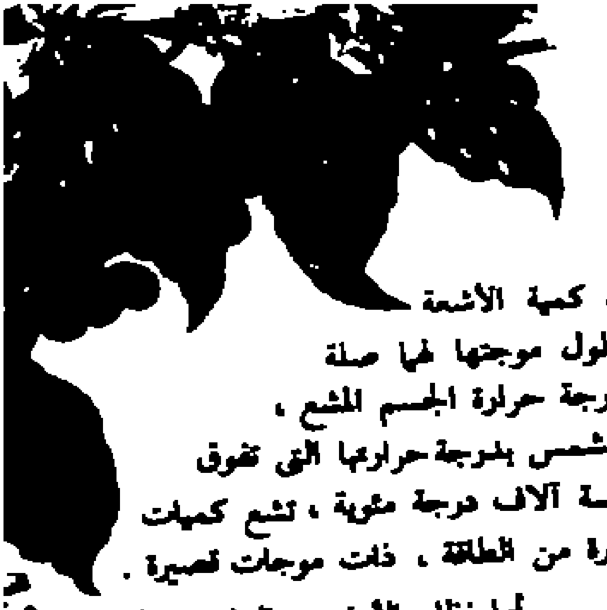
(١) هذه ترجمتنا لكلمة Green House Effect التي جاء ذكرها كثيرا في الآونة الأخيرة . و «الصوبة» بناء زجاجي لتربية النباتات دون التأثر بالعوامل الجوية غير المناسبة .

لمناقشة تأثير المتغيرات الكيميائية في الغلاف الجوي ، فكانت صدفة غريبة ، وعلى أي حال كان عام ١٩٨٧ ذا أثر ملحوظ في « المناظرة » الدائرة حول تأثير « الصوبة » ، إذ حدث تحول كبير في الاجماع العلمي ، فهناك الآن اقتناع ـ متفق عليه ـ أنه مالم تتخذ إجراءات وقائية ، فإننا في سبيلنا إلى عالم جديد ، يتغير فيه طقس كرتنا الأرضية بطريقة لايمكننا التنبؤ بها ، ولا التحكم فيها .

حماية بني البشر

يحمي البشرية من أشعة الشمس الحارقة ، غطاء الهواء العميق الذي نسميه « الغلاف الجوى » ، وحقيقة الأمر أن هذا الغلاف وراء استمرار معيشة البشرية على سطح الأرض ، وتقل كثافة هذا الغطاء تدريجيا بالارتفاع ، فتوجد حوالي ٨٠٪ من كتلة الغلاف الجوي في النطاق الملاصق تماما لسطح الأرض (التروبوسفير) ، وتوجد قمة « التروبوسفير » على ارتفاع حوالي عشرة كيلومترات عند القطبين ، وعلى ارتفاع حوالي خمسة عشر كيلومترا فوق خط الاستواء ، وتقل درجة الحرارة مع الارتفاع فيها بعد ذلك .

وحين تمر أشعة الشمس خلال طبقة « الستراتوسفير » العليا ، وطبقة « التروبوسفير » التي تحتها ، الملاصقة لسطح الكرة الأرضية ، تمتص وتتناثر وتنعكس ، فلا يصل إلى سطح الأرض أكثر من ٥٤٪ فقط من الأشعة الساقطة على قمة الغلاف الجوي . ويعكس نظام الأرض « الغلاف الجوي » الطاقة مرة أخرى إلى الفضاء ، وتحدث عملية « الإرسال » « والاستقبال » من خلال توازن دقيق للكرة الأرضية بمعنى أن كمية الأشعة « الواردة » ، لابد أن تساوى كمية الأشعة « الصادرة » ، وذلك على مدى فترة زمنية طويلة ، سنة مثلاً .



إن كمية الأشعة وطول موجتها لها صلة بدرجة حرارة الجسم المشع ، فالشمس بدرجة حرارتها التي تفوق خمسة آلاف درجة مئوية ، تشع كميات كبيرة من الطاقة ، ذات موجات قصيرة . أما نظام الأرض « الغلاف الجوى » الأكثر بردا من الشمس ، فيشع كميات أقل من الأشعة ذات الموجات الأطول . وهذا الاختلاف في طول الموجات المشعة ، ذو أثر مهم في فهم تأثير « الصوبة » . فالغازات المسئولة أساسا عن امتصاص الأشعة في الغلاف الجوى ، هي بخار الماء وثاني أكسيد الكربون ، ثم الأوزون بدرجة أقل . ولا تمتص تلك الغازات بطريقة منتظمة عبر « الطيف » كله ، لكنها تمتص اختياريا عند حزم طيفية معينة ، وعلى وجه الخصوص عند أطول الموجات .

والسؤال الذي طرحه العلماء في السنوات الأخيرة هو : ما نتيجة زيادة التركيز في طبقة « التروبوسفير » لغاز يمتص ـ اختياريا ـ لأشعة ذات موجات طويلة ، وهو شفاف لا يمتص الأشعة ذات الموجات القصيرة التي تصل من الشمس ؟

الإجابة : إننا سنتلقى كمية الطاقة نفسها من الشمس ، غير أن نسبة الأشعة ذات الموجات الطويلة الصادرة عن سطح الأرض والتي تمتص في الجزء الأسفل من طبقة « التروبوسفير » بواسطة غازات « الصوبة » ستزداد ، ويسبب ذلك ارتفاعاً في درجة حرارة الجزء الأسفل من « التروبوسفير » ويؤدى بدوره إلى زيادة قدر الإشعاع المنبعث ، وفي نهاية الأمر

يحدث اتزان جديد بين الإشعاع الممتص، والإشعاع المنبعث لكن عند درجة حرارة أعلى .

وهذا هو « تأثير الصوبة » . .

نشاط بشري مدمر !

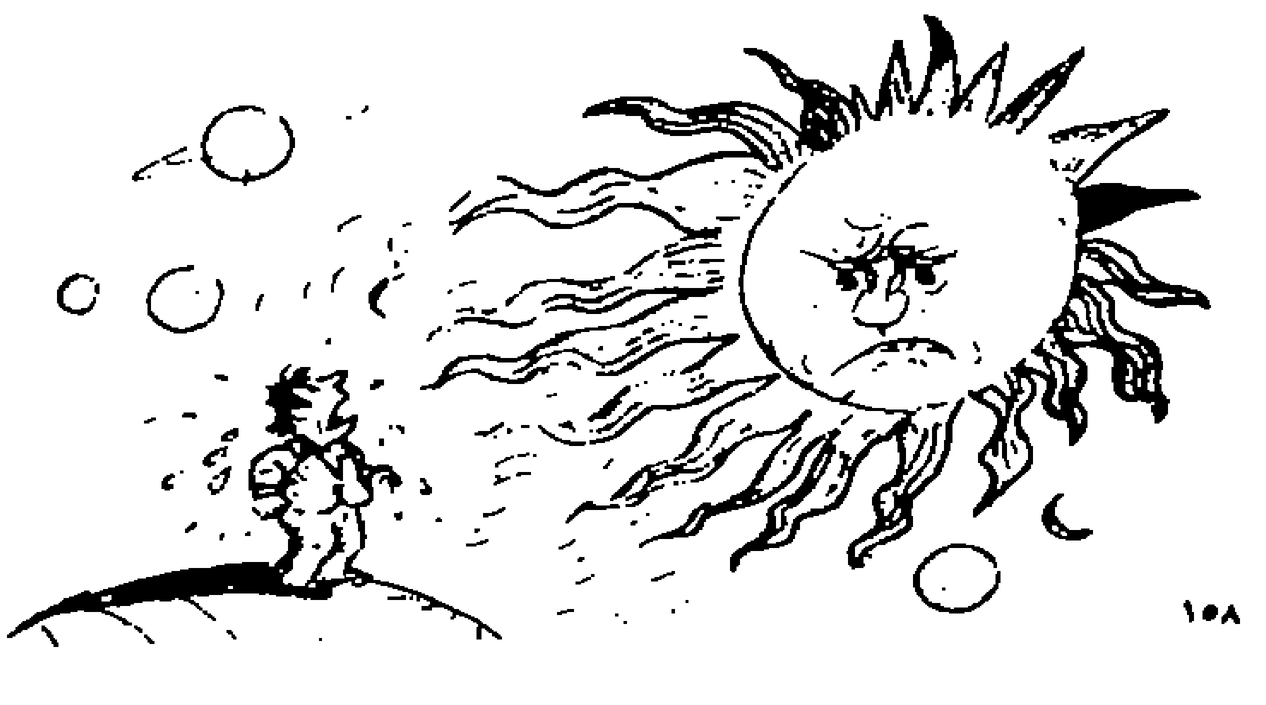
يزداد تركيز غازات بعينها في هذه « الصوبة » في الغلاف الجوي ، بسبب نشاطات البشرية ، وربما كان ثاني أكسيد الكربون أكثر هذه الغازات شهرة . والمتهم هنا الدول الصناعية المتقدمة ، فهي المسئولة عن الكم الأعظم من هذا الغاز ، والأرقام هي دليل الاتهام ، فقبل الثورة الصناعية ، كان تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي حوالي ٢٩٠ جزءا من المليون .

ويصل التركيز في يومنا هذا إلى ٣٤٥ جزءا ، وهي زيادة تقدر بـ ٢٠٪ ، وهناك إجماع علمي على أنه سيتضاعف إلى ٥٨٠ جزءا في منتصف القرن القادم . وتأتي المساهمة الرئيسية في زيادة التركيز هذه ، والناتجة عن نشاط البشر ، من احتراق الوقود « الحفري » في العمليات الصناعية ومحركات السيارات وتوليد الطاقة ، ومن التفاعلات الكيميائية الناتجة عن صناعة الأسمنت ، فهذه العمليات مجتمعة ، تنتج الآن مايربو على ٥,٥ (خمسة بلايين ونصف بليون) من ثاني أكسيد الكربون كل عام في « الغلاف الجوي » للأرض ، ويعكس توزيع البلاد المسئولة عن هذه الغازات التغيرات في نمط التصنيع ، ففي عام ١٩٥٠ صدر من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية معا أكثر من ٦٨٪ من كل ثاني أكسيد الكربون ، وانخفضت تلك النسبة في عام ١٩٨٠ إلى ٤٣٪ من مجموع أكبر بكثير . وخلال الفترة نفسها ازدادت كمية الغاز الصادرة من الدول النامية من ٧٪ إلى ٢٠٪ ، حيث تطلعت تلك البلدان إلى مثيل التصنيع الذي قدمته الدول الصناعية المتقدمة .

بالإضافة إلى هذا ، فإن إزالة الغابات ، والتغييرات التي تحدث في الأراضي مصادر مهمة لثاني أكسيد الكربون المتسبب عن نشاطات بشرية على الرغم من شدة صعوبة تقدير كمية مساهمتها .

يساهم ثاني أكسيد الكربون حاليا بمقدار ٥٥٪ من تأثير « الصوبة » المتزايد . وهناك غازات « صوبة » أخرى يتزايد تركيزها ، مثل غازات « الميثان » وغازات « أكسيد النيتروز » الناتجة عن الزراعة المكثفة ، والكلوروفلوركربون ، وهي غازات تستخدم في التبريد .

ويتفق العلماء عامة الآن على التأثيرات الطقسية الأساسية التي تحدثها مضاعفة تركيز



غازات « الصوبة » . فمن المتوقع أن تزيد درجة الحرارة على الكرة الأرضية بين درجة ونصف درجة مئوية ، وأربع درجات ونصف درجة مئوية . لكنها قد تصل إلى ثماني درجات مئوية عند القطبين ، وعند القطب الشمالي على وجه الخصوص . ومتوسط هذه الزيادات هو متوسط الزيادة نفسه الذي حدث منذ « العصر الجليدي » الذي مرت به كرتنا الأرضية ، ومن المتوقع أن يزداد هطول المطر على اتساع كرتنا الأرضية ويتوقع أن تكون الزيادة أكثر . عند خطوط العرض المتوسطة ، بينما تقل في هطول الأمطار عند المناطق الاستوائية وما بعدها .

ولا يتوقع العلماء أن تحدث تلك التغيرات تدريجيا ، بل على العكس ، فهم يتوقعون تغيرا سريعا من حالة إلى أخرى ، بمثل ما يكون عليه الانتقال من موسم الشتاء إلى موسم الصيف في أحيان كثيرة . وليس هناك ـ غير تلك التوقعات ـ أي اتفاق بين العلماء يساعدنا على تقييم المتضمنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكل ما يمكننا قوله هو أن الآثار الإقليمية ستكون حادة .

فإذا أخذنا في الاعتبار عدم كفاية التنبؤات ، فما الذي يمكن قوله عن صدمة « تأثير الصوبة » ؟

إن أكثر الملامح أهمية دون شك هي أن العلماء لا يعرفون إطلاقاً شيئا عن المكان الذي ستحدث فيه تغيرات الطقس ، ولا عن طبيعتها ، ولا عن شدتها .

لكن الذي لاشك فيه ، أن الآثار الأساسية ستنصب على الزراعة . وكل ما يقال في هذا المجال مجرد تخمينات بطبيعة الحال .

فقد يحل محل المناطق المنتجة للحبوب في العالم الآن مناطق جديدة ، تفضلها النظم الحرارية لعالم تزداد فيه كثافة غازات « الصوبة » . ولا يمكننا أن نحدد بالضبط أين ستكون هذه المناطق الجديدة ، ولا متى ستحدث تلك التغيرات .

تنبؤات سياسية :

لكن هذا لا يمنع العلماء من إجراء عمليات إسقاط على المستقبل ولنتأمل ـ على سبيل المثال ـ ما يعنيه زوال المناطق الحالية المفضلة مناخيا . فلو حدث تغير مناخي ، فقد ينتهي النفوذ السياسي للبلدان الغربية التي تحقق فائضا كبيرا من الحبوب فتتاجر به في السوق العالمي ، وتستخدمه سلاحاً سياسياً للضغط على الدول النامية . وقد تحدث « هجرات » سكانية ضخمة باتجاه المناطق الخصبة الجديدة ، عبر الحدود الدولية ، وما يعقب ذلك من مؤتمرات دولية واتفاقيات . وستضاعف تلك الآثار زيادة منسوب المياه في البحار والمحيطات الناتجة عن ذوبان جليد القطبين (بسبب ارتفاع درجة الحرارة) وعن التمدد الحراري لمياه البحار .

وإذا صحت التنبؤات العلمية ، فإن المناطق الخصبة الجديدة ستكون في خطوط العرض المتوسطة الرطبة ، أي حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومنغوليا . ومعنى هذا أن تتحول الصحراء الكبرى إلى سلة غذاء ، وهنا يراودني خاطر : هل تسمح القوى الغربية أن يحدث هذا التحول لصالحها ، أم أن الهجرات السكانية المتوقعة ستحدث بالقوة ، فنشهد عصر استعمار جديد إبان عصر التقنية المتقدمة ؟

ووسائل الإعلام الغربية تميل إلى تقديم الآثار السلبية فقط « لتأثير الصوبة » ، وقد يكون السبب إدراك الغرب أنه الخاسر الأول في تغير المناخ على الرغم من أنه سيحدث توازناً جديداً . وزيادة على ذلك ، ظهر أن زيادة تركيز غازات ثاني أكسيد الكربون ـ في ظروف معملية ـ له تأثير « فسيولوجي » مباشر على النباتات ، ونتيجة هذا زيادة الانتاج في الوقت نفسه الذي يقلل فيه من احتياج النبات إلى الماء . وإذا كانت قد ثبتت صحة هذا في الظروف المعملية ، فقد تستمر هذه الآثار في الظروف الحقلية .

بنية جديدة

والسؤال الأخير خاص بانبعاث غازات « الصوبة » في المستقبل . ونبدأ بقبول مقولة أنه بتغير التركيب الكيميائي للغلاف الجوى لكوكبنا ، سيحدث تغير أساسي في بيئتنا ، فهل يمكننا أن نعكس هذا الاتجاه إذا ما رغبنا في ذلك ؟

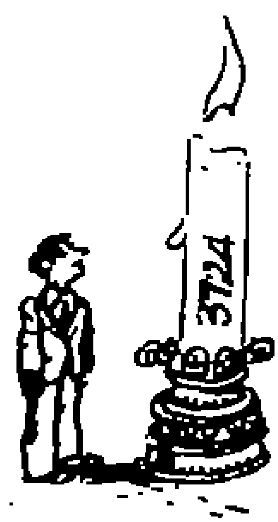
الحقيقة أن المشكلة ليست بالسهولة ولا بالبساطة التي تبدو بها ، فهناك فترة زمنية فاصلة بين زيادة تركيز غازات « الصوبة » وبين استجابة النظام الطقسي لذلك التغير الجديد .

فإذا افترضنا أنه حدث تعاون دولي (غير مسبوق) - استجابة لنداءات تتعالى الآن - لإيقاف انبعاث تلك الغازات غدا ، فسيستمر الجو يدفأ عقودا قادمة ، قبل أن يحدث توازن جديد . ولنتذكر أن ما يحدث الآن من تغير مناخي ما هو إلا استجابة للتغيرات التي حدثت في تركيز الغازات بسبب « الثورة الصناعية » التي بدأت في بريطانيا منذ مايربو على مائتي عام .

لكن أكثر التصرفات إيجابية - لو كانت « البشرية » عاقلة تريد مصلحة جنسها - هو تغير أنماط استهلاك الطاقة ، وتقع هذه المسئولية على عاتق العالم الصناعي المتقدم . لكن هذا معناه التحول عن استخدام الوقود الحفري إلى مصادر أخرى متجددة ، وما يعنيه هذا من تأثير على الأقطار العربية المنتجة للنفط . وعلى أي حال مازال الحديث عن بدائل الطاقة بعيدا ، وخاصة أن المولدات النووية للطاقة - وهي البديل الأساسي لاستخدام النفط لأنها لا تخرج غازات « صوبة » - مازالت تخلق مشاكل بيئية أخرى أخطر على البشرية . لكن هناك أحاديث حول بدائل لاتشكل خطورة ، منها طاقة الرياح التي يمكن أن توفر ٢٠٪ من متطلبات الطاقة في بريطانيا على سبيل المثال ، وبتكاليف تكاد تساوي تكاليف مصادر الطاقة التقليدية . وعموما فإن التأثير سيكون على المدى الطويل . ووسط الصراع السياسي الدائر الآن ، فإن الحكومات نادرا ما تتحمس لاتخاذ إجراءات مكلفة لن يشعر بها الناخب ، بل تشعر بها أجيال قادمة .

والخلاصة : يبدو أنه من المحتم أن يؤدي تأثير « الصوبة » إلى اثار بيئية قاسية ، وأنه إذا كان معدل التغيرات بطيئا فإن لدى البشرية من الخلق ما يجعلها تتأقلم دون معاناة كبيرة . على أنه ليست لدينا فكرة تامة عما يكنه لنا المستقبل ، سوى أن التغيرات ستحدث فجأة ، ودون إنذار . □

شمعة تعيش ١٨٠٠ سنة

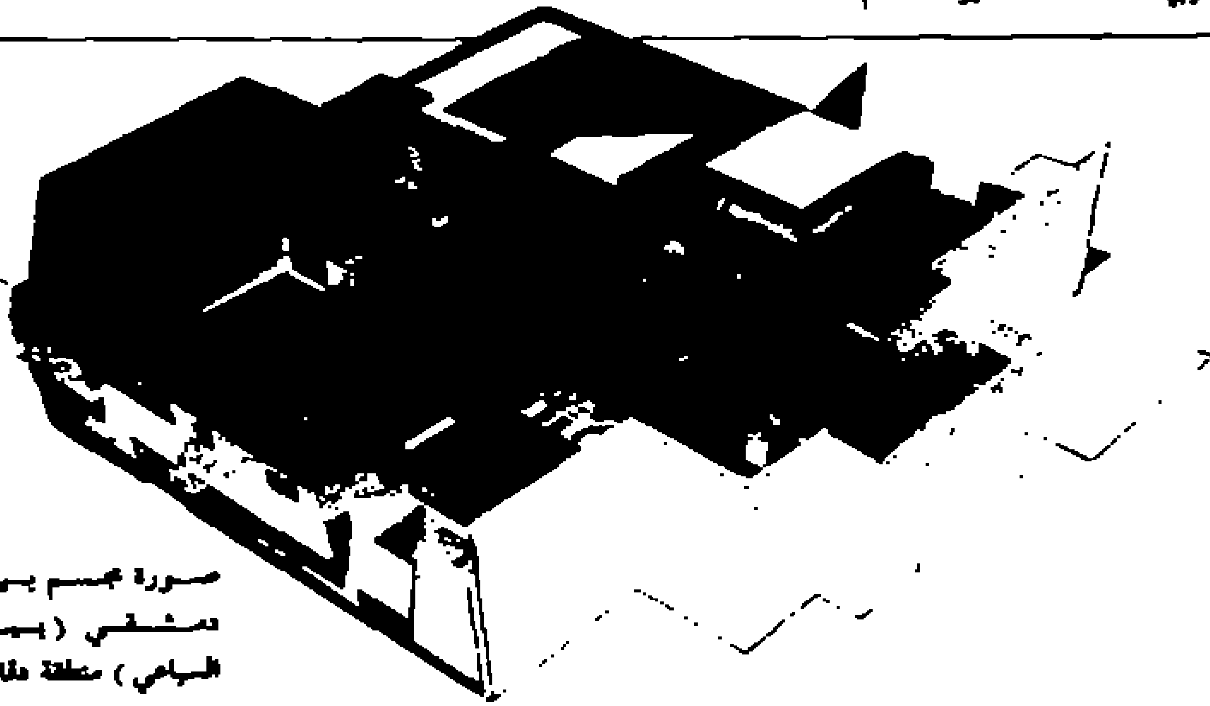


● كان كاروزو نابغة ايطاليا في فن الغناء . وقد توفي سنة ١٩٢٩ ، ودفن في ايطاليا . وقد عمد أحد صناع الشمع إلى إحياء ذكراه بما يشبه التخليد أو يقاربه ، فصنع شمعة ضخمة ، وضعها عند ضريحه . وتقدر حياة هذه الشمعة بنحو ١٨٠٠ سنة ، أي أنها لن تنطفىء إلا في سنة ٣٧٢٤ .

البيت العربي

مجلة الأسرة والمجتمع





صورة مجسم بيت دمشقي (بيت السباعي) منطقة مقالين شاغور

البيت الدمشقي ونظرة عبر الماضي

بقلم : محمد غسان خير*

دمشق القديمة ، درة من درر الشرق ، وصفحة مشرقة لماض عريق ، وهي تحفة فنية ذات نسيج عمراني بديع ، معبر عن حياة اجتماعية مترفة كانت تعيشها العاصمة الأموية القديمة فيما مضى من سنين .

حبا الخالق دمشق بجمال الطبيعة ، فترعرعت في واحة خضراء ، تحفها الغوطة من الشرق والجنوب الشرقي ، حاجزة إياها عن البادية ، يخترقها نهر بردى وفروعه السبعة ليزيد خضرتها بهجة وإشراقا . تربو عليها من الغرب سلسلة جبال لبنان الشرقية ، ويكللها من الشمال جبل قاسيون ، إذا شهدها المرء فسيدهش لمعالم سورها وأزقتها وأسواقها ، وخاناتها ومساجدها وقصورها وحماماتها . . الخ ، وبين هذا وذاك تتكىء على جدرانها الصماء دور دمشق العتيقة .

لكن لابد هنا من الإشارة إلى أن هذه المعالم جلها أماكن عامة ، يمكن مشاهدتها للداني والقاصي الذي يعز علينا ـ نحن أبناؤ ما ـ أن

* كاتب من القطر العربي السوري

تفصح له عن لبنة نسيجها الحضري التقليدي ، ألا وهو البيت الدمشقي بخصوصيته الذي يزدهر به سحر هذه المدينة العامرة وطابعها ، فمعظم دورها التقليدية ترجع إلى العهد العثماني .

بيوت محجبة :

بيوت دمشق كالنساء محجبات ، تعبر الأزقة من خلال البحبوحة الخارجية . فعلى حين نجد النساء في الشرق ـ وجوههن مغطاة بقطعة من الموصلين السميك ـ أخصارهن غارقة مستترة بمعاطفهن الفضفاضة ، وأرجلهن مسترسلة في أحذيتها العالية ، وداخل هذا الغطاء تتشابه أبشع امرأة بأجمل امرأة ، كذلك نجد بيوت دمشق ، فالدور والقصور لها نفس الشكل الخارجي المتواضع ، وخلف جدرانها البائسة نجد منازلها الأنيقة تفيض بالجمال .

القسم الأكثر رونقاً داخل بيوت دمشق يتكون من باحة داخلية رحبة مكشوفة تفضي إلى زقاق عبر ممشى ضيق ، منخفض السقف ومقنطر ، ينكسر طرفه باستحياء ليحجب النظر عن الداخل .

فالباحة تشكل أرضية الديار المرصوفة المتألقة التي تتوسطها بحرة بارزة أو بركة ماء يأتيها الماء من طالع ، أي أن المياه تصل إلى البيت من أحد فروع بردى حيث تتوزع إلى مختلف مرافقه ، فتدور دورتها من البركة إلى الفسقيات في غرف الاستقبال ، ثم تتجه إلى بحرة المطبخ لتستخدم مياهها من خلال المرافق الصحية الأخرى ، ومن ثم إلى المجرى العام .

وغالبا ما تكون بحرة الديار هذه مكسوة بالحجر المجلو أو بقطع الرخام المتعددة الألوان والمنتظمة بابتكار الفسيفساء ، لينصب الماء فيها عبر أربع نوافير مختلفة يغلب عليها شكل رؤوس السباع ، ولتسترخي على محيطها أحواض النباتات والزهور ، أما من مركز هذه البحرة فتبدو لنا نافورة تتسلل للنسيم لترسل إليه رذاذها ليداعبه .

وتنتشر في الباحة بعض أشجار الفواكه مثل الكباد والنارنج والليمون التي تفتح أزهارها في فصل معين ليعبق المكان بأريجها ، فهي أشجار وارفة ذات قطوف دانية ، محاطة بمجموعات من الورد الجوري والرند الكثيف والليلك ودرر الياسمين المقنطر ، حيث العصافير تحتل أشجار الباحة بزقزقتها والحمام واليمام اللذي يوسخ الجدران المتعددة الألوان التي تمنطقت الباحة وفراغاتها الاحتفالية بأحجار مسفطة بصفوف مرتبة متتالية من البازلت الأسود والحجر الكلسي الأبيض والحجر الرملي الوردي ، مشكلة خطوطا متوازية ،والتي بهتت زينتها وتساقطت زراكشها، وبسبب الكتل النباتية الخضراء وتقاطع الأماليد والجذوع التي تتداخل في الباحة تنكسر حدة صورة الأطراف في ملامستها للسماء ، فتتداخل إطلالة الأبواب والنوافذ ، لتظهر لنا فتحة في صدر الجدار بشكل بوابة يطلق عليها الإيوان ، تنفتح على الباحة بقوس حجري يتجه إلى الشمال مزين برسوم نباتية تؤطره ليطل على الدالية التي تقبع أحيانا بالزاوية . أما فناء الإيوان هذا فينبسط في فراغ وهو ذو مسقط مربع أو مستطيل مسقوف بارتفاع طابقين لايعلوه بناء آخر . أرضيته مرخمة بمستوى درجة أو أكثر عن مستوى الباحة ، لتحيط جدرانها ـ المبنية بالأحجار الملونة والمزخرفة ـ المساطب من جوانبها الثلاثة ، وتعلوها الفرش والوسائد التي يستلقي عليها صباح مساء صاحب الدار الميسور الحال ، ليستنشق رائحة التنباك التي تنبعث من النرجيلة ، على حين يهمس ماء النافورة لينبعث من بين الأشجار نور خفيف لفانوس من الزجاج الدمشقي الملون .

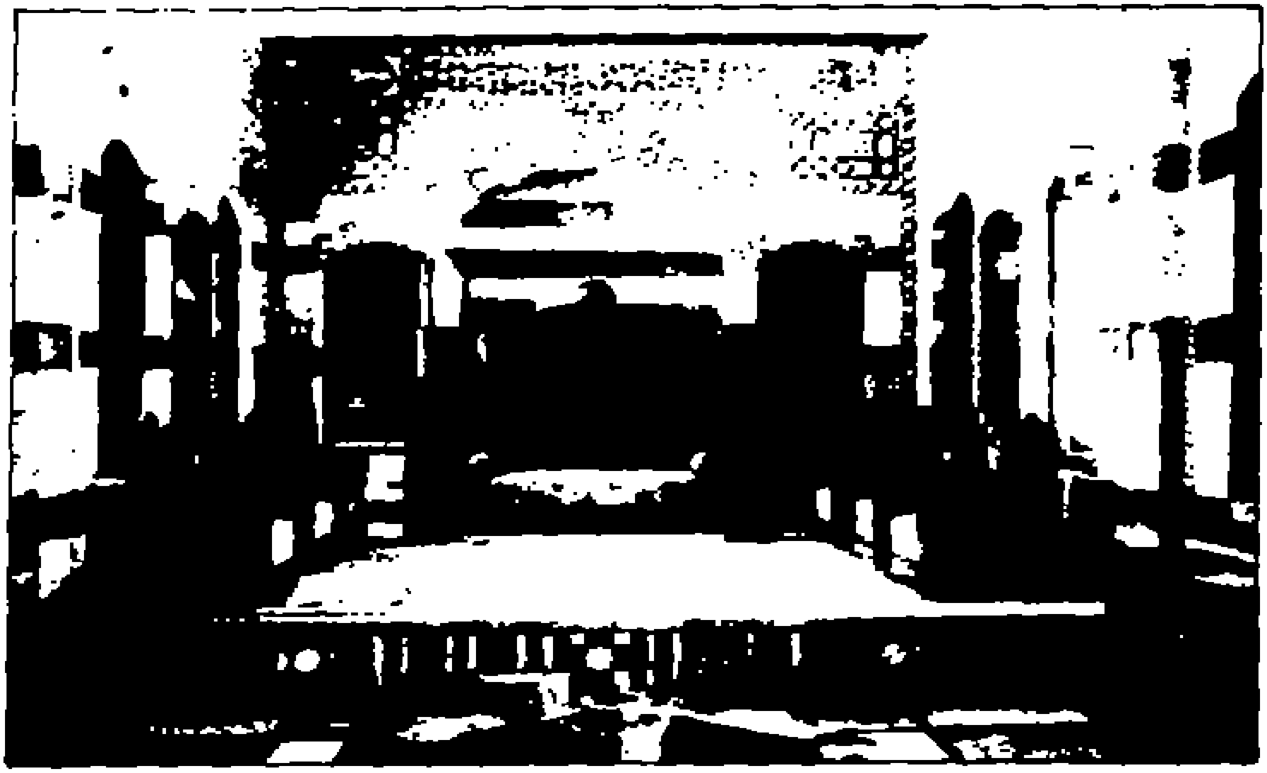
وأمام هذا الاستعراض يمر شريط ضيق على مستوى الباحة ، وهو عبارة عن ممر يصل بين قاعتي الاستقبال الواقعتين على جانبي الإيوان اللتين تزدهران ـ بحسب درجة الغنى ـ بتجليد الجدران بالخشب المزخرف والملون بروائع النقوش أو الزخارف المشغولة بطريقتي الحريري والعجمي ، والموشاة أحيانا بماء الذهب والفضة والألوان الأخرى ، وذلك بأشكال نباتية أو هندسية ، متناظرة ومنوعة . وفي أعلى الكسوة الخشبية الجدارية أشرطة كتابية متناظرة التوزيع من الأبيات الشعرية ، تنتهي على ارتفاع معين بطنف خشبي مزخرف بارز بشمل القاعة ، مشكلا فاصلا بين هذا التجليد الجداري والسقف الخشبي بمساحة مغطاة بالكلسة البيضاء . وفي أحيان أخرى تحلى الجدران ببعض الزخارف الرخامية والحجرية على شكل سلسيل أو وزرات ليلتحفها سقف من دفوف خشبية محمولة على عوارض خشبية بدون إنهاء ، مستديرة القطع أو مشذبة ، مغطاة بزخارف نباتية وهندسية ملونة ، وأحيانا معقدة لتضفي على المكان مزيدا من المتعة البصرية ولتدلى وسطها قناديل نحاسية ذات مشاعل زجاجية ، مشكلة ثريا تطل على الأرضية المفروشة بالسجاد العجمي الذي يرتفع عن التماس المباشر مع الأرضية الرطبة بهيكل من دفوف خشبية يطلق عليها اسم « دكة خشبية » ، تؤمن فراغا هوائيا عازلا . وهذه الدكة تتربع على مستوى مرفوع عند العتبة يسمى « طزرا » ، يفرش بالأثاث الدمشقي المطعم بالصدف ذي الوحدات الزخرفية النباتية أو المطعّم بالموزاييك الخشبي ذي الوحدات الزخرفية الهندسية ، وكل ذلك بأشكال بديعة متناسقة .

وبينما يجول البصر ، تطل عبر الجدار فتحة مقوسة منحوتة بدقة كاملة داخل الجدار السميك ، يطلق عليها اسم « اليوك » ، يجمعون فيها التراجيل والغلايين وفناجين القهوة الرائعة الموضوعة على صينية من الفضة أو النحاس المذهب ، المشغولة بعناية فائقة ـ والتي تعتلي منضدة خشبية ، أو يجمعون فيها قماقم ماء الورد والمجمر الرائع لحرق عود النّد .

« المندلون والدرقاعة » :

هذا ويقابل الإيوان عبر الباحة « القاعة الرئيسية » وهي تغطي كامل واجهة الديار الجنوبية بصفين متتاليين من الفتحات ذات نوافذ بقياس الأبواب على ارتفاع ضئيل فوق الأرض ، لتتيح للجالسين على فرش الأرض التمتع بمنظر الباحة بما تحتويه ، وقد غطيت هذه النوافذ بقضبان حديدية متشابكة ، تليها نوافذ أصغر قياسا تستجيب للنور والشمس ـ شتاء واضواء صيفا ـ وهي ما يعبر عنها « بالمندلون » . أما إذا استعمل صف ثالث من النوافذ فيتمثل بالقمريات أو الشمسيات وذلك للاسهام في عملية الإضاءة دون أن يكون لها وظيفة تهوية ، وهي على شكل كوى مستديرة ذات زجاج ملون أحيانا وفق زخرفات متعددة ، لإعطاء تأثيرات لونية لطيفة للضوء المار عبرها إلى داخل القاعة .

أما المقصورات فهي أيضا تتمتع بالمدخل الرائع الذي تستحقه ، فيتوسط أرضيتها جزء منخفض قليلا يسمى « درقاعة » يستخدم كبهو للدخول ، فقد جرت العادة المتبعة أن يخلع الناس نعالهم في أرضيتها قبل أن تطأ أقدامهم أرض القاعة ، وهي خاصية معمارية اتبعت في منازل العصر الإسلامي . وعلى جانبيها تقع ايوانات تتجه إلى الجنوب ، مغطاة من الأعلى بمناور خشبية ، وتشكل الدرقاعة هذه صحنا مسقوفا ، أرضيته مغطاة بفسيفساء من الرخام ذات أشكال زخرفية هندسية ، وهي في مستوى



نموذج غرفة استقبال بأثاثها الدمشقي وزخارف جدرانها وأمامها فسقية « بيت العظم »

انخفض من مستوى أرضيات الإيوانات تتوسطه فسقية تقليدية مثمنة الشكل ذات مثاعب نحاسية ، بها نافورة ماء ترنو على الإيوانات التي تنهض عن مستواها بمقدار ثلاث درجات ممهدة لها ، وهذه الإيوانات التي تغطي أرضيتها الحصر المصرية أو السجاد العجمي ، يحيط بها ديوان كبير ، أما في الداخل فتطالعنا قبالة الأبواب - المصنوعة من حشوات خشبية متداخلة - كوى بشكل محاريب ، زين قسمها العلوي بمقرنصات خشبية ، وترتفع من العتبة إلى الطزر كبقية المقصورات لتحيط بها جدران قاعة الاستقبال الشتوية المكسوة بحشوات خشبية مزخرفة تنتهي على ارتفاع معين بطنف خشبي مزخرف بارز ، يمتد ليشمل القاعة بأسرها مشكلا فاصلا بين منطقة النوافذ العلوية والكلسة البيضاء والأجزاء السفلية من الجدران .

وتجهز غرفة الاستقبال هذه بالسجاد والأثاث الخشبي الدمشقي المحفور ذي الخراطة الدقيقة والمحلى بقليل من الصدف . ويتألف غالبا من « كنبتين » وزاويتين توضع عليهما أواني زجاجية ، أو شمعدانات زجاجية وبين « الكنبتين » فنصلية بمرآة محاطة بخشب الجوز ، مزينة بالحفر وتطعيم الصدف ، ونجد في الدواليب الجدارية كؤوس الاوبالين التي تستخدم في تقديم الأشربة ، وقمقم الزهر ، وزجاجة الأركيلة الكريستالية ، وسكريات ومشربيات من المادة نفسها ، بالإضافة إلى بعض الأباريق ، والأواني المصدفة ، والمصابيح الزجاجية أو الكرستالية ، وحوامل الشمع الخزفية . (تحف العائلة) ، هذا وإلى جانب هذه المقصورة نجد غرفة معيشة . وأحيانا غرفة نوم بسيطة ، تشغل في فصل الصيف . أما غرفة المعيشة هذه فلها عتبة

وطرز ، وتخلو جدرانها من الزخارف وتعتمد الكلسة في كسوتها ، تنبسط في أرضيتها سجادة ، جهزت جنباتها بالأرائك « الطواطي » المفروشة بالوثار ، والمغلفة بوجوه مخملية ، مزينة بالصرمة الحريرية المطرزة بالقصب بأشكال نباتية رائعة ، أو بوجوه حريرية مطرزة (بالأغباني) ذات المواضيع النباتية أيضا . وهذه الأرائك تمتطي صناديق خشبية بسيطة تشكل على الأرض دروجا لحفظ البياضات . ويلاحظ في جدرانها دواليب بها أواني خزفية كأطباق من الخزف الصيني والشيني الياباني ، أما سقف هذه الغرفة فهو كبقية غرف الدار مكون من قماش مشدود مغطى بطبقة كلسية سميكة ، مطلية بالألوان ، تتدلى في وسطها ثريا منزلة ومخرمة ذات قناديل زجاجية .

ما قبل الفلكور :

اما إذا انتقلنا إلى غرفة النوم فسنجدها بسيطة في هذا الطابق ، وبالشكل المثالي في الطابق الثاني الذي يمكننا من أخذها نموذجاً ، فالأرضية المبسوطة تحفل بالحصر والسجاد والأرائك والوسائد والمفارش الصوفية ، كما تزخر بصندوق خشبي مطعم بالصدف غالبا ، وظيفته حفظ الملابس والبياضات ، وبأثاث خشبي ذي صدف جميل وهاج يطلق عليه اسم « بيرو » ، وهو عبارة عن مجموعة من الدروج تتوجها قنصلية خشبها محفور ، وتشغل هذه القطعة بدلا من خزانة ، فتوضع فيها الملابس التي اصبحت في وقتنا الحاضر أزياء خاصة بفلكور دمشق ، إذا أحببنا أن نتعرف عليها فسنجدها تتألف من سروال قلامندو يتخذ عادة من الجوخ الساذج الغامق اللون للشتاء ، أو من القطن المقصور الطري لفصل الصيف ، وقميص أبيض ، وصدرية تتخذ عادة من الجوخ الكشمير للشتاء ، ومن الحرير الأطلس اللامع المخطط بأقلام عمودية ـ



صور إيوان وبحرة الدار « بيت خالد العظم » طلعة سوق الخال القديم .



نموذج واجهة من المكتبات .

من نوع الصاية - أو مطرزة بخيوط صفراء كالأغباني ، وذلك لفصل الصيف ، تحف جوانبها أشغال التطريز ، مع شالة عريضة من الصوف - أجودها العجمي - أو زنار من الحرير ، ثم يأتي فوق الصدرية الميتان كقطعة من الثياب ذات قماش ولون متمم للثياب عامة ، مطرزة بالقصب من الأمام ، وعلى طرفي الكمّين ، وذلك بزخارف هندسية متنوعة ، كما نرى المعطف القصير الذي يرتديه الرجل فوق ما ذكر ، ونرى إلى جوار هذه الملابس قمباز الرد وهو ثوب طويل يكون عادة من الحرير المقلم بخطوط طويلة ملونة بعدة ألوان ، وهو ما يطلق عليه العوام (الصاية آلاجا حريرية أو ديما قطنية) أو يكون من الجوخ الساذج ، وذلك لفصل الشتاء ، يلبس فوقه معطف كيردين أو جبة ، ويحيط بالقمباز عند الخصر الزنار الحريري أو الشالة الصوفية ، ونادرا ما يلبس القمباز وحده فيلبس فوقه معطفا عاديا (ساكو) أو معطف كما ذكرنا ، كما يلبس في الشتاء والصيف غطاء رأس متمم وهو إما عمامة بيضاء أو طربوش اسطواني الشكل تقريبا ، أحمر اللون في الغالب ، أو غطاء من الأغباني أو طربوش قصير حوله لفة من الأغباني ، أما الصغار فتتألف ملابسهم من قمباز مع نطاق وجلابية « عباءة » ، ويعتمرون طربوشا صغيرا أو حطة بيضاء وعقالا مقصبا متوسط الفخامة .

أما لباس النسوة والفتيات فيتألف عند الخروج من الدار من الإزار ، وهو ذلك اللفاع المتهدل التي تلتحف به النساء من الرأس حتى القدمين مع منديل من الموصلين للوجه ، كما كن يرتدين الملاءات المدفقة الحريرية التي تتألف من ثلاث قطع سوداء منفصلة عن بعضها وهي :

ا - قطعة سفلى تشكل تنورة عريضة تزم حول الخصر .

ب - قطعة عليا تسمى فجة أو برلين تستر صدر المرأة وكتفيها وعنقها وظهرها .

ج - منديل الوجه غالبا مطرز الأطراف أو مسنن .

أما في الداخل فتجدهن يرتدين السروال المنسوج من خيوط الحرير المطعمة احيانا بخيوط الذهب بأشكال ومواضع مختلفة ، كما أننا نجد ثوبا قد صمم طويلا ليصل إلى القدمين ، وهو من الحرير الساذج أو المقلم ذي الألوان الزاهية مع عصبة (قمطة) ثمينة مزودة بشراشيب طويلة (منديل أويا) ، لتغطي الرأس ولتعصب على الجبين .

ويلاحظ في غرفة النوم صندوق خشبي مطعم « شكمجاية » وذلك لأدوات الزينة ، كما يلاحظ صندوق حديدي صغير يستخدم لحفظ القطع الثمينة والمجوهرات والحلي .

ومن الجدير بالذكر هنا أن القاعة الرئيسية يمكن أن يلاحظ لها نماذج أخرى في الدور الدمشقية ، فمنها ما هو مكون من مربع مركزي على مستوى أرضية الباحة « العتبة » التي تحتوى في مركزها على بحرة رخامية صغيرة ذات نافورة ، وذلك بدون الإيوانات . ويحد العتبة ثلاثة طزر مرفوعة عن أرضيتها بارتفاع درجة ذات أرضية مغطاة بالرخام ، وقد زينت الجدران أيضا بالرخام المجزع ويعصب ماء (سلسبيل) وسط الطزر الأوسط على سطح مائل من القيشاني الملون ، تترقرق مياهه في صدر القاعة إلى البحرة من تحت الطزر والعتبة ، أما أسقف الطزر فهي مستوية ومحمولة على عوارض خشبية . وكل هذه الأقسام من السقف تنفتح على سقف العتبة بثلاثة أقواس حجرية مسفطة ، تتدلى منها قناديل زجاجية . وهناك نموذج آخر يتألف من عتبة تحتوى على بحرة رخامية صغيرة مع نافورة ، يحدها طزران مرتفعان عن أرضيتها بنفس الإكساء السابق ، ينفتح سقفهما على سقف



الرجال بملابسهم التقليدية يمارسون حياتهم مساء في قصر أسعد باشا العظم .

العتبة بقوسين حجريين مسقطين تتدلى منهما القناديل .

أما الجناحان الشرقي والغربي للباحة فهما يحتويان على الخشوات ، وهي عادة غرف استقبال إضافية كالمربع والصالة ، ومنطقة الخدمات التي تشتمل على المطبخ والمرحاض وبيت المؤونة الذي يبنى عادة على منسوب نصف مدفون في الأرض ، بالإضافة إلى عدد من الأدراج الخشبية أو الحجرية المؤدية إلى الطابق الاول الذي يتكون من رواق مغطى يدور حول الأجنحة الثلاثة : الشمالي والشرقي والغربي لتتحلق حوله الغرف المتعددة .

وأحيانا يعالج الجناح الشمالي بنفس معالجة الإيوان في الجناح الجنوبي ، مما يؤدي إلى تقسيم هذا الطابق إلى جناحين منفصلين يصعد إليهما من درجين في الطابق الأرضي ، لتشغل غرفهما التي تدعى فرنكات كغرف نوم ومعيشة لاستقبالها أشعة الشمس ، وهذه الفرنكات غالبا ما تتقدم فوق الطابق الأرضي بشكل بارز قائم على عقد ، وقد تخصص الفرنكات لوحدات عائلية مختلفة تنتمي للعائلة الكبيرة ، ويصبح ذلك بفضل انفصالها عن بعضها في مجال الحركة ، وانفتاحها على الرواق المطل على الباحة . وفي الغالب كانت تضاف غرفة على سطح هذا الطابق وتسمى (الطيارة) كأصدق تعبير عن وضعها المعماري ، وقد غلفت من ثلاث جهات بالنوافذ الزجاجية لتستعمل صيفا وشتاء كغرفة معيشة وسمر .

والتنقل بين الإيوان والباحة والسطح يتم في فصل الصيف ، وذلك في محاولة لاقتناص أفضل الشروط المناخية ، وبالمقابل نجد الاستقرار في فصل الشتاء في الطابق الأول المتلقف للشمس المتميز بحجم الغرف الصغيرة التي يمكن تدفئتها بطريقة أيسر ، حيث نجد أفراد العائلة يتحلقون حول المنقل على الأرض المغطاة بالسجاد .

أما الضيوف فيتم استقبالهم في إحدى هذه الغرف إن كانوا من الأقارب ، أو في قاعة جنوبية مغلقة في الطابق الأرضي إذا كانوا غرباء .

البيت الدمشقي والبيئة

لعل استجابة البيت الدمشقي هذا للمناخ تكمن في مواد إنشائه ايضا . فهي من الطين والخشب والحجر ، وهي مواد طبيعية . لعب موقع دمشق وسط غوطتها أثرا واضحا في تأمين المواد الأولية لبنائه في العهود السابقة ، فلقد انتخب أهل دمشق هذه المواد من صلصال الأرض وجذوع شجر الحور اتقاء لشر الزلازل .

فالبيت الدمشقي يعتمد في بنائه على التراب في الدرجة الاولى وذلك بخلطه بالقش المكسر لبناء الجدران التي تتخللها طبقات من الخشب إذا كان البيت مؤلفا من طابقين وهو الغالب ، ويتضافر خشب الحور مع التراب لتغطية المسكن بالسقف ودعم الجدران ، فهذه المواد سهلة البناء قليلة التكاليف رديئة النقل للحرارة والبرودة ، قادرة على حماية الإنسان من العوارض الجوية وتقلبات الطقس .

وإذا كانت مادة الحجر كما رأينا سابقا هي مادة الانشاء لواجهة الجدران الأرضية للباحة ، وتشكل مادة الإنشاء لإطارات الأبواب والنوافذ والأقواس ، فإن مادة الطين والخشب تشكل القواطع ، ومادة الإنشاء للطابق الأول فهي عبارة عن هيكل خشبي مملوء بصفوف من اللبن المرتب على ميل حوالي (٤٥°) « وهو إنشاء خاص بدمشق » ، وعادة يكون أقل سماكة من جدران الطابق الأرضي ٤٠ ـ ٦٠ سم ، ومطين من الخارج بطبقة من الزريقة المكونة من الكلس ورماد الحمام وقشر القنب ، ومن الداخل إما مطينة بالكلسة أو الزريقة ، أومغطاة بألواح خشبية مزخرفة كما رأينا في حالة قاعات الاستقبال ، أو في حالة وجود غرفة نوم للضيوف في الطابق الأول ، ولم يغفل المعمار الدمشقي بالإضافة لذلك مشكلة تصريف مياه الأمطار من أعلى أسقف المنزل ، فقد خصها بميل يسهل انحدارها إلى نقطة أو أكثر من على السطح إلى ميزاب معدني .

كما ساعده استخدام الخشب في إقامة الشرفات التي غالبا ما تكون متجهة نحو الباحة لضرورات دينية وامنية ، ولما إذا اتجهت نحو الخارج فتكون مستورة بالخص الخشبي المركب من العيدان ، وذلك للتخفيف من حدة أشعة الشمس ، ولحجب من في الداخل عن أعين المارة في الطريق .

لاشك أن البيت الدمشقي التقليدي هو جنة لسكانه ، فيه يتحقق الأمن والراحة والجمال ، فهو حصيلة تضافر الظروف المناخية والعادات والتقاليد والمعتقدات التي لعبت دورا بارزا في تصميم هذا الطراز الذي يظهر مدى تلاؤم الإنسان في دمشق مع بيئته الطبيعية والاجتماعية ، كما يعكس لنا مدى التطور الاجتماعي والثقافي الذي وصل إليه أبناء دمشق في عهودهم السابقة . □

● توجه أحدهم لزيارة أحد المسئولين بإدارة المباحث الجنائية ، فقالت سكرتيرته : إنه غير موجود الآن . هل تحب أن تترك له بصمات أصابعك ؟

هو.. هي

غريب في بيتي

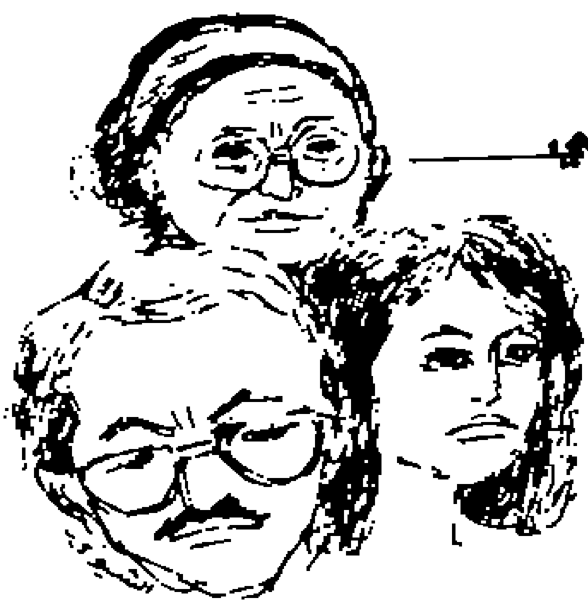
كثيراً ما تكون أكثر الأمور بديهية هي أبعدها عن الذهن . والأحداث الحتمية هي التي لا يحسب أحد حسابها .

توفي والد زوجي بعد عمر طويل حافل ، لم يتعرض خلاله لأكثر مما تعرض له آخرون أفضل أوضاعا . لم يفقد مالاً ولم يعان من المشكلات مع أبنائه أثناء تربيتهم وتعليمهم ، ثم استقلالهم في حياتهم الزوجية إلا أقل القليل . ولأن أشقاء زوجي الثلاثة كلهم متزوجون ، ولأنني زوجة الإبن الأكبر ، فقد انتقلت والدة زوجي للعيش معنا في منزلنا المتواضع الذي يضمنا زوجي وأنا وأبناءنا الثلاثة .

لم أعر الأمر اهتماماً في البداية ، فقد كانت حرمة الموت أكبر من أي مشكلة . إلا أن الأمور أخذت في التطور لتعصف بعلاقاتنا الأسرية التي فقدت الكثير من خصوصيتها مع وجود والدته بيننا . فقد كثرت تدخلاتها في حياتنا الزوجية ، وسلوكياتنا الاجتماعية ، ووصلت تدخلاتها الى الطريقة التي نربي بها أبناءنا . وكلما حاولت أن الفت نظر زوجي الى تصرفات والدته بادر بالدفاع عنها وأخذ جانبها وبدأ بلومي ، مستعينا بأمثلة جاهزة ، وبأقوال مكررة قد تنطبق على أي مشكلة أخرى ، إلا أنها لا تنطبق على مشكلتي أنا ـ مشكلتنا ـ بالذات . ومرة اقترحت عليه أن يطلب من والدته التنقل بين منزلنا ومنازل إخوة زوجي بالتساوي ، إلا أنه رفض الفكرة من أساسها قائلا : إن وجود والدته ليس مصيبة لتوزع عليه وعلى أخوته ، واقترحت عليه مرة ثانية أن يطلب منها عدم التدخل في طريقة تربيتنا لأبنائنا على الأقل ، فاحتد وقال إن مثل هذا الطلب يعتبر طرداً غير مباشر لوالدته من المنزل ، وإنه لن يفعل ذلك مهما كلف الأمر . لكن الغضب بلغ بزوجي ذروته ، ولا أدري لماذا عندما اقترحت عليه أن يضعها في ملجأ للعجزة . مع أنني أوضحت له أن « ملجأ العجزة » ربما كان سيء السمعة والوقع ، لكنه المكان الذي قد تقابل فيه سيدات في مثل سنها يشاركنها بعض اهتماماتها ، وتجد هناك من يقوم على خدمتها بشكل أفضل مما نقوم به نحن بسبب عملنا نحن الاثنين ، وصغر أبنائنا . وقلت له إننا لن نتركها ، بل سنحضرها للمنزل متى شئنا ومتى طلبت هي . وأننا لن ننقطع عن زيارتها . وعند هذا الحد نفذ صبر زوجي وبدأ بتعنيفي بطريقة لم أشهدها طوال حياتي الزوجية ، ووصل به الأمر حد تخييري بين البقاء في المنزل مع والدته ، أو مغادرة المنزل الى غير رجعة إن تشبثت بموقفي .

إنني أحب زوجي ، ومشكلتي ليست معه . فهل من العدل أن تتحطم حياتي الزوجية بسبب شخص ثالث ، حتى لو كان هذا الشخص هو والدته ؟ .

هي..



الجنة تحت أقدامها

لا أعرف ماذا يدهى النساء أحيانا . لكنني أعرف أنهن يخرجن في بعض الأحيان عن الطبيعة السوية ويتحولن الى مخلوقات قاسية لا ترحم .

وأعرف أن البيت مملكة المرأة سواء أكانت تعمل أم لا . وأن إحداهن قد تحتمل الأخرى ضيفة عليها لفترة من الزمن ، إلا أنها لا تحتمل إطلاقا أن تنازعها امرأة أخرى عرش مملكتها . لكن لكل شيء حدوده ولكل قاعدة استثناءاتها ، وعبثا حاولت أن أفهم زوجتي أساس هذا الاختلاف ، إلا أنها لم تزدد إلا عناداً وتعنتاً مما كدر علينا صفو حياتنا وأوصلنا الى حافة الطلاق .

فعند وفاة والدي رحمه الله ،كان طبيعياً ان تأتي والدتي لتقيم معي في المنزل مع زوجتي وأبنائي باعتباري ابنها الأكبر . وكنت أعلم أن هذا يلقى على زوجتي أعباء كبيرة ، من حيث كمية العمل الذي عليها القيام به في المنزل بعد يوم عملها المضني في المكتب ، وأعلم أن كلاً من زوجتي ووالدتي لها طريقتها الخاصة في النظر الى الأمور وتقديرها ، ولها نظرتها في الحياة الاجتماعية والاهتمامات وفي طريقة تربية الأولاد ، نظراً لاختلاف الجيل والتجربة والتربية والحصيلة الثقافية ، إلا أنني لم أجد داعيا لاصطدام الاثنتين وتلاسنهما كما حدث أخيرا . وكنت ومازلت أرى أن على زوجتي أن تكون أكثر مرونة تجاه والدتي التي تشعر بالوحدة والوحشة والفراغ الكبير ، مما يجعلها تبدى ملاحظات قد لا تكون ضرورية أو صحيحة ، بل لأن تثبت لنفسها قبل الآخرين أنه مازال لها دور تؤديه ومازال لديها شيء تقوله . إلا أن زوجتي لم تستطع استيعاب هذا الأمر الذي يبدو لي طبيعيا ، وبالمقابل بدأت تدخل في نقاشات غير متكافئة مع والدتي ، وتطور الأمر لتقترح علي أن أطلب منها العيش في منازل أخوتي الآخرين بالتناوب ، ثم بلغ بها الأمر حد اقتراح إرسالها الى ملجأ العجزة . عندها لم أتمالك نفسي من الغضب والصراخ في وجه زوجتي وتخييرها بين البقاء مع والدتي ، أو مغادرة المنزل نهائيا . ولم أكن أتصور أن تصل الخلافات بين زوجتي وبيني الى هذا الحد في يوم من الأيام . لكن هذا ماحدث .

ثمة أمور لا تقاس بالمنطق . فحتى لو كانت والدتي على خطأ في كثير من تصرفاتها وتعليقاتها ، فإنني أرفض أن يكون عقابها هو إرسالها الى ملجأ العجزة ، فهل من العدل أن تلقى والدتي التي أنا ملزم بها مثل هذا المصير حتى لو كان لإرضاء زوجتي ؟ . □

هو ..



طبيب الأسرة
قضايا منزلية

الطفل عندما يمشي

بقلم: الدكتور حسن فريد أبو غزالة

الطفل الطبيعي النموذجي الذي يقاس به الأطفال لم يولد حتى الآن في عرف الطب، فالأطفال جميعاً طبيعيون إذا ما كانت مقاييسهم ضمن حدود عامة يعتبرها أهل الاختصاص طبيعية. وبقدر ما يبتعد هذا الطفل أو ذاك، أو بقدر ما يقترب، من هذه المقاييس يكون الحكم عليه.

إن هذا الاقتراب أو ذاك الابتعاد ليس بالضرورة شاملاً لكل المقاييس، ولم تكن كل المقاييس تسير دوماً في خطوط متوازية، إذ ليس بالضرورة أن تظهر أسنان الطفل ويسبق أقرانه في ذلك إذا تمكن من المشي مبكراً، والعكس صحيح أيضاً.

ربما كان يحلو للآباء والأمهات أن يقرنوا ذكاء الطفل بحركاته، فالأمر يسعدهم ويدغدغ مشاعرهم، ويحدث لهم ذلك عندما يتوهمون أن الطفل الذي يمشي سابقاً أقرانه هو طفل أكثر ذكاء، كما قد يصابون بالخيبة إذا ملكتهم القناعة أن ذكاء طفلهم قد تدنى لأنه قد تخلف في القدرة على المشي.

ومن سبق غيره من الأطفال في قدرات الكلام ليس هو الأكثر ذكاء وفطنة، وليس من تخلف منهم في النطق هو البليد الغبي.

إذن فليس للأمر ضوابط وليس له روابط.

ربما كانت ظاهرة النطق وظاهرة المشي هما الأكثر إثارة للأهل بين كل مظاهر النمو عند الأطفال، لهذا فالقضية التي نطرحها - المشي - تستقطب اهتمام الوالدين وتستحق منا بعض التفصيل.

إن الجلوس وما يعقبه من قدرة على المشي هما من مظاهر النمو لدى الطفل، وقد يسرعان أو قد يبطئان لسبب ظاهر، أو ربما لسبب غير ظاهر، غير أن الأمر لا يمكن تحديده بدقة، ولا يمكن ربطه بسن معينة، إذ ليس هناك سن يقال عنها بأنها سن الجلوس، أو سن المشي، غير أن الملاحظة العامة تقودنا إلى القناعة بأن غالبية الأطفال الطبيعيين يمكنهم الجلوس في حوالي الشهر السادس من أعمارهم، كما أنهم يستطيعون المشي في عمر يقارب نهاية العام الأول.

ومع هذا فسجلات الأطباء قد تشير إلى أطفال جلسوا في شهورهم الأولى ، وآخرين استطاعوا المشي قبل اكتمال العام الأول ببضعة أشهر .

غير أن الجلوس والمشي يمكن أن يتأخرا أيضا حتى سن متقدمة ، وقد تتعدى ستين ، دون أن يؤخذ الأمر دليلا على ذكاء أو غباء ، أو يرتبط ذلك بمظاهر البلوغ بعد ذلك .

ربما كانت هناك عوامل ومقومات لابد أن تتوافر لكي يستطيع الطفل الجلوس أو الحبو أو المشي ، ولعل أهم هذه العوامل هي :

نمو العضلات

نمو العظام

نمو الأعصاب

ونمو هذه الأجهزة مرتبط بدوره بعوامل أخرى منها ما هو مرضي ، ومنها ما هو طبيعي ، ويمكن أن نستعرضها بإيجاز على الوجه التالي :

أولا : العوامل الوراثية :

يحتاج الجهاز العصبي في أطوار نموه إلى ما يعرف بعملية التغليف ، حيث يتكون جراب دهني مع مرور الأيام ، وسرعة نضوج هذا الجراب وتكونه هي التي تحدد قدرات الجلوس أو المشي دون أي ارتباط بالكفاءات والقدرات الأخرى .



ثانيا : العوامل البيئية :

من الملاحظات التي تسجلها قراطيس الطب أن الأطفال المهملين دون رعاية أو اهتمام أو توجيه ، كما هو الحال في دور الحضانة وبيوت الرعاية ، يتأخرون في مشيهم عن أقرانهم ، ممن يعيشون في بيوت يرعاهم فيها آباء وأمهات .

ويشابههم في هذا فريق الأطفال المرفهين المدللين ، ممن ينالون رعاية زائدة عن الحد المعقول ، فهؤلاء عرضة أيضاً للتخلف عن المشي ، لعدم تدريبهم على الاعتماد على النفس .

ثالثا : عوامل مرضية :

بعض الأمراض لها تأثير مباشر فاعل على قدرات الجلوس والمشي ، لأنها تحد من كفاءة الجهاز الحركي الذي يتحكم في العضلات والعظام والأعصاب ، ومن ضمن قائمة الأمراض نجد الشلل الدماغي ، والتخلف العقلي ، والطفل المنغولي ، ومرض الكساح ، وأمراض الوهن العضلي ، أو مرض الزهري الوراثي .

رابعا : عوامل شخصية :

من الملاحظ أن لشخصية الطفل دوراً يؤثر على قدرات الجلوس والمشي ، لأن ذلك يحتاج إلى الاعتماد على النفس ، فاذا ما كان هناك شيء من الاضطراب النفسي ، يفقد الثقة بالذات ، فإن الأمر سينعكس على قدرات الطفل لا شك .

خامسا : الطفل المعاق :

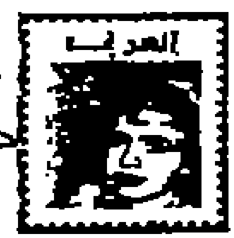
أمر الطفل المعاق لا يحتاج إلى نقاش وجدل في

مدى تأثيره على قدرات الطفل ، كما هو الحال مع طفل ضرير أو طفل مصاب بشلل الأطفال .

سادسا : عوامل مجهولة :

لقد لوحظ أن هناك عددا من الأطفال الطبيعيين بالمقاييس المعروفة ، يتأخرون في جلوسهم أو مشيهم حتى سنوات متقدمة من أعمارهم ، دون سبب واضح مفهوم .

ومن الملاحظات التي تسترعي الانتباه أن بعض أهل الطفل وذويه إذا ما تخلف عن المشي يتوجهون إلى طبيب العظام ، يطلبون منه النصيحة والمشورة والعلاج ، وكان أجدر بهم أن يطلبوا مشورة طبيب الأطفال المختص . وبعض آخر من هؤلاء قد يتوهم أن سبب التخلف انخلاع وراثي في مفصل الورك ، وهو ظن لا أساس له . ولعل بعض الناس يلقي المسؤولية على بدانة الطفل ، ويحملها أسباب التخلف ، ولكن الدليل لم يقم على صحة هذه الدعوى ، لهذا فالرأي الأصوب دوماً هو رأي طبيب الأطفال المختص ، مع التأكد مرة أخرى على عدم الربط بين المشي وقدرات الطفل الأخرى . □



ردود سريعة

* الطالب / هاشم بدري - الحراك - سوريا

علاج الضعف العام ليس بهذه البساطة التي تتصورها ، فالأمر يحتاج إلى تحديد السبب وعلى ضوئه يتم العلاج ، ولهذا لا بد من مراجعة طبيب للقيام بالكشف الطبي والتشخيص .

* السيد / محمد عبد الغني حزام الظبابي - تعز - اليمن

حب الشباب هو أمر من أمور الشباب ، يشفى عندما يتجاوز الشاب حدود مرحلة المراهقة ، فلا حاجة بك للقلق ، وكل ما هو مطلوب منك أن تحافظ على نظافة جسمك مع عدم العبث بهذه البثور حتى لا تلتهب ، ويا حبذا لو استشرت طبيبا مختصا في الأمراض الجلدية .

* السيد / ق . م . م - حمص - سوريا

من الأفضل تزويدنا بتقرير طبي من جراح يتولى فحصك حتى يمكن أن نسدي لك النصيحة الصادقة .

* السيد / ط . م . - الحسيمة - المغرب

كثافة الشعر أمر وراثي لا علاقة له بأية عادة أو طعام .

أما بالنسبة لضعف اليدين فإن الأمر يحتاج إلى فحص طبي لتشخيصه أولا ثم العلاج فيما بعد .

* السيد / ص . ح - حلب - سوريا

حمى البحر الأبيض المتوسط هي مرض وراثي يداهم المصاب في نوبات من الحمى والمغص ، وعلاجه الأفضل هو الكولشيسين ، لكن الغذاء لا دور له في الأمر ، أما بالنسبة للزواج فالمرض لا يعطل من قدرات المصاب لكنه قد ينعكس على الأطفال وراثيا .

* السيد / ممدوح مغايري - حلب - سوريا

رسالتك ليست واضحة لدرجة يمكن معها الاجابة الأمينة ، ولهذا يرجى استشارة طبيب يتولى فحصك وتشخيص مرضك .

مشاغبون!

صداقة

لم ألتق بأي من أصدقائي منذ سنوات ، ولم يلتق أحد منهم بالآخر منذ أعوام طويلة . ومع ذلك فعندما أشير إلى الأصدقاء فإنني أعنيهم . وإذا سئلت عن أصدقائي في هذا العالم فإنني أعدد أسماءهم ، ولا أدري إن كان في الأمر مبالغة .

تعرفت عليهم في أيام الدراسة الجامعية ، وهي أيام التكون الفكري والثقافي ، وتبلور الشخصية ، ومعرفة النفس والتعرف على الآخرين . لم نكن جميعا على اتفاق في الفكر أو الميول أو المواقف السياسية . وكان تحصيلنا الثقافي متفاوتا ، ولم تكن شخصياتنا متشابهة ، ولا أدري إن كان اختيارنا المشترك قائما على الإعجاب والحب فعلا . لكننا التقينا معا ، تحاورنا ، اتفقنا واختلفنا ، وأحببنا وتظاهرنا ، وتسكعنا وتمردنا على ما اعتقدنا أنها قيم بالية . فشلنا ونجحنا ، وحلمنا وأحبطنا ، وحاولنا أن نكون أبناء عصرنا كل على طريقته ، لكننا لم نكن قط صورا لبعضنا بعضا . وعندما انتهينا من دراستنا انفرط العقد ، وتفرقنا ، وانتشرنا في الأرض الواسعة . وبدأ كل منا حياته العملية بعيدا عن الآخر . لكننا بقينا يتابع بعضنا بعضا عن بعد ، ربما التقى أحدنا بواحد من الأصدقاء الآخرين . وربما تحدث واحد منا مع الآخر بالهاتف ، أو بعث إليه برسالة ، وربما التقى اثنان أو ثلاثة منا لفترة من الزمن في مكان ما من العالم الفسيح . لكننا لم نجتمع كلنا معا في مكان واحد لنرى ماذا بقي من تلك الأيام وماذا اختلف ، ماذا تطور وماذا تغير .

وعلى الرغم من ذلك بقي مشتركا لدينا إعلان الصداقة التي تربطنا منذ ذلك الزمن الذي أصبح بشكل ما سحيقا . خلال الأعوام التي تلت تخرجنا ، تعرفت على أصدقاء جدد . كان انسجامي الفكري مع بعضهم أكبر ، وكانت مساحة اهتماماتي المشتركة مع بعضهم الآخر أوسع ، وكانت رؤيتي للأمور مع غيرهم أكثر وضوحا . ووعينا بالقضايا على نفس المستوى من النضج ، وردود أفعالنا أكثر تناسقا ، وثقافتنا أكثر قربا .

ومع ذلك فإن فكرة الصداقة بقيت مرتبطة بأصدقائي القدماء . وكلمة الأصدقاء تعنيهم هم بدرجة أساسية . وكثيرا ما أتصور أن العالم إذا خذلني فإنهم لن يخذلوني .

لا أدري إن كان هذا الاعتقاد وهما أم حقيقة . ولا أعرف إن كان ذلك ضربا من رومانسية ظلت كامنة في جزء من قلبي الذي اكتهل ، أم هو حنين إلى أيام الشباب الغض ، والحلم الأول والحب الأول ، وإلى أولئك الذين كانوا شهودا على كل ذلك ، أم هو احتماء بوهم جميل من قسوة الزمن الذي لا يرحم ؟ ربما كان بعض ذلك ، أو ذلك كله وغيره . لكنها في كل الأحوال تلك الطبيعة البشرية التي تأبى الرضوخ لتفسيرات جاهزة فتبقي للحياة سحرها العصي على الفهم ، والذي به تمضي الحياة وتستمر . □

صلاح حزين

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

دعـوة للترشيـح

لجوائز المنظمة الاسلامية للعلوم الطبية المقدمة من مؤسسـة الكويت للتقدم العلمي

تشجيعا للبحث العلمي في مجال انجازات الحضارة العربية والاسلامية في حقل الطب وفروعه، ومجال التطبيق لذخائر هذا التراث على ضوء التمحيص العلمي التجريبي وفق منهاج العصر الحاضر وللنظرة الفاحصة الى احكام الاسلام ذات الصلة بصحة الفرد والمجتمع واخلاقيات الممارسة الطبية. تعلن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عن تخصيص جائزة كل سنتين في كل من المجالين الاتيين

(١) مجال الممارسة مبنية على التجربة المختبرية او السريرية المحكومة بالضوابط العلمية المرعية

(٢) مجال الفقه الطبي وتحقيق التراث وفق اصول فن التحقيق .

شروط الترشيح للجائزة

١ـ يشترط فيمن يحصل على احدى الجائزتين ان يكون انتاجه منشوراً وذا اهمية في حقل العلوم الطبية الاسلامية ووافيا بالمنهاج العلمي العصري

٢ـ تقبل ترشيحات الجامعات والمؤسسات العلمية والهيئات العالمية، وكذلك ترشيحات الشخصيات المتخصصة لنفسها او لغيرها .

٣ـ ترسل الترشيحات على العنوان الاتي

السيد مدير عام مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

ص ب. ٢٥٢٦٣ الصفاة ـ الكويت 13113

تلكس ٤٤١٦٠ كيفاس ـ فاكسميلي ٢٤١٥٣٦٥ (٩٦٥)

وتقبل مشفوعة بالسجل الذاتي والانتـاج العلمي للمـرشح، في الفتـرة من ١.١ ١٩٨٩ لغايـة ١٩٨٩.١٠.٣١ .

٤ـ لا يعاد الانتاج المقدم الى مرسله سواء فاز بالجائزة او لم يفز ولا تقبل الاعتراضات على قرارات لجنة التحكيم .

تتألف الجائزة من مبلغ وقدره (٣٠٠٠) ثلاثة الاف دينار كويتي ودرع المؤسسة وشهادة تقديرية وسوف تشكل لجان تحكيم من متخصصين لدراسة الترشيحات واختيار الفائزين وسيدعى من يفوز بالجائزة للحضور الى مكان انعقاد المؤتمر الطبي الاسلامي لاستلام جائزته في حفل يقام لهذا الغرض

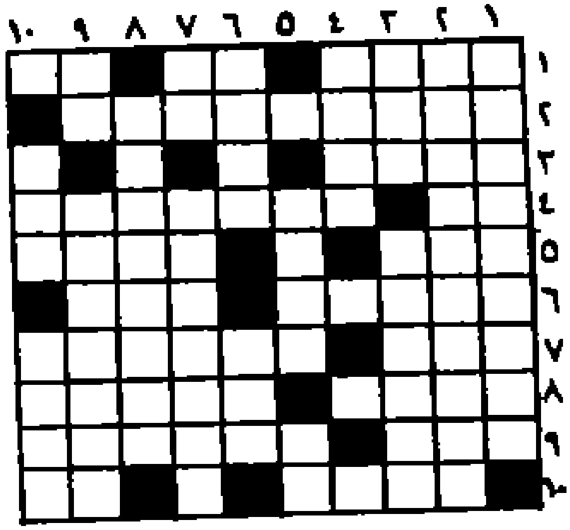
* * *

وحري بالبيان ان المقصود بالانتاج بحث علمي عميق ودقيق وموثق لمسألة محددة ذات صلة واضحة بالطب الاسلامي على مستوى المتخصصين وليس تناولا عاما من قبيل الثقافة العامة

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع العامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .



كلمات أفقية :

١ . مخترع الديناميت وصاحب جائزة كبرى ، بَسَطَ ، رَخْو أو لَيِّن .
٢ . جائزة تمنح للمشاهير ممن خدموا الانسانية .
٣ . رنين مفرقة .
٤ . نصيب ، عبارة بمعنى « ما أشجعك »
٥ . أصلح غير مرتبة ، لمسات أخيرة تضاف الى الصورة .
٦ . كائن حي أدنى رتبة من الإنسان ، نحصل على ميراث .
٧ . صفة مبعثرة ، الشرق غير مرتبة
٨ . خالقة ، محترف لرياضة عنيفة
٩ . لقى متناثرة ، الاسم الثاني لأديب أمريكي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٩
١٠ . بلاد ، عكسها إنس

كلمات عمودية :

١ . أديب وقصاص عربي فاز بجائزة أدبية كبرى
٢ . أديب فرنسي فاز بجائزة نوبل ١٩٤٧ مسبوق اسمه بـ[illegible] .
٣ . مكان نَتَزَوَّد منه بالماء ، منسوب لمدينة الموصل
٤ . منزل معكوسة
٥ . كلمة بمعنى سلام منونة ، لاذ بالفرار
٦ . مصدر ، لوم مبعثرة
٧ . أول نغمات السلم الموسيقى ، الاسم الثاني لأديب ايطالي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٤
٨ . أديب روسي رفض جائزة نوبل عام ١٩٥٨
٩ . ظهر أو بَدا ، الإسمين الثاني والثالث لزنجي أمريكي فاز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤
١٠ . أثار وقلّب ، يُقرّب

● حل مسابقة العدد الماضي ابريل ١٩٨٩ م



بقلم : الدكتور حسن عباس

ألفاظ عامية فصيحة

لو قدر لباحث أن يتوفر على لهجة عربية محلية بعينها - أو لهجات - فينحي جانبا كل ما شابها من كلمات دخيلة ، لحصل على أعداد لا تحصى من الكلمات العربية الفصيحة التي لا نشك في نسبها إلى اللغة العربية الفصحى . وإن عملت العامة على تحريف نطقها أو عمدت إلى قلب حروف معينة من أحرفها . ونقصد بالكلمات الدخيلة الكلمات الأعجمية .

وقد دخلت إلى اللهجات العربية إما عن طريق الاحتلال الأجنبي لهذا القطر العربي أو ذاك ، وإما لتطرف قطر عربي في موقعه الجغرافي بحيث تتجاور البلدان والشعوب فلا مناص لإحداها من أن تتأثر بجاراتها الأخرى . قل هذا التأثير أو كثر ، ومن مظاهر ذلك التأثير تبادل الألفاظ وشيوعها في اللغات المتجاورة . ومن مصادر التأثير الأخرى وجود أقليات عرقية غير عربية في قطر عربي يساعد على نقل مفردات من لغة أو لغات تلك الأقليات إلى اللهجة العامية .

إذا استثنينا الدخيل في اللهجات العربية نجد الألفاظ المتداولة في أحاديث الناس تبتعد كثيرا أو قليلا عن اللفظ العربي الفصيح بقدر حظ المتكلم من التعليم والثقافة . على أن ما ينبغي لنا التأكيد عليه هو أن في كلام العامة كثيرا من المفردات العربية الفصيحة التي لا يضير الكتاب العرب استعمالها فيما يكتبون ، ونخص منهم العاملين في مجالات المسرح والإذاعتين المسموعة والمرئية وغيرها من وسائل الاتصال الجماهيري .

وقد نشط عدد من الباحثين العرب في التنقيب عن هذه المفردات وتدوينها ، وبيان أصولها الفصيحة بدءا بالجهود الفردية التي قد ترجع أوائلها إلى أكثر من ثلاثة قرون خلت ، وانتهاء بمحاولة الدكتور « محمد داود التنير » ، بل إن هناك لجنة تدعى لجنة اللهجات تتبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تتولى البحث في مثل هذا الموضوع وغيره من الموضوعات ذات الصلة باللهجات العامية .

قام الدكتور التنير بجمع أكثر من ألف وأربعمائة كلمة حسبها الناس عامية وهي فصيحة ، ونشرها في كتاب رتبه بحسب ترتيب حروف الهجاء ومن تلك الكلمات مثلا :

* الصلعة : فالعامة يصفون رأس الرجل وقد تجرد من الشعر بالصلعة ، ونحسبها عامية وهي فصيحة . فالصلعة : جلدة الرأس انحسر عنها الشعر ، فصَلِعَ فلان ، يصلع صلعا : انحسر شعر مقدم رأسه أو وسطه .
* الصهد والصَّيهد : والصهد والصَّيهد هو الحر الشديد : والناس تقصد عادة الحرارة الصادرة عن النار المتوقدة . وصَهَدَ الحر صهدا وصَهَدانا أي اشتد .
* صوب الساقية : يقولون : فلان ذهب صوب

كذا ، وهي فصيحة فالصَّوب هو الجهة ، ومنه الجه صوبه .

* الصيص : يقولون : هـذا صيص أو بلح صيص ، إذا كـان أخضـر لم ينضـج ، وهي فصيحة . فالصيصُ والشيصُ تمر لم يتم نضجه لسوء تأبيره أو لفساد آخر أصابه . ويقال صاصت النخلة تصيص صيصـاً أي صار مـا عليهـا صيصاً .

* الصنـان والصَّنَّـة : الكلمتـان دارجتـان وفصيحتان . وفي اللغة صنّ صناً معناها : أنتنت رائحته . والصُّنان رائحة كريهة (تنتج من تراكم البول في مكانه) ، ويستعملها النـاس أيضـا لرائحة البصل .

* ضاري وضريتُ : يقولون : فلان ضاري على كذا ، أو ضريتُ على فعل كذا ، والأصل ضري به أو عليه ، ومعناها لزمه ، أو أولع به ، ومعناها أيضا اعتاده واجترأ عليه . فهي فصيحة ولا غبار عليها .

* ضبّـع : يقولـون : فـلان ضبّـع في الأمـر ؛ يقصدون أوغل في الأمر دون مراعـاة للحق . والكلمة فصيحة . فالضَّبْعُ هو الجور ويقال : فلان يضبع أي يجور ، وضبع صيغة مبالغة من ضبع ضبعا وضبعانا بمعنى جار وظلم .

* الضبة والمفتاح : نحسب الضبة عامية وهي فصيحـة . فالضبـة حديـدة عريضـة يضب بها الباب والخشب . وضبَّب الخشب ونحوه : ألبسه الحديد ، وضبب الباب ونحوه : عمل له ضبّة ، أو أغلقه بالضبّة .

* الضُّعْف وضعفان وضعّفه : يقـال في الكلام الدارج : فلان ضعفان ، بمعنى ضعيف ، وهي فصيحة ، وجمعها ضعاف . كما يقال في الكلام الدارج : فلان غاية في الضعف وهي فصيحة مثل الضُّعْف . فضَعُفَ يضعف ضَعفا وضَعَفا أي هـزل أو مرض وذهبت قـوتـه أو صحتـه . ويقولون : المرض ضعّفه بمعنى أضعفه أي جعله ضعيفا وهي فصيحة صحيحة .

* الضْنا : يقولون : يا ضناي ! والضنا غال ! بمعنى يـا ولدي ، وهي تحمـل معنى الإعـزاز . والأصـل ضنأت المرأة وغيرها ضنوا وضنـا بمعنى كثر نسلها . والضنى معناها الأولاد أو النسل . وكذلك الضنا .

* الطاجن وطْجَن لـه : يقـولـون : الطاجن وجمعها طواجن . وقد ورد في المعاجم أن الطاجن والطاجن هو المقلي . وذكر الوسيط أنها صحفة من صحاف الطعام مستديرة عالية الجوانب تتخذ من الفخـار وينضج فيهـا الطعـام في الفـرن . وقـال : انها معربـة . والمُطجَن هـو المقلي في الطاجن . يقال : قليـة مطجنـة . ويقولـون : فلان يطْجَن في الكلام ، ويعنون أن كلامه غير واضح وذا جرس خاص ، ولعلهم أخذوها عن صوت نشيش الطعام في الطاجن أثناء إنضاجه .

* الطبال : تتحـاشى كلمة الطبال بـوهم أنها عامية ، ونقول : عازف الطبل . والحقيقـة أن الطبال فصيحة ، فهو صاحب الطبل ، وهو أيضا الضارب عليه أو الماهر فيه .

* الطبق : الطبق بمعنى الإناء يؤكل فيه ، عربية فصيحة ولا حرج في استعمالها .

* طرش ، والطرش : يستعملونها في الكـلام بمعنى أصم ، وهي فصيحـة ، فطرش يطرش طرشا وطرشة معناها : ثقل سمعه ، ومعناها أيضـا تعطلت حـاسة سمعـه . والأطرش هـو الأصم ، وهي طرشاء ، والجمع طُرش

* طرطور : زيد هذا طرطور ، هكذا نقول في الكـلام الـدارج ، ونعني أنـه سـاقط النفس والهمة ، ضعيف ، وهذا هو بالضبط معناها في الفصحى ، فلا حرج في استعمـالها ، وجمعهـا طراطير .

* طفأ ، وطفْا : يقـولـون : فـلان طفـا النـار وغيرها ، أو طفّـاها (بتخفيف الهمـزة) وهي مأخوذة من طفأ وطفّأ ، ويقولون : المصباح انطفا (بتخفيف الهمزة أيضا) بمعنى خمد نوره ، وكلها فصيحـة مخففـة ولا بـأس في استعمـال التخفيف . □

في حب صقلية

الشاعر ابن حمديس

ظل مغتربا طوال حياته . لم يتخذ لنفسه وطنا على الرغم من طول بعده عنه . إنه شاعر الاغتراب والحنين الدائم إلى الوطن « عبدالجبار بن حمديس » . ولد في عام ١٠٥٥م من أصل عربي ، وكان مولده في مدينة سرقوسة الواقعة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية الايطالية ، وقد كانت آنذاك عربية !

لم يكن حال العرب في صقلية ينبىء بخير في منتصف القرن الحادي عشر والأعوام التالية . فقد سقطت مدن الجزيرة كلها في أيدي النورمان في عام ١٠٩٢ ، أي بعد ولادة ابن حمديس بسبع وثلاثين سنة . وكان سكان الجزيرة من العرب قد انقسموا إلى فريقين : منهم من انتظم في صفوف المقاومة دفاعا عن الجزيرة ، ومنهم من آثر الهجرة إلى القيروان والأندلس ومصر ، وهي المهاجر التي اتخذها النازحون أوطانا جديدة . أما ابن حمديس فقد يمم شطر الأندلس ، فذهب إلى اشبيلية تحديدا ، وكانت الأندلس آنذاك مقسمة مجزأة يحكمها ملوك الطوائف . وكان حاكم اشبيلية « المعتمد بن عباد » ، وهو رجل تمثل في شخصه رجل السياسة والشاعر والأديب ، ولم يكن غريبا ـ والحال كذلك ـ أن يزدحم قصره بشعراء ذلك العصر وأدبائه ، وحسبنا أن نذكر منهم ابن زيدون والحجام وابن وهبون .

سعد ابن حمديس بالحياة في اشبيلية ، وتكونت له صحبة من الشعراء ممن كان يعج بهم بلاط المعتمد . وكان وأصحابه يغشون مجالس اللهو والشراب على السواقي بأشبيلية ، ويشهدون مجالس أخرى تتجلى فيها فنون الغناء والرقص . وقد وجد ابن حمديس في ذلك كله امتدادا لحياة ناعمة كان يحياها في وطنه ـ صقلية ـ بعد أن ارتضى العيش في كنف المعتمد ، فأحبه وامتدحه وعدد مآثره وأثنى على جهاده وشجاعته ، ووجد فيه رجل الدولة الذي تمنى أن يقترن به اسمه . أما أشبيلية فلم تكن لتقل في جمالها وطبيعتها الساحرة وحضارتها عن مدينته التي ولد فيها : سرقوسة . فلئن توافرت له مثل هذه الظروف ، فقد أوشك أن يطمئن إلى وطن بديل .

لم يكن من شأن الأيام الجميلة أن تدوم ، فلقد فاجأت الشاعر أحداث جسام تغير معها وجه الدنيا ، وتغيرت معها أيضا نظرته إلى الحياة والناس . فالأخبار الواردة من صقلية تنبىء بأن المقاومة قد بدأت تضعف على الرغم من البسالة التي أبداها المدافعون عن الجزيرة بقيادة « ابن عباد الصقلي » ، وإن احتمال استيلاء النورمان على بلاده بات مرجحا . ولكن القائد ابن عباد غرق في

إحدى المعارك البحرية . وسقطت صقلية ، فتجرع ابن حمديس بسقوطها كأسا ظل يستشعر مرارتها على مر الأيام . اتضح ذلك في شعره وضوحا بينا . فهو لا يكف عن ذكر الوطن أيا كانت المناسبة التي يتحدث فيها . والقصيدة التالية ـ وقد نظمها وهو مشرف على الستين من عمره ـ دليل على ذلك الحنين والوجد الخالدين .

قضتْ في الصِّبا النفسُ أوطارَهَا ... وأبلغها الشيبُ إنذارها
نَعَم وأجيلت قِداح الهَوى ... عليها فَقَسّمن أعشارها
وما غَرَسَ الدهرُ في تربةٍ ... غراساً ولم يجنِ أثمارَها
فللنبيت في الحربِ آلاتها ... وأعددت للسلم أوزارها
كميتاً لها مَرَحٌ بالفتى ... إذا حثّ باللهو أدوارها
تناولها الكوبُ من دنّها ... فتحسبه كان مضمارها
وساقية زرّرت كفّها ... على عُنق الظبي أزرارها
تدير بياقوتةٍ دُرّة ... فتغمس في مائها نارها
وفتيان صدقٍ كزهرِ النجوم ... كرام النّحائزِ أحرارها
يديرونَ راحاً تفيض الكؤوسُ ... على ظُلَم الليل أنوارها
كأن لها من نسيجِ الحَباب ... شباكاً تمثّلُ أطيارها
وراهبةٍ أغلقت ديرها ... فكنّا مع الليل زُوّارها
هدانا إليها شذا قهوةٍ ... تذيعُ لأنفك أسرارها
يرى مَلِكُ اللهو فيها الهمومَ ... تثورُ فيقتلُ ثوّارها
وقد سكّنت حركاتِ الأسى ... قيانٌ تُحرّكُ أوتارها
فهذي تعانِقُ لي عودها ... وتلك تقبّل مزمارها
وراقصةٍ لقَطت رِجلها ... حساب يدٍ نَقَرت طارَها
وقضبٍ من الشمع مُصفرةٍ ... تريك من النار نوّارها
كأنّ لها عمداً صُففت ... وقد وزن العدلُ أقطارها
تقلّ الدياجي على هامها ... وتهتك بالنور أستارها
كأنّا نُسلّطُ آجالها ... عليها فتمحقُ أعمارها
ذكرتُ صقليّةَ والأسى ... يهيّج للنفس تذكارها
ومنزلةً للتصابي خلَت ... وكان بنو الظرف عُمّارها
فإن كنتُ أخرجت من جنّةٍ ... فإني أحدّثُ أخبارها
ولولا ملوحةُ ماءِ البكا ... حَسِبتُ دموعيَ أنهارها
ضحكت ابنَ عشرين من صبوةٍ ... بكيت ابنَ ستين أوزارها
فلا تعظمنّ لديك الذنوب ... فما زالَ ربّك غفّارها

الأبيات الستة الأخيرة في هذه القصيدة هي واسطة العقد ومحل اجتماع القوة إن صح التعبير ، فهي التي تقيم الوحدة بين أبياتها من أول بيت فيها إلى آخر بيت . يقول الدكتور « إحسان عباس » في كتابه : (العرب في صقلية) « وفي هذه القصيدة يريد ابن حمديس أن يجمع أمامنا

أجزاء ذكريات قديمة ، فليس من الغريب إذا جمعها مبعثرة ، لأن ذاكرته تقفز من منظر إلى آخر ، وإنما يوحد بين هذه المناظر أنها مستمدة من الماضي ومن صقلية » .

فهي من وحي الذكرى أو من تداعيات الماضي ، ومن شأن هذه التداعيات أن تقف عند كل تذكار وقفة تطول أو تقصر ، وقفة تنفث فيه حياة بما تحشد له من صور موحية نابضة . فلا بأس إذن من تعدد الوقفات ، فالشاعر يهدف من ورائها إلى رسم صورة عامة لمغاني الشباب ومجالس الأنس في وطن غابتْ عن ناظره محاسنه ، ولم يعد له أمل في أن تحضن عيناه ربوعه ومجاليه ، فالراجح أن ابن حمديس قد نظم هذه القصيدة وهو مشرف على الستين ، وكان قد ترك الخمر من جملة ما ترك من متع الشباب وفي ذلك يقول :

فرغت من الشباب فلست أرنو	إلى لهو فيشغلني الرحيق
ولا أنا في صقلية غلاما	فتلزمني لكل هوى حقوق
ليالي تُعجِلُ الأفراح كأسي	فمالي غير ريق الكأس ريق
تجنبت الغواية عن رشادٍ	كما يتجنب الكذبَ الصدوق
وإن كانت صبابات التصابي	يلوح لها على كلمي بروق

هي إذن حنين طاغ إلى شباب ضائع ووطن مفقود وذكريات تجمع بينهما على بعد العهد . على أن ابن حمديس يصر مؤكدا على أن ما ورد في القصيدة إن هو إلا « صبابات التصابي » وإن لاحت على الكلام بروق !

لقد بلغت النفس في الصبا أوطارها ، وما إن دب الشيب في شعر الرأس منذرا بالكبر حتى ألقى السلاح وأعد للسلم العدة ، فإذا كانت الشيخوخة قد حرمته من تلك الملاذ ، فلا عليه إن هو تمثلها في الذكرى . يقول : « كنا إذا جلسنا في مجلس اللهو تدور بنا ساقية وقد خضبت كفيها بالحناء وبيدها الشراب فكأنها تغمس فيه نارا ! ولا يقوم المجلس إلا بالأصدقاء وهم فتيان صدق ، تكاد الكؤوس في أيديهم تفيض نورا تبدد به ظلام الليل ، وقد كاد الحباب المتكاثر عند ارتشافها ينسج شباكا تحول بين الفقاعات وبين أن تفلت أو تطير ! تلك صورة من صور اللهو أيام كنا ننعم بالشباب ونتفيأ ظلال الوطن . وكنا نستمع في تلك المجالس إلى المغنيات وهن يداعبن الأوتار ، وتشهد الراقصة إذ تلتقط حركة ساقها نقرة الطار ، فتهتز على وقعها في تبادل رشيق بين الحركة والنغم . وانظر إلى قضب الشمع الصفراء التي تتقد رؤوسها فتحيل النار نورا ، بل هي ترفع الظلام على هاماتها حين تشيع النور في المكان ، وتهتك به أستار الظلام . على أن لهذه الشموع آجالا ، فما إن نوقدها حتى تسلط آجالها عليها لتمحق أعمارها . »

ذكرت صقلية والأسى	يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت	وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة	فإني أحدث أخبارها

كل ما تقدم من وصف تلك الليلة البديعة قد هيجته ذكرى صقلية ، فأيقظت في نفسه أدق التفاصيل وأعذب الذكريات ، ولكن أين هو من كل ذلك ! لقد أخرج - مثل آدم - من تلك الجنة ولم يبق لديه إلا أن يحدث أخبارها . □

كتاب الشهر

مكتبة العربي

بعثة الشرق الأوسط

THE MIDDLE EAST MISSION

BY ELMOR JACKSON

تأليف
إلمور جاكسون
عرض وتحليل جمال ورده

قصة أول محاولة سلمية لحل قضية الشرق الأوسط في عهدي ناصر وبن جوريون .. لماذا حدثت وكيف انتهت ؟ وهل كان ناصر حقا صلبا في تلك اللعبة التي يسقط فيها عادة كثير من المحترفين أم مجرد هاو يطمع أغرته اللعبة فخاض غمارها !

هل كانت الطريق إلى القدس سالكة أم أنها كانت لا تزال غامضة شائكة ؟

إن أطروحة السلام مقابل المصلحة مقايضة خاسرة لأن السلام وسيلة للرئيس الفلسطينية للقضية ، وليس هدفا مركزيا لها والسلام كذلك صلب كبرياء مصري وليس قضيتها الفكر المبكر

كتاب الشهر

في ربيع ١٩٥٥ وقبل أن يوجه صفعته المدوية للغرب حين اتجه إلى الكتلة الشرقية لعقد أول صفقة سلاح شيوعي إلى بلد في الشرق الأوسط ، يقال إن الرئيس عبدالناصر قد أبدى استعداده وقتها لجس نبض أي مجهود سياسي يسعى للوصول الى تسوية شاملة في المنطقة . أما قناة الاتصال التي اختارها فكانت جماعة « الكويكرز » : وهي جماعة دينية إنسانية تفترض أنها تكره الحروب وتحرم العنف ويرفض أفرادها الخدمة العسكرية . وقد عرفت هذه الجماعة خلال نشاطها « الانساني » في الشرق الاوسط من خلال دورهم الكبير بالاشراف على برامج المساعدات الدولية إلى لاجئي قطاع غزة عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ . ويبدو أن عبدالناصر كان يمر بظروف عسكرية صعبة لحاجة جيشه الماسة إلى خطة شاملة لاعادة تسليحه بالكامل وكان عبدالناصر يخشى أن لا تصل مفاوضاته مع امريكا بشأن تسليح جيشه إلى أي نتيجة . فالوصول على الأقل إلى تسوية ولو مؤقتة سيكون من مصلحة الأمن المصري كما يقول المؤلف .

علاقة جديدة قديمة

وقد بدأت علاقة عبدالناصربهذه الجماعة سنة ١٩٤٩ من خلال اشرافهم على معسكرات اللاجئين في قطاع غزة ، ولو أن هذه العلاقة مع الوطن العربي تمتد جذورها تاريخيا إلى أكثر من سبعين عاما ، حين أنشأ الكويكرز مدرسة للبنات في رام الله في فلسطين ، ومدرسة أخرى للذكور في برمانا شرقي بيروت ، ثم أنشأت بعد ذلك مدرسة للبنين في مدينة رام الله أيضا . وكانت هذه المدارس ملتقى للشباب العربي من كل الأقطار آنذاك . واستطاع خريجوها أن يتقلدوا أرفع المناصب في بلادهم بعد ذلك .

وقد تعمقت صلة عبدالناصر بهذه الجماعة خلال حصار الفالوجة حين قام أفراد هذه الجماعة وعبر قنوات الأمم المتحدة بترتيب اللقاءات بين الجانبين المصري والاسرائيلي وذلك من أجل السماح لدخول بعض الشحنات التموينية إلى سكان المناطق المعزولة بالداخل . وكان عبدالناصر وقتها رئيس الجانب المصري في تلك المحادثات .

ثم تطورت هذه الاتصالات إلى لقاءات ومناقشات عامة في أمور الدين والفلسفة والسياسة طوال فترة الستة عشر شهرا التي امضاها الكويكرز بإدارة برامج الغوث في قطاع غزة ، وقبل أن تسلم هذه المهمة رسميا إلى لجان الأمم المتحدة . إن تلك الاتصالات مع عبدالناصر والثقة المتبادلة بينهم كانت الخطوة الأولى والأساسية للاتصال بهم وعبرهم لمحاولة إيجاد تسوية سياسية شاملة في ربيع عام ١٩٥٥ .

لقد استطاعت جماعة الكويكرز اكتساب ثقة واحترام الجانبين المصري والاسرائيلي ، عربيا من خلال برنامج المساعدات للنازحين الفلسطينيين ، وصهيونيا لنفس الدور تقريبا خلال الحرب العالمية الثانية ، وما قدمته من خدمات للهاربين اليهود من الاضطهاد النازي .
وقد حاول الاسرائيليون الرسميون العاملون في أجهزة الأمم المتحدة والسفارة الاسرائيلية في

واشنطن التقرب إلى هذه الجماعة خاصة بعد وصول عضو مهم لهذه الجماعة إلى منصب رئاسة الوفد الأمريكي في الأمم المتحدة . ومناشدتهم باستمرار لجس نبض الجانب المصري عن إمكانية إيجاد تسوية سياسية بين البلدين .

ومن خلال علاقة الدكتور أحمد حسين مع ميدو زكي عميد أحد المعاهد المتخصصة بالبحوث الاجتماعية بالقاهرة ، ومن خلال علاقة الأخير الوطيدة بجماعة الكويكرز تم ترتيب اجتماع بينهم وبين السفير المصري . وقد حضر هذا الاجتماع في السفارة المصرية من جانب الكويكرز « ديلبرت ديبلوج » وهو من الذين تعرفوا على جمال عبد الناصر أثناء عمليات غزة وحصار الفالوجة . وقد جرى في هذا اللقاء استعراض للوضع السياسي في الشرق الأوسط ، وتكلم الدكتور حسين بصراحة في هذا الاجتماع موضحا أن ما يقوله هو مجرد آراء خاصة وليست بالضرورة آراء الخارجية المصرية . وقد طلب من الجماعة وضع خطة للعمل والتحرك من خلالها موضحا أنه من الصعب العمل بشكل مباشر ، ولكن ليكن ذلك من خلال قنوات غير رسمية . ومن النقاط التي أثارها الدكتور حسين امكانية اعادة بعض اللاجئين للالتحاق بعائلاتهم التي بقيت في فلسطين المحتلة ، وتوطين الآخرين في مناطق معينة داخل فلسطين ، كما يجب اعادة ترسيم الحدود وفقا لقرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين ، كما أنه لم يحبذ فكرة تدويل القدس . وقد اقترح مزيدا من الاتصال مع السيد « جاكوب بلوشتاين » أحد الشخصيات الأمريكية اليهودية المؤثرة على القيادة الاسرائيلية وكذلك مع السيد « جورج آلن » مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط ، كما أخبرهم بأن الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية المصري سوف يحضر في منتصف يوليو سنة ١٩٥٥ الاجتماع العاشر لذكرى تأسيس الأمم المتحدة المنعقد في سان فرانسيسكو . وقد توجه أربعة من قادة الكويكرز إلى جناح الدكتور فوزي في فندق الامباسادور في نيويورك في ١٥ يوليو ١٩٥٥ واجتمعوا به . وهؤلاء الأربعة هم « لويس هوسكين » ، « كولن بيل » ، « سيدني بايلي » ومؤلف هذا الكتاب السيد « إيلمور جاكسون » وقد رحب الدكتور فوزي بأي جهد سياسي تقوم به الجماعة من أجل الوصول إلى حل مناسب لمشكلة الشرق الأوسط ، وقد اقترح الدكتور فوزي إعادة بعض اللاجئين وتعويض الباقين غير الراغبين بالعودة ، ثم اقترح ضرورة إجراء تعديلات طفيفة لربط المناطق العربية بالداخل . وقد ذكر أن ذلك يتطلب اجراء شجاعا من الحكومة الاسرائيلية ، وأعلن أنه ليس لمصر أي مطامع أو مكاسب إقليمية جديدة ولا حتى في قطاع غزة .

عبر بوابة مندلبوم

وقد كشف هذا اللقاء عن نقطة جوهرية وهي ضرورة التحرك السريع ، لأن الوضع في الشرق الأوسط أصبح حرجا ومقدما على مرحلة خطيرة ما لم يسرع المجتمع الدولي بوضع حل عادل لهذه القضية . وقد تم نقل تفاصيل هذا اللقاء إلى السفير الاسرائيلي لدى الأمم المتحدة « ريجالند كيدروم » وإلى السفير الاسرائيلي في الولايات المتحدة « أباإيبان » اللذين وعدا بنقل ذلك إلى المسئولين في تل أبيب . وقد جاء الرد الاسرائيلي مرحبا بأي مسعى تقوم به بعثة خاصة من الكويكرز لامكانية استكشاف الطرق والوسائل المنوطة بالتسوية السلمية .

وقد تحركت هذه البعثة متجهة إلى الشرق الأوسط . وفي التاسع من أغسطس ١٩٥٥ عبرت هذه البعثة نقطة الحدود الفاصلة بين الجيش الاسرائيلي والجيش الأردني عبر بوابة « مندلبوم » في القدس ، حيث كان في انتظارهم أحد موظفي الخارجية الاسرائيلية ، وقام

باصطحابهم إلى فندق الملك داود وتم ابلاغ « جدعون رفائيل » أحد مساعدي وزير خارجية اسرائيل آنذاك موسى شاريت بنبأ وصول البعثة .

وعلى العشاء في فندق الملك داود تم عقد أول اجتماع ، وقد حضر من الجانب الاسرائيلي جدعون رفائيل ، وكان قد قام بمساعدة موسى شاريت بتأسيس وزارة الخارجية الاسرائيلية وتنظيمها ، وعندما اعتكف بن غوريون في النقب تاركا منصب رئاسة الوزارة قام جدعون بمساعدة شاريت في منصبه الجديد المؤقت كرئيس للوزارة الاسرائيلية ، وقد بدأ رفائيل الحديث بالتساؤل عن مدى جدية الجانب المصري وعن اهتمامات عبدالناصر الخالية . وعن ضرورة توافر الثقة في مثل هذه المناقشات . وقد أعقب هذا الاجتماع جلسة أخرى في منزل جدعون رفائيل حضرها رئيس الوزارة شاريت وآرثر لوري من الخارجية الاسرائيلية ، ومستر إليان أحد المساعدين العسكريين . وكان هذا الاجتماع الأول مع موسى شاريت الذي أبدى إدراكا وتفهما للقضايا الملوية . كما أبدى بعض الاهتمام بالمصالح الشرعية العربية وامكانية الوصول إلى ترضية مناسبة للطرفين . ثم طلب بعض التوضيحات عن المطالب المصرية . وقد أبدى استعداده بلم شمل بعض العائلات الفلسطينية ثم أوضح مدى أهمية خليج العقبة لاسرائيل .

وقد اقترح شاريت بعض الخطوات اللازمة لتحسين الجو السياسي من بينها تبادل الاسرى وتخفيف حدة التوتر في خليج العقبة،ووقف الهجمات عبر خطوط الهدنة ثم وقف الحملات الاعلامية . وفي اليوم التالي ذهبت البعثة إلى النقب لمقابلة بن غوريون وقد بدأ الحديث بالاستفسار عن جماعة الكويكرز وفلسفتهم ومعتقداتهم ثم تحدث عن البوذية وعن محادثاته مع « أونو » رئيس وزراء بورما السابق . وقد رفض في هذا اللقاء أي تنازل اقليمي من جانب اسرائيل ، بينما تحدث عن امكانية قبول الاقتراحين الأخرين المتعلقين بقضية اللاجئين . ثم أبدى استعداده للذهاب إلى أي مكان لمقابلة عبدالناصر حتى لو كان ذلك في القاهرة . وفي ختام الزيارة أبدى الجانب الاسرائيلي تأثره بهذه الجولة من المحادثات وأعرب عن أمله في استكمال هذا الحوار غير المباشر أثناء الاجتماع القادم للجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك .

ومن القدس اتجهت البعثة إلى القاهرة حيث كان في انتظارها ميلدو زكي في فندق سميراميس ثم انضم اليه السفير أحمد حسين ، ثم انتقل الجميع إلى منزل الدكتور محمودفوزي الواقع قرب الاهرامات ، وقد تم ترتيب لقاء للبعثة مع الرئيس عبدالناصر .

في مقر قيادة الثورة

وعند الساعة ٧,٤٥ مساء من يوم ٢٦ أغسطس ١٩٥٥ توجه ايلمور جاكسون بصحبة ميلدو زكي إلى مقر قيادة الثورة وقد أدخلهما الحرس الخاص إلى احدى صالات الانتظار وبعد مكالمة هاتفية وافق الرئيس عبدالناصر على مقابلة السيد جاكسون وحده .

كان هذا هو اللقاء الأول بين ناصر وجاكسون ، وقد أشاد عبدالناصر في هذا اللقاء

بالدور الانساني الذي لعبته جماعة الكويكرز في قطاع غزة ١٩٤٩ ، حيث كانت بعض الوحدات المصرية محاصرة في الفالوجة . ولهذا يكن لهم الشعب المصري كل تعاطف واحترام . ثم سأل عن انطباعات جاكسون عن جولته الأخيرة في اسرائيل وقد أبدى عبدالناصر تحفظ تجاه عودة بن غوريون من اعتكافه وتسلمه وزارة الدفاع ، فمنذ عودته تصاعدت العمليات العسكرية عبر خطوط الهدنة ثم تلاه الهجوم الاسرائيلي على غزة في ٢٨ فبراير مما جعله يفقد الثقة بالقيادة الاسرائيلية ، ومع هذا التصاعد العدواني ، لم يجد أمامه أي خيار غير الرد على هذه الاعتداءات الجديدة لأن الوضع الآن أصبح قضية شرف عسكري وكرامة وطنية . وعندما حدثه جاكسون عن تبادل الأسرى أجاب عبدالناصر بأنه ليس لدى اسرائيل أسرى مصريون ذوو أهمية عكس ما لدى مصر من أسرى اسرائيليين تهتم اسرائيل كثيرا باطلاق سراحهم . ثم أبدى الرئيس عبدالناصر اهتماما بخصوص اقتراحات اعادة التقسيم وتعديل بعض الحدود .

ثم عادت البعثة من جديد إلى تل أبيب في ٢٩ أغسطس ـ وقد رافق البعثة عند وصولها موظف خاص ـ مباشرة إلى منزل بن غوريون حسب تعليمات رئيس الوزارة موسى شاريت . وعندما وصلت البعثة إلى منزل بن غوريون كان هناك أيضا من الجانب الاسرائيلي جدعون رفائيل . وجاكوب هيرتزوج ، والكولونيل أرجون المساعد العسكري لبن غوريون ، وقد اشتكى الجانب الاسرائيلي في هذه الجلسة من تصاعد العمليات الفدائية الفلسطينية في قطاع غزة في الأيام القليلة الماضية ، مما جعل اسرائيل تفكر بشن هجوم واسع على خان يونس . وعن موقف عبدالناصر أوضحت البعثة الموقف المصري بخصوص تبادل الأسرى وعن تهديد عبدالناصر بوقف هذه المحادثات طالما استمرت الاعتداءات الاسرائيلية عبر الحدود .

وقد خرجت البعثة بانطباع إيجابي من جانب شاريت وبتشكك أكثر من جانب بن غوريون .

ولكن الأحداث تصاعدت عكس ما قدر لها ، وكانت نظرية الردع العسكري الاسرائيلي تنتهج خطة بن غوريون الذي كان يرى أن الزمن ليس في صالح اسرائيل ، وأن أي تقارب بين الدول العربية ، هو مجرد إسفين قاتل في صلب الكيان الاسرائيلي ، وكان من أنصار الضربات الانتقامية الخاطفة والمستمرة ، وقد أضاف تلميذه موشي ديان الى هذه الخطة مبدأ آخر ، وهو الضربة الوقائية المفاجئة لأي قوة عربية ، تنمو وتصبح خطرا على الوجود الاسرائيلي ، بينما كان شاريت من أنصار الدبلوماسية الهادئة باعتباره رجل الخارجية الاسرائيلية الأول . وأمام هذا التناقض في قبضة الأمن الاسرائيلي اعتكف بن غوريون في النقب للراحة والتأمل . وقد تسلم منصبه موسى شاريت ، بينما أصبح بنحاس لافون وزيرا للدفاع بالوكالة .

وقد شهدت جلسات مجلس الوزراء الاسرائيلي الكثير من الخلافات في وجهات النظر بين شاريت وبن غوريون ، وفي شهر أكتوبر نظم لافون ـ خفية عن شاريت كما يقال ـ غارة وحشية على قرية قبية في الضفة الغربية حيث كانت تابعة للأردن ، بحجة الانتقام من الفدائيين وكانت النتيجة وفاة ٦٦ مواطنا معظمهم من النساء والأطفال ، وقد تم نسف بيوتهم عليهم ، وقتلوا تحت الانقاض ، كذلك أسفرت الغارة عن ٧٥ جريحا . وقد قاد هذه الغارة الهمجية « أريل شارون » ، وعندما استفسر شاريت عن سبب عدم اطلاعه على طبيعة هذه الغارة ، أخبره لافون بأنه قد استشار مسبقا بن غوريون بخصوص ذلك . وبالنسبة لاحراز بعض التقدم في المفاوضات المصرية ـ البريطانية حول إجلاء القوات البريطانية عن مصر كان في اسرائيل وجهتا نظر حول ذلك الموضوع ، فهناك تيار يقول إن ذلك سوف يسرع من توجهات عبدالناصر

نحو الداخل لبناء وطنه ، وأن هذه الاهتمامات الداخلية ستجعله يرحب بأي تسوية مع اسرائيل . وتيلر آخر أقل تفاؤلا يقول : إن الانسحاب البريطاني سيكشف ظهر اسرائيل ، ويعرض أمنها للخطر ، لأن المواجهة ستصبح صريحة ومكشوفة بين البلدين ، وكان موسى شاريت من أنصار الرأي الأول .

ولكن الأمور تعقدت مرة أخرى بأحداث صيف ١٩٥٤ بالقاهرة عقب سلسلة الانفجارات في المؤسسات البريطانية والأمريكية وقد استطاعت أجهزة الأمن المصرية اكتشاف بعض الخلايا الصهيونية التي كانت وراء تلك الانفجارات ومدى ارتباطها بالمخابرات الاسرائيلية .

صفعة لسياسة الغرب

كل هذه التعقيدات عجلت في اتمام صفقة الاسلحة التشيكية التي كانت بمثابة صفعة قوية للسياسة الأمريكية والغربية في الشرق الأوسط .
إن إبرام هذه الصفقة كان خارج التصور الأمريكي الذي بدا عاجزا مشلولا أمام هذه الحقيقة الجديدة . وقد دافع الرئيس عبدالناصر عن هذا التوجه الجديد للكتلة الشرقية في مؤتمر صحفي أعلن فيه أنه كان قد أبلغ الولايات المتحدة بأنه سيحصل على السلاح الروسي اذا رفضت أمريكا تزويده به ، ولكن يبدو أن امريكا لم تصدق ذلك وعدته نوعا من الخداع السياسي ولكن ليس في الأمر خدعة . فمصر بحاجة الى السلاح وليس لديها خيار آخر .

كما أعلن الرئيس ناصر أنه ليس لدى مصر نوايا عدوانية تجاه اسرائيل وأن قرار الحرب ليس سهلا . وليس هناك من يقول بأنه سيغزو إسرائيل وكل ما يطالب به العرب هو حق الفلسطينيين بالحياة وحقهم بأرضهم وذلك حسب قرارات الأمم المتحدة التي صدرت قبل سبع سنوات وأن العرب ليسوا أمة عدوانية وأن التهديد قادم من الطرف الآخر .

ان مصر مشغولة ببناء نفسها ولكنها الآن ستعطي الأولوية لقضية الدفاع لأن الحروب لا تقام بالمدارس والمستشفيات والمصانع فقط بل ستكون كل هذه المؤسسات عرضة للتدمير بدون جيش يحميها .

لقد كانت الصفقة التشيكية كما قلنا صفعة للسياسة الأمريكية في المنطقة فلم تكن أمريكا تعتقد بأن مصر ستلجأ يوما الى الكتلة الشرقية ولهذا كان رد الفعل الاول هو الشعور بالصدمة والذهول ثم بدأت أمريكا بمحاولة تقليل حجم الخسائر ما أمكن .

فبعد إبرام هذه الاتفاقية اتصلت الدول الغربية الكبرى الثلاث بالاتحاد السوفيتي معلنة له بأن هذه الصفقة تخالف روح اجتماعهم الذي تم في يوليو ١٩٥٥ . ثم جاء مشروع السد العالي وأظهرت الولايات المتحدة استعدادها مع بريطانيا والبنك الدولي لتمويل هذا المشروع الضخم ولكن لأمريكا أرادت من وراء هذا التمويل عقد صفقة سياسية شاملة للشرق الأوسط فقد أرسل دالاس وزير الخارجية الأمريكية مبعوثا خاصا هو « روبرت أندرسون » الى مصر واسرائيل عارضا مساعدة مالية لاسرائيل لدفع تعويضات الى اللاجئين الفلسطينيين وخلق ازدهار اقتصادي في المنطقة

ويكون مشروع السد العالي من ضمن المخطط الاقتصادي الأمريكي للمنطقة . ولكن مهمة اندرسون لم تحرز أي تقدم يذكر .

وفي الوقت نفسه بدأت العلاقة البريطانية والفرنسية مع مصر تتدهور . فقد استاءت فرنسا من الموقف المصري المؤيد والمساند للثورة الجزائرية الأمر الذي دفعها الى زيادة شحنات الاسلحة الى اسرائيل نكاية بمصر عبدالناصر .

التأميم والحرب

وفي ١٩ يوليو أبلغ دالاس رسميا السفير أحمد حسين عن انسحاب أمريكا من خطة تمويل السد العالي . لقد كانت ضربة موجهة الى عبدالناصر ، ولكن بعد مضي أسبوع واحد ، على وصول الرد الاميركي ، جاء الرد المصري ، وعبر خطاب موجه الى الجماهير المصرية في الاسكندرية من الرئيس عبدالناصر بتأميم قناة السويس وذلك في الذكرى الرابعة لقيام الثورة المصرية . ثم جاء العدوان الثلاثي البريطاني والفرنسي والاسرائيلي على مصر بحجة الاستيلاء على قناة السويس وتأمين الملاحة الدولية .

لقد أشعل هذا العدوان المنطقة من جديد ولكن أمريكا برئاسة ايزنهاور أدانت هذا العدوان وأصرت مع روسيا على ضرورة الانسحاب الكامل للقوات المعتدية عن الأراضي المصرية . وبذلك أصيبت تلك المحاولات الصعبة للحلول السلمية في المنطقة بانتكاسة كبيرة .

ويختتم الهلمور جاكسون كتابه بنص رسالة أو مشروع رسالة كان قد كتبها موسى شاريت ليقوم جاكسون بتسليمها الى عبدالناصر ، ولكن الهجوم الاسرائيلي على غزة نسف كل هذه الاتصالات ولم تصل رسالة شاريت الى عبدالناصر . يقول شاريت في رسالته المؤرخة في ٣١ أغسطس ١٩٥٥ :

« يسعدني أن أغتنم هذه الفرصة لأجدد لكم اتصالي الشخصي بكم بعد توقف دام عدة أشهر ، جرت خلالها بعض الاحداث المؤسفة . ان رغبتنا نحو السلام والتعاون مع مصر صادقة ، ويؤسفنا أن لا تتلمس هذه الرغبة جهدا من طرفكم . وفي غياب هذا السلام الرسمي بين بلدينا ، فإن علينا جميعا أن نحترم اتفاقية الهدنة وبحزم لأن ما نشاهده الآن هو مجرد انتهاكات مستمرة لهذه الاتفاقية من قبل قواتكم المسلحة المتواجدة في قطاع غزة ، إننا نعلم جيدا مدى تأثركم بالعمل العسكري الذي قمنا به يوم ٢٨ فبراير ، ولكن ذلك جاء عقب سلسلة من الاعتداءات العسكرية المنظمة على حدودنا ، والتي نتج عنها الكثير من الدمار والقتل وتعريض أمن المواطنين للخطر . قد تبدو بعض هذه الحوادث صغيرة وتافهة في الخارج ، ولكنها بالنسبة لنا خطرة جدا ، لأنها ستخلق لنا موقفا حرجا لا يمكن التسامح معه . »

ويختتم شاريت رسالته بالحلم الاسرائيلي الدائم - حلم اللقاء العربي والمحادثات المباشرة فيقول : « بالطبع ان امكانية الاجتماع بكم وفي هذه المرحلة يعني القضاء على سوء التفاهم وسوء الظن والذي عانى بلدانا منهما الكثير . »

كلمات إسرائيلية كان من المفروض أن تصل الى عيون عبدالناصر لتقرأها وتتصفحها ولكن التاريخ يقول : إن القنابل والرصاصات الاسرائيلية كانت أسرع من البريد الاسرائيلي الرسمي في انطلاقها نحو الصدور المصرية والعيون المصرية . وكأن شاريت يريد أن يقول : هذه رسائلي الحقيقية اليكم فتصفحوها جيدا يا أعزائي . □

● لو كان الموتى يتكلمون لما أصبح التاريخ مجموعة من الأكاذيب السخيفة . (مارك توين)

من المكتبة العربية



زعيماً فلسطينياً ورائداً عربياً

تأليف : الدكتورة خيرية قاسمية

عرض : الدكتور محمد علي الفرا

ليس هناك من لا يعرف أحمد الشقيري أو من لم يسمع عنه فقد كان ملء السمع والبصر ، له في المحافل والمناسبات العربية جولات وصولات . نضاله على أرض فلسطين لا ينكره أحد ، وكفاحه في سبيل التحرير يعترف به الجميع ، وأعماله الوطنية امتدت واتسعت ، حتى غطت جميع الأقطار العربية. ولعل من أبرز أعماله التي ماتزال تشهد بمآثره رئاسته لأول لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

بمجرد أن انتقل الشقيري إلى الرفيق الأعلى ، قام الأخ خيري أبو الجبين بالاتصال بنفر من أصدقاء الفقيد الكبير الذين كان يحرص على لقائهم كلما زار الكويت . وتشكلت منهم على الفور ، لجنة لتكريم الرجل ، اعترافا بدوره الكبير في ساحة النضال الوطني . ووجدت اللجنة أن إصدار كتاب يتناول حياة الرجل وكفاحه وجهاده أفضل أنواع التكريم . وعهدت اللجنة إلى المؤرخة الفلسطينية الدكتورة خيرية قاسمية بمهمة تأليف الكتاب الذي جاء في

ستمائة وسبع وثلاثين صفحة .

يبدأ الكتاب بسيرة مفصلة لحياة الشقيري منذ ولادته في عام ١٩٠٨م . حتى وفاته عام ١٩٨٠م فيبحث في نشأته وتربيته ومراحل تعليمه ، وامتهانه المحاماة ، واشتغاله بالسياسة ، ودخوله المعترك الوطني ، ودفاعه عن الوطن وشعبه ، وما لاقاه في سبيل ذلك من اضطهاد ، ونفي من قبل حكومة الانتداب البريطاني . ويتناول الكتاب أيضا دوره في كثير من القضايا العربية ، مثل اشتراكه في التحضير لإنشاء جامعة الدول العربية ، ومساهماته في الاجتماعات التي عقدت لمناقشة القضية العربية ، وعمله كأمين عام مساعد لجامعة الدول العربية في الخمسينيات ، وندبه لرئاسة الوفد السوري في هيئة الأمم المتحدة ، ثم ممثلا للمملكة العربية السعودية في نفس هذه الهيئة الدولية . وفي التاسع عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٦٣ اختير الشقيري ليكون ممثل فلسطين في الجامعة العربية بعد وفاة ممثلها السابق أحمد حلمي عبدالباقي . ويوضح الكتاب بالتفصيل قصة إنشاء الكيان الفلسطيني ممثلا في منظمة التحرير الفلسطينية ، عقب انعقاد مؤتمر القمة العربي الأول في شهر يناير عام ١٩٦٤ . والعقبات والمشاكل التي واجهها الشقيري وهو يطوف الأقطار العربية ، ويجتمع بالجاليات الفلسطينيةفيها ، وكيف استكمل مقومات هذا الكيان ، مثل إنشاء جيش التحرير الفلسطيني ، وتشكيل المجلس الوطني الفلسطيني ، واللجنة التنفيذية ، وإذاعة فلسطين ، ومركز الأبحاث الفلسطيني ، والصندوق القومي الفلسطيني ، وافتتاح مكاتب للمنظمة في الأقطار العربيةوفي الخارج . وقد كان الشقيري وهو رأس المنظمة شعلة من النشاط المستمر ، يعمل ما وسعه العمل لما فيه خير وطنه ومنفعة شعبه ، حتى اضطرته الظروف إلى أن يقدم استقالته في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦٧ . وعلى الرغم من استقالته فإنه ظل حاملا مسؤولية وطنه ، وحاملا في فكره ووجدانه هموم شعبه إلى أن مات و قضاكما تموت الأشجار الباسقة .

ويأخذ بعض على الشقيري فرديته ، فكثيرا ما كان يتصرف بنفسه ، دون أن يستشير زملاءه أعضاء اللجنة التنفيذية بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهو لاينكر هذا ، ففي مذكراته يذكر حادثة تدل على انفراده في اتخاذ القرار ، وذلك حين انسحب من مجلس رؤساء الحكومات العربية في مايو ١٩٦٥ ، ومطالبته بفصل تونس من الجامعة على إثر تصريحات الرئيس بورقيبة في مارس ١٩٦٥ . ولما شعر بانزعاج زملائه قدم استقالته إلى المجلس الوطني الفلسطيني ، وخاطب الأعضاء قائلا : « ومن رأى اعوجاجا فليقومه ، إن الأمانة بلاء وعناء ، والجبال أبين أن يحملنها ، وأنا حاضر أن أرد الأمانة إلى الشعب ، فإنه وحده صاحبها » .

ثقافة الأديب :

تميز الشقيري بثقافته الواسعة ، فقد نشأ في بيت كان العلم شعاره ، فوالده الشيخ أسعد الشقيري من أبرز علماء الدين بفلسطين ، عمل مفتيا للجيش التركي الرابع الذي كان يقوده جمال باشا الملقب بالسفاح . وقد كان الشقيري منكبا على مكتبة أبيه القيمة ، ومواظبا على مجالس والده العلمية والثقافية . أجاد اللغة الانجليزية بعد أن درسها في مدرسة صهيون ، وأتقن العربية كتابة وخطابةوتبحر في العلوم الدينية كالفقه والتشريع والحديث ، وفي العلوم الدنيوية كالتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والاقتصاد . كان يحفظ الكثير من الأحاديث والنصوص والآيات القرآنية والأشعار ، مما ساعده على أن يكون فارس الكلمة ، وصاحب البيان .

وقد أحب الشقيري وطنه ، وتعلق به ، وهام به كهيام المحب الولهان . وكان يتغزل بفلسطين

برها وبحرها ، سهلها وغورها وجبالها ونجادها ، فهو يقول : « لقد أتاحت لي أسفاري الكثيرة أن أرى أجمل ما في هذه الدنيا من مشاهد رائعة ، ولكني كنت دائما أقيس وأفاضل ، وأشبه ، فأرى أن بقاع الجليل ، من شواطيء عكا إلى جبال صفد ، إلى وهاد طبرية ، إلى روابي الناصرة ، أجمل ما في هذا الوجود ، وأبدع ما في هذا الوجود ، ومن هنا صنع السيد المسيح أعجز معجزاته ، وأرفع عظاته » .

على الرغم من إعجاب الشقيري بخطبه التي كان يلقيها في الأمم المتحدة ، ومباهاته بقدرته الفائقة على الإقناع وإفحام الخصوم ، إلا أنه كان يرى أن ذلك لايحرر الوطن ، ولا يعيد شعبا إلى وطنه ، وعنده أن الكفاح والنضال المسلح هو وحده السبيل للتحرر . وفي هذا يقول : « إن الشعب الفلسطيني يلجأ إلى الأمم المتحدة لآخر مرة ، وأنه لايرى مناصا من حرب تحريرية لاسترداد وطنه » .

ويعلق الشقيري على جهاد شعب فلسطين ويقول : « ان ثورات هذا الشعب البطل هي التي أحبطت مشروع التقسيم ، وجعلت القضية حية في أيدي أبناء فلسطين ، فقد كان شعبنا في وطنه شعبا ثائرا ، ومقاليد الثورة بين يديه » .

والكيان الفلسطيني لامعنى له عنده إذا لم يكن قائما على تنظيم ، وقوة تسنده ، وكفاح يدعمه : « إنه تنظيم وعمل وتحرير ، إنه قوة طليعية نضالية في ميدان النضال العربي ، إنه تضحيات وبطولات ، إنه عرق لايجف ، ودمع لايكفكف ، ودم غير ضنين ، إنه أداة نضالية تمكن أهل فلسطين من النضال ، تكفل التدريب والسلاح للقادرين على حمل السلاح . . . » ويخاطب أبناء شعبه قائلا : « لست أدعوكم إلى طريق لا أسير فيه معكم ، علينا أن نسير ، وأن نسير جميعا ، فإن هلكت في الطريق فاحملوني أيها الرفاق إلى فلسطين عربية حرة مستقلة . »

ومن منطلق إيمانه المطلق بأن « الكفاح المسلح » هو طريق التحرير قام بإنشاء جيش التحرير الفلسطيني ، ليكون طليعة البذل والتضحية والعطاء . وكان دوما يصر على أن شعب فلسطين يجب أن يكون في طليعة الطليعة في حرب التحرير ، وكان تصميمه على تبني الكفاح المسلح من الأسباب التي أدت إلى صدامه مع بعض القيادات العربية .

وفي تبريره لإنشاء جيش التحرير الفلسطيني في عام ١٩٦٤ يقول الشقيري بأن قرار إنشاء هذا الجيش حتى « يؤدي دوره الطبيعي إلى جانب الجيوش العربية في تحرير فلسطين واسترداد الوطن السليب » .

وعلى الرغم من إنشاء الشقيري للجيش الفلسطيني إلا أنه كان يشيد بالعمل الفدائي ، وبخاصة بعد نكبة يونيو ١٩٦٧ ، لكنه كان يلح على ضرورة توحيد المنظمات الفدائية والمنظمات السياسية ، خوفا على العمل الفدائي من التفرقة والانقسام ، ويرى بأن جميع هذه المنظمات يجب أن تتوحد تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد بذل جهودا كثيرة ، ومساعي حقيقية من أجل هذا الهدف .

إيمانه بالعروبة :

الشقيري من الشخصيات التي آمنت بالعروبة ، وساهمت في بناء وحدتها ،ولا يوجد كتاب من كتبه إلا وفيه تمجيد للعروبة وحبها



« فإنني لم أشك يوما في جوهر الأمة العربية ، ولا في أسرار قوتها وبسالتها ، رغم ما أرى فيها من أعراض الوهن ، يبدو حينا بعد حين ، ولم تكن الأيام إلا لتزيد هذا اليقين رسوخا ، ولم تكن الحوادث إلا لتقدم دليلا يتبع الدليل لإبراز هذه الحقيقة ، ساطعة سافرة » .

وكان الشقيري من الذين يتطلعون إلى الوحدة العربية ، ويعملون في سبيلها ، وقد كان يشعر بالسعادة في كل عمل يوصل إلى أي نوع من أنواع الوحدة . وعلى الرغم من أنه كان يتطلع إلى وحدة تجمع الشعوب في دولة عربية واحدة ، إلا أنه رحب بفكرة إنشاء جامعة الدول العربية ، وعدّها خطوة نحو جمع الكلمة ، ولمّ الشمل . ولذلك نجده يستجيب لطلب الرئيس السوري شكري القوتلي الذي أوفده إلى الاسكندرية ليكون قريبا من المباحثات إلى أن يصل الوفد السوري الرسمي . وقد اشترك في اجتماعات اللجنة المكلفة بوضع ميثاق الجامعة .

وعلى الرغم من مآخذ الشقيري على الجامعة العربية إلا أنه لم يحاول أن يقلل من أهمية قيامها في التاريخ العربي المعاصر : « إن مجرد قيام جامعة الدول العربية مهما قيل في خلفيات نشوئها ونشاطاتها وإنجازاتها ، سلبا أو إيجابا ، يعتبر أكبر حدث في التاريخ العربي المعاصر ، ووجود الجامعة العربية بحد ذاته تعبير عن الكيان السياسي والقومي والحضاري للأمة العربية ، رغما عن أن الجامعة لم تحقق الكثير من طموحات الأمة العربية» .

وكان انتماء الشقيري للأمة العربية أكبر من أي انتماء إلى أي قطر من أقطارها ، يهب للدفاع عن العروبة من أي موقع ، سواء كان في الوفد السوري للأمم المتحدة أو في الوفد السعودي . يقول في الدورة الثانية عشرة للأمم المتحدة في خريف عام ١٩٥٧ التي يسميها « دورة القومية العربية » ما نصه : « وأخذت على عاتقي أن أرد عليهم (يعني وزراء خارجية الدول الغربية الكبرى) جميعا ، وأن أحمل العبء كله ، كما لو كنت أمثل الأمة العربية كلها ، وكنت صادقا في هذا الشعور أمام نفسي ، فقد فقدت وطني الصغير ، وتعاظم تعلقي بالوطن الكبير . ومن هنا أصبحت أحس أن القومية العربية قضيتي وأن الدفاع عنها مسئوليتي » .

وتجسيدا لإيمانه بالعروبة فقد كان الشقيري في كل مناسبة ، ومن كل موقع ، يتبنى القضايا العربية في هيئة الأمم المتحدة ، ويدافع عنها بحرارة وبصدق وإخلاص ، ولسنا هنا بصدد دفاعه عن قضايا الأمة العربية في المشرق والمغرب ، فهي عديدة ، لا يتسع المقام لبحثها أو ذكرها ، ويكفي القول بأن الوحدة العربية كانت عنده هوى وعقيدة ، ولذلك كان يقول عن نفسه : « أنا وحدوي الهوى والنشأة » . ويقول في أحد كتبه : « إن الوحدة - فكرا وعقيدة ودولة - هي أمل الأمة العربية ، وإذا كانت قد أصبحت من غير روح فالتبعية على الحكم العربي المعاصر ، أو معظمه » . وقال الشقيري للأمين العام للأمم المتحدة الذي لاحظ أن الشقيري في خطابه عام ١٩٦٠ بشأن قضية « موريتانيا » يتحدث عن الوحدة حديث العابد : « الوحدة عندي عبادة ، نحن شعب فلسطين ضحية فقدان الوحدة : التجزئة أشد بلاء من الاحتلال » .

هذه لمحات سريعة ، تبين بعض جوانب شخصية الشقيري ، وهي في نفس الوقت مجرد إشارات عابرة إلى بعض أنشطته وفاعلياته على المستوى الفلسطيني ، وعلى الصعيد العربي ، وعلى المسرح الدولي . لكننا في عجالة كهذه لايمكن أن نفي هذه الشخصية الكبيرة حقها من الدراسة ، كما أنه ليس في استطاعتنا عرض كل ما جاء في كتاب الدكتورة خيرية قاسمية عن الشقيري ، فهو من الكتب الكبيرة التي لايمكن عرضها بشكل واف ، ولذلك وجدنا أن من الأفضل أخذ قبسات من هذا السفر القيم . □

مكتبة العربي

مختارات

اسم الكتاب : كامب ديفيد . السياسة وصنع السلام
اسم المؤلف : وليم كوانت . ترجمة حازم صاغية
الناشر : دار المطبوعات الشرقية . بيروت
عدد الصفحات : ٤٧٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

مؤلف الكتاب هو أحد الذين ساهموا في صنع «كامب ديفيد»، ومن خلال موقعه السابق كمستشار للأمن القومي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فقد تجمعت لديه معظم التفاصيل التي لم تعلن عن أكثر الاتفاقيات أهمية في التاريخ العربي الحديث.

ويقدم الكاتب تفصيل الأحداث والاجتماعات المغلقة والاتصالات الخفية، بالإضافة إلى تحليلاته ومقابلاته مع كثيرين من أطراف النزاع العربي - الصهيوني.

□□□

اسم الكتاب : المسرح القومي والمسارح الرديفة في القطر العربي السوري.
اسم المؤلف : جان الكسان
الناشر : منشورات وزارة الثقافة / سوريا
عدد الصفحات : ٢٦٩ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

كتاب توثيقي للحركة المسرحية في سوريا خلال فترة (١٩٥٩ - ١٩٨٩). يبدؤه الكاتب بمدخل تمهيدي، يتناول فيه المراحل الأساسية للمسرح العربي في سوريا، وكيف أثرت التأثيرات المختلفة على ظهور المسرح وانتشاره، ثم يقدم الكاتب بعد ذلك عرضا لعروض المسرح القومي السوري، واستقراء هذه العروض، وممثليها ومخرجيها، ويقدم بعد ذلك تعريفا بالمراحل الأساسية في مسيرة المسرح القومي السوري. وينتقل الكاتب ليقدم الفرق الرديفة للمسرح، ثم عرضا للمسارح في سوريا، والمهرجانات المسرحية والموسيقية التي تقام بالقطر العربي السوري.

□□□

اسم الكتاب : اللؤلؤة
اسم المؤلف : جون شتاينبك / ترجمة سمير عزت نصار
الناشر : دار منارات / الأردن
عدد الصفحات : ١٠٥ صفحات من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٧

ترجمة جديدة لرائعة جون شتاينبك «اللؤلؤة» التي فاز فيها - مع أعماله الأخرى - بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٣. وعلى الرغم من أن شتاينبك منذ السطر الأول للرواية يذكر ملخصها : كيف وجدت اللؤلؤة العظيمة وكيف فقدت مرة أخرى ؟ ! على الرغم من التقرير

المفاجيء - من اللحظة الأولى للحدوتة - إلا أن الرواية لا تفقد إثارتها ولا تشويقها ولا حبكتها ، وتقدم صورة كبيرة عن جانب من حياة الفقراء وجانب من سطوة الكبار ، وبين الساحل الفقير والمدينة الكبيرة . وخلال هذا التناقض الظاهري ، تكمن معان ورموز ودلالات بالغة الثراء . ولأن شتاينبك مجهول لجيل جديد من القراء ، فإن إعادة ترجمة أعماله تثري القاريء العربي الجديد ، وتفتح له نوافذ واسعة للمعرفة والتذوق .

□□□

اسم الكتاب : خفايا التوراة وأسرار شعب « إسرائيل » .
اسم المؤلف : كمال صليبي
الناشر : دار الساقي / لندن
عدد الصفحات : ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٨

يناقش الكتاب رؤية المؤلف والباحث الجغرافي للتوراة ، والتأكد من صحة المكان الذي جرت فيه أحداث القصص التوراتية . وقد استند الباحث على النص العبري للتوراة ، وهو يناقش لغويا ، وتاريخيا ، وجغرافيا ، صحة الاعتقاد السائد حول مكان هذه القصص ووقائعها . وهو يطرح بذلك تصوراً جديداً للروايات المتباينة في التوراة .

□□□

اسم الكتاب : إرادة المعبود في حال أبي جاسم ذي الدخل المحدود
اسم المؤلف : وليد الرجيب
الناشر : دار الفارابي / بيروت
عدد الصفحات : ١٠٨ صفحات من القطع الصغير .
سنة النشر : ١٩٨٩

مجموعة قصصية جديدة للقصاص الكويتي المتميز « وليد الرجيب » . يقدم خلالها خمس قصص قصيرة . والمجموعة تقدم وجها جديدا للكاتب الذي قدم قبل ذلك مجموعتين نشرتهما نفس الدار ، وتشترك المجموعة مع أعمال الكاتب السابقة بنفس خصائص المقدرة الفنية العالية ، واللغة الرقيقة الجادة . والهم الواضح الذي يتناوله الكاتب بمقدرة ورؤية إنسانية متعاطفة ، والقلق العذب المعذب ، والتميز في الشكل والتكوين : سمتان أساسيتان في كتابات الكاتب ، يلحظهما القاريء بوضوح شديد في المجموعة الجديدة .

□□□

اسم الكتاب : كوكب الأرض
ترجمة : رءوف وصفي
الناشر : مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
عدد الصفحات : ٧١ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

ضمن إصدارات مؤسسة الكويت للتقدم العلمي - إدارة الثقافة العلمية - يأتي هذا الكتاب إضافة إلى السلسلة العلمية التي تهدف إلى تبسيط العلوم والمعارف،وتقديمها للقاريء بلغة بسيطة واضحة . يقدم الكتاب مجموعة من المعلومات عن الأرض ، قام المترجم بتجميعها من عدة مصادر ، ليقدم صورة متكاملة عن الكوكب الذي نعيش عليه ، والظواهر التي يتعرض لها ، والكائنات الطبيعية حولنا .

● جب كرامتت الشام ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت بهم شدة لم يصبروا .
(الثعالبي)

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٣٦٦

مايو ١٩٨٩

جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ ديناراً
الجائزة الثانية ٣٠ ديناراً
الجائزة الثالثة ٢٠ ديناراً
٨ جوائز تشجيعية قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الصفاة . الرمز البريدي 13008 - الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٦٦ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات إلينا هو ١٥ يونيو ١٩٨٩ . والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي والصحيح - ورقم الهاتف إن وجد .

ارفق الحل مع هذا الكوبون

كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٦

١ تعد شركة « إيزيس فيلم » أول شركة مصرية لانتاج الأفلام السينمائية ، وقد ظهرت سنة ١٩٢٦ .. ترى من كان صاحب هذه الشركة أو مؤسسها ؟ .

* عزيزة أمير
* آسيا داغر
* بدر وابراهيم لاما

٢ أي الأفلام التالية كان أطول فيلم سينمائي ناطق ؟ .

* ذهب مع الريح
* لورانس العرب
* بوابة السماء

٣ أنشئت أقدم دار للسينما في أطلنطا بولاية جورجيا الأمريكية ، ترى متى أنشئت هذه الدار ؟ .

* سنة ١٨٩٥
* سنة ١٨٧٥
* سنة ١٩١٥

٤ يعد الممثل السينمائي (سلفستر ستالون) صاحب أكبر دخل بين ممثلي السينما جميعا ، وهو الذي اشتهر بأفلام روكي .. ترى كم بلغ مجموع إيراداته من فيلم روكي (٤) ؟ .

* حوالي ١٠ ملايين دولار

• حوالي ٢٠ مليون دولار
• حوالي ٣٠ مليون دولار

أي الأفلام الثلاثة التالية كان المتفوق من حيث تكاليفه والجهود التي بذلت في سبيل إنتاجه ؟ .
• الحرب والسلام
• البؤساء
• صلاح الدين الأيوبي

أي الكتّاب التالية اسماؤهم يستأثر بأكبر عدد من الأفلام السينمائية التي اعتمدت على قصصه ؟ .
• برتراند راسل
• شكسبير
• شارلز ديكنز

الدول السبع الأولى في العالم من حيث عدد الأفلام السينمائية التي تنتجها هي التالية :
انكلترا/ فرنسا/ الولايات المتحدة/ الفلبين/ الهند/ تركيا/ اليابان .
المطلوب ترتيب هذه الدول السبع ترتيبا تنازليا . . الأكثر انتاجا فالأقل .

أين يوجد أكبر عدد من مقاعد السينما ، (بالنسبة إلى عدد السكان) ؟ .
• في جزيرة كريسماس (الميلاد)
• في جزيرة ايستر (الفصح)
• في جزيرة أسنشن (الصعود)

أين ظهر أول فيلم ناطق في التاريخ ؟ .
• أمريكا
• بريطانيا
• ألمانيا

أين توجد أضخم دار للسينما في العالم ، علما بأن هذه الدار تتسع لـ ٥٨٨٢ مقعداً ؟ .
• في لندن
• في باريس
• في نيويورك

يعد فيلم (ذهب مع الريح) الفيلم السينمائي الأول من حيث مجموع دخله أو إيراداته . . ترى كم بلغ هذا المجموع ؟ .
• حوالي ١٠٠ مليون دولار
• حوالي ٢٠٠ مليون دولار
• حوالي ٣٠٠ مليون دولار

أين عرض أول فيلم سينمائي ملون . . سنة ١٩٠٩ ؟ .
• انكلترا
• أمريكا
• فرنسا

حل مسابقة العدد ٣٦٣

فبراير ١٩٨٩

١ أ جزيرة ترينادد هي التي تصدر الاسفلت الطبيعي من بحيرة الأسفلت فيها ، وتسمى هذه البحيرة (Pitch Lake) . يبلغ عمقها نحو ٨٧ مترا ، ومحيطها ٥ر١ ، كيلومتر » .

١ ب الفرنسيون هم الذين أطلقوا اسم منفيين على جزر فوكلاند . فقد استوطنوها منذ سنة ١٧٦٤ ، باعوا ميناء لويس إلى الاسبان سنة ١٧٦٧ . وتمكن الاسبان من بسط نفوذهم سنة ١٧٧٤ .

٣ جزيرة ايستر هي الجزيرة المقصودة في السؤال ، تقع في جنوب المحيط الهادي ، إلى الغرب من ساحل أمريكا الجنوبية ، وعلى بعد (٣٧٨٠) كيلومترا من شواطيء تشيلي . اكتشفها الاميرال الهولندي (جاكوب روجفين) صبيحة عيد الفصح ، ومن ثم كانت التسمية وقد ضمتها تشيلي إلى أرضها سنة ١٨٨٨ .

٤ واشنطن دي سي عاصمة الولايات المتحدة الامريكية ، هي العاصمة التي صممت وأنشئت لكي تكون عاصمة ، وقد وضع خططها المهندس الفرنسي (بيير لانفانت) ، وذلك بتفويض من جورج واشنطن نفسه ، واشرف على أعمال التنفيذ المهندس (اندرو اليكوت) .

كانت البندقية في القرون الوسطى دولة مستقلة ، وقد بلغ من قوتها البحرية أن أصبحت امبراطورية واسعة الأرجاء ، تهابها سائر الدول ، وتخشى قوة أسطولها ، ولما كان نظام الحكم فيها دوقيا نسبة إلى الدوق (Dodge) ، وكانت جميلة بشوارعها المائية ومبانيها الأثرية ، اشتهرت باسم (بونو دوتشي) ومن أسهل ماعدل اللسان العربي هذا الاسم ، أو حرفه ، فأصبح البندقية .

٥ موناكو هي البلد الذي يفقد استقلاله في اللحظة التي يفقد فيها ولي عهده ذكرا كان أو أنثى ، وفي تلك اللحظة تصبح موناكو محمية تابعة لفرنسا ، وذلك بموجب معاهدة معقودة بين فرنسا وبين إمارة موناكو سنة ١٩١٨ م .

٧ بوليفيا هي الدولة التي فقدت أكثر من نصف مساحتها منذ نيلها الاستقلال في سنة ١٨٢٥ . ولعل أهم مافقدته ضمن تلك الأراضي التي آلت إلى جاراتها ، الصحراء الشهيرة بسماد

التترات ، صحراء اتاكاما ، وقد استولت عليها تشيلي ، ومنطقة اكر الغنية بالمطاط ، وقد أصبحت أراضي برازيلية .

جزيرة غينيا الجديدة هي التي تقع في جزر الهند الشرقية ، وتتقاسمها دولتان ، بل دولة بابوا ـ غينيا الجديدة ومقاطعة (اريان ـ جايا) التابعة لاندونيسيا .

وجزيرة هسبانيولا هي التي تقع في جزر الهند الغربية وتتقاسمها جمهوريتان هي هايتي والدومنيكان .

جزيرة تاهيتي هي كبرى جزر بولينيزيا الفرنسية ، وأهم جزيرة في المجموعة تلك تسمى جزر الجمعية التي عاش فيها جوجان ست سنوات (١٨٩٥ ـ ١٩٠١) ، وذلك نظراً لجمال الطبيعة الفائق فيها .

جزر العذارى هي التي اشترتها الولايات المتحدة من الدانمرك ، وذلك لقاء ٢٥ مليون دولار في سنة ١٩١٧ ، إنها جزء من جزر الهند الغربية ، وتقع في البحر الكاريبي .

مكاو = البرتغال
كوكس = استراليا
جزر كوك = نيوزيلندة
سفالبرد = النرويج
سنموا : الولايات المتحدة .

النشيد الملكي (أو القومي) البريطاني هو النشيد الذي احتضنته كثرة من الدول الأخرى ، الصديقة منها والعدوة ، فقد تبنته المانيا طوال قرن أو أكثر (١٨٧٠ ـ ١٩٢٢) ، واقتبسته سويسرة منذ البدء حتى سنة ١٩٦١ . □□□

الفائزون

في مسابقة العدد ٣٦٣

فبراير ١٩٨٩

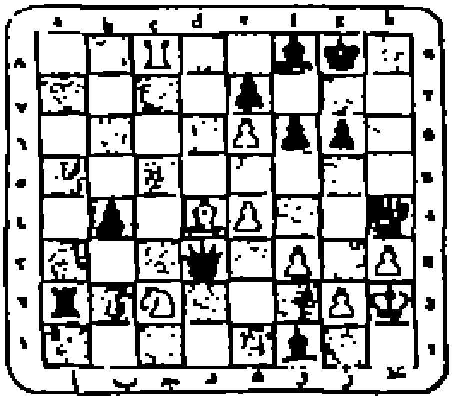
الجائزة الأولى :
محمد أحمد علي ـ المحلة الكبرى / جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثانية : دليلة بن عثمان / تونس .

الجائزة الثالثة : محمد عطية محمد نور ـ دمشق / سوريا .

[illegible]
الجوائز التشجيعية

١ ـ أبو بكر هارون عبدالرسول ـ المملكة العربية السعودية .
٢ ـ صاحب الدين عبدالهادي ـ الدار البيضاء / المغرب .
٣ ـ ياسين خضير علي الدوري ـ بغداد / الجمهورية العراقية .
٤ ـ هشام منير المزين ـ زحلة / لبنان .
٥ ـ علي سلامة عبدالله ـ طرابلس / ليبيا .
٦ ـ مها فخري فارس جبعيل ـ عمّان / الأردن .
٧ ـ ماري تاكيفا ـ اوساكا / اليابان .
٨ ـ تيسير عبدالرحمن خضر ـ ميلانو / ايطاليا .



معركة بلا سلاح

من أهم الأحداث الشطرنجية التي جرت مؤخرا على الساحة العربية ، البطولة العربية السادسة الفردية للشطرنج المقامة في الكويت من ٣١ ديسمبر - ١٥يناير ١٩٨٩ ، وقد بلغ عدد الاقطار العربية المشاركة في هذه البطولة اثنى عشر قطراً مثل كلا منها الأبطال الآتية أسماؤهم :

منصور عبدالله ونجيب محمد صالح (الامارات) حسن عبدالله (البحرين) محفوظ بودية (الجزائر) عبدالقادر عثمان (السودان) احمد عياد طه (فلسطين) احمد ابراهيم مبارك (قطر) عبدالجليل القلاف ، محمود الاستاذ ، منصور الأستاذ (الكويت) احمد النجار (لبنان) فرج مختار مهدية (ليبيا) هشام الحمدوشي (المغرب) عاصم عفيفي ، عبدالحميد العروسي (مصر) حسين نعمان (اليمن) .

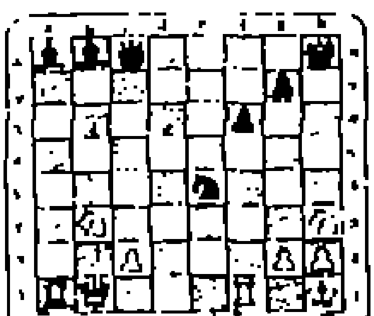
كما شارك في هذه البطولة سبع بطلات عربيات :

فريدة عبدالكريم (الامارات) مريم عير (الجزائر) هويدا حسين شبو (السودان) رانيا عباس (سوريا) هناء القبجي (الكويت) دانيال بدروسيان (لبنان) سهير بسطا (مصر) .

وقد أسفرت هذه البطولة عن تتويج اللاعبين المغربي هشام الحمدوشي وهو فتى لا يجاوز السادسة عشرة من العمر ، والمصري عبدالحميد العروسي بطلين للبطولة وحصل كل منهما على لقب استاذ دولي ، كما توجت اللاعبة المصرية سهير بسطا بطلة للفتيات ، وحصلت على لقب استاذة دولية هي ايضا . والدور التالي من الادوار المتميزة في البطولة .

□عاصم عفيفي (مصر)	■أحمد عياد طه (فلسطين)
١ . د ٤	ح - و ٦
٢ . جـ ٤	ز ٦

● مسألة العدد



(الاسود يلعب) مات ٣

من اهداء القارىء مختار الشبلي (مصر)

٣ . ح ـ جـ ٣   د ٥
٤ . جـ × د٥   ح × د ٥
٥ . هـ ٤   ح × جـ ٣
٦ . ب ×جـ ٣   جـ ٥
٧ . ف ـ هـ ٣   ف ـ ز ٧
٨ . ف ـ جـ ٤   ت
٩ . ح ـ هـ ٢   ح ـ جـ ٦
١٠ . ت   ف ـ ز ٤
١١ . و ٣   ح ـ أ ٥
١٢ . ف ـ د٣   جـ × د ٤
(تجنباً للمبادلة)
١٣ . جـ× د ٤   ف ـ هـ ٦
١٤ . و ـ أ٤   أ ٦
١٥ . و ـ ب ٤   ح ـ جـ ٦
١٦ . و ـ ب٢ (لحماية د٤) ح ـ هـ ٥
١٧ . د× هـ ٥   و× د ٣
١٨ . م ـ و٢   ر أ ـ جـ ٨
(لحماية القطعتين)

١٩ . ر (ف) ـ جـ ١   و ـ د ٧
٢٠ . أ ٤   ب ٥
٢١ . أ×ب٥   ر× جـ ١
٢٢ . ر×جـ ١   أ× ب ٥
٢٣ . ر ـ جـ ٥   ف ـ جـ ٤
٢٤ . ح ـ د ٤   ر ـ أ ٨ !
٢٥ . م ـ ز ٣   ر ـ أ ٢
(تجنباً للمخاطر)
٢٦ . و ـ جـ ٣   حـ ٥
٢٧ . حـ ٣   ف ـ و ١
٢٨ . ح ـ جـ ٢   و ـ د ١
٢٩ . و ـ هـ ١   و ـ د ٣
٣٠ . ف ـ د ٤   حـ ٤
٣١ . م ـ حـ ٢   ب ٤ ؟ (ضعيفة)
٣٢ . ر ـ جـ ٨ ! (رائعة) ف ـ و ٨
٣٣ . و× حـ ٤ !   و ٦ (مضطراً)
٣٤ . هـ ٦ !   يستسلم (لماذا ياترى ؟)
(انظر الشكل) □■□

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ . فتحي مختار المكرون ـ طرابلس/ليبيا
٢ . بابا عمر رمضان ـ غرداية/الجزائر
٣ . فرج الله مراني ـ حلب/سوريا
٤ . سمير أنور علي ـ المصورة/ج . م . ع
٥ . زينب عبد اللاوي ـ سبيطلة/تونس

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ . خالد فهد المعجل ـ السعودية/الدمام
٢ . محمد أبو بكر شريف ـ ابو ظبي/الامارات
٣ . منى فايز النمري ـ عمان/الاردن
٤ . عبد الحفيظ عمر سالم ـ عدن/اليمن الديمقراطي
٥ . منال محمد أحمد ـ الفروانية/الكويت

١ . و ـ حـ ٨ +   م × حـ ٨   ٢ . ف ـ هـ ٦ + بالكشف (مات)
إذا ١ ـ .... م ـ و ٧   ٢ . ح ـ د ٥ + بالكشف (مات)

حوار القراء

العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت

العربي تنير لنا المستقبل



الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● اطلعت على «العربي» عدد رقم ٣٦١ لشهر ديسمبر . وسعدت بما تحتويه المجلة من موضوعات مهمة لتثقيف القارىء العربي . وتنشيط حركتنا الفكرية والثقافية . على الرغم مما نعانيه من الأمية في بعض بقاع وطننا العربي .

فلم يعد مقبولا ونحن في نهاية القرن العشرين أن نفخر بحصول علم من أعلامنا على الجائزة العالمية (نوبل للاداب) في الوقت الذي يظل محو الأمية أمنية من الأمنيات الطيبة . وأنا هنا لا أتحدث فقط عن أمية القراءة والكتابة . لكني أقصد أيضا أمية الكثيرين من أبنائنا المتعلمين الذين قللوا من قيمة الثقافة العربية . وتهافتوا على الثراء المادي .

فهناك دول كثيرة قد قضت على الأمية . مثل روسيا . واستطلاع المجلة عن جورجيا السوفيتية احتوى على العديد من المعلومات التي أفادت قارىء «العربي» . فقد استطاعت أن تفتح عيوننا على الجديد في العالم . وتكاملت أدوارها فيما تنشره . فهي تفهم الحاضر وتتطلع إلى المستقبل في وقت لا تنسى فيه الماضي .

بل تتنبأ بوضع رؤية ثقافية مستقبلة . وهذا أمر يعد غاية في الأهمية . فهو الطريق للنجاح .

القارىء : يحيى السيد النجار

دمياط : جمهورية مصر العربية

□■□

العربي في أمريكا

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لا يسعني وأنا أكتب هذه الرسالة . من بلاد الغرب البعيدة . إلا أن أعبر لكم عن عظيم تقديري لمجلتكم المتميزة التي بدأت تصل بانتظام بعد انقطاع . كان مزعجا جدا لي . وليس لي فقط . بل لجميع من يشاركني قراءة «العربي» من متكلمي العربية في لوس انجلوس . حيث إنها نسخة واحدة تصلنا . لكنها تعني الكثير لكثيرين مثلي يعشقون قراءة «المجلة» منذ نعومة أظافرهم .

وأود بالمناسبة أن أبدي إعجابي الشديد بالمقالة الافتتاحية (حديث

الشهر) . والطريقة التي تعالج بها المواضيع التي تهم المواطن العربي والمراجعات لبعض الكتب الأجنبية المهمة ، كما أنني عند تجوالي بين الجاليات العربية في الولايات المتحدة ، أجد صدى واسعا لدى قراء «العربي» حول المواضيع التي تنشر ، والتي تربطهم بوطنهم الأم ، وتزيد معلوماتهم عن أقطار عربية ، ربما يجدون صعوبة ـ نتيجة لظروف مختلفة ـ لزيارتها ، فالمجلة تمثل أهمية كبرى للعرب المثقفين هنا ، والمحبين لمتابعة أخبار اقطارنا العربية .

فشكرا لكم نيابة عن جميع أبناء الجالية العربية في الولايات المتحدة الذين يقرءون «العربي» بشغف ، وإلى الأمام بمهمتكم ، وفقكم الله لمتابعة هذه الرسالة .

القارئة : ميرنا حزينة

لوس انجلوس/ الولايات المتحدة الامريكيـــــــــــة

□■□

● لقد قرأت في عدد ديسمبر (٣٦١) ١٩٨٨ من «العربي» ، في باب حوار القراء ، سؤالا من القارىء سالم الطيب ، يستفسر فيه عما ورد في مقال الدكتور عصام سامي الخالدي في العدد ٣٥٨ لشهر سبتمبر حول حقيقة المؤرخ اليوناني هيرودتس ، وهل هو طبيب أيضا حسب ماورد في هذا المقال وبمراجعتي بعض المراجع المهمة في الموضوع ، مثل «قصة الحضارة اليونانية» للمؤرخ المعاصر «ول ديورانت» ، ترجمة محمد بدران ، وجدت أن حقيقة الأمر هي أن هيرودتس كان مؤرخا شهيرا وجغرافيا أيضا ، ولم يكن طبيبا على الإطلاق . أما المقصود في مقال الدكتور الخالدي فهو الطبيب هيرودكس ، فقد كان أستاذاً للطبيب الشهير أبقراط ، وقد وضع أسس المعالجة بالغذاء والرياضة ، بدلا من الأدوية . وجميعهم عاشوا في الحقبة الزمنية نفسها ، أو فيما يسمى عصر بركليس .

القارىء : وليد خالد عثمان

حمص ـ سوريا

حوار القراء



الأستاذ الدكتور رئيس التحرير
تحية طيبة

● قرأت في العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ موضوعا حول كتاب «أسرار الفضاء» للمهندس سعد شعبان ، عرض وتقديم (رءوف وصفي) ، ذكر فيه ـ في فقرة العرب وقضية الفضاء ـ أن التاريخ سيشهد أنه في عام ١٩٨٥ لحق العرب بركب تقنية الفضاء عن طريق انطلاق القمر العربي للاتصالات ، ومشاركة الأمير سلطان بن عبدالعزيز في رحلة مكوك الفضاء الامريكي ، وأنه كان أول رائد فضاء عربي . وقد أغفل المهندس سعد شعبان في كتابه ، حسبما جاء في عرض الكتاب وتقديمه في المجلة ، ذكر رحلة مهمة مشتركة للفضاء شارك فيها رائد الفضاء العربي السوري محمد فارس زملاء طاقم من الاتحاد السوفيتي في ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٨٧ . وكنت أتمنى أن يسلط الضوء على هذه الرحلة ، كي يتعرف العرب على منجزاتهم العلمية . فقد خطا العرب خطوات واسعة في مجال التطور ومجاراة الحضارة الغربية حتى في الفضاء .

القارىء : سامر فاخوري
حلب ـ سوريا

□■□

آراء حول مقال «المسلمون المعاصرون»

تعليقا على المقال المنشور في العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ بعنوان «المسلمون المعاصرون وثقافة الغرب» وردت للمجلة رسائل كثيرة ننشر بعضها لإثراء النقاش ، ولأهمية للموضوع المطروح على المثقفين العرب ، ولتعارض الآراء حوله .

الرسالة الأولى :

● وأنا أقرأ «العربي» ، فخر كل عربي ، طالعني مقال د . فؤاد زكريا ، وأنه بحق ممتاز بما فيه من توضيح لملامح ثقافتنا العربية والإسلامية ، لي ولكثيرين من الشباب العرب أمثالي في هذه الأيام خاصة ، لمواجهة تأثير الثقافة الغربية على تراثنا الإسلامي ، والتيارات الوافدة علينا ، خصوصا ونحن معرضون لحرب من الغرب ، كالتبشير وبث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية عن طريق نشر لغات كالانجليزية والفرنسية لإعلاء شأنها وشأن اللهجات الإقليمية في محاولة لحجب اللغة

العربية ، مما يؤدي إلى فقد بعض الخصائص العربية والاسلامية ، لتحل محلها الخصائص الغربية ، وهذا واضح في النظم الدراسية في جميع مراحل التعليم ، وفي إعطاء اللغات الأجنبية أهمية على حساب اللغة العربية ، ودخول بعض الكلمات إلى لغتنا العربية . والاستشراق هو أحد المصانع الأساسية لمخططات السيطرة علينا .

القارىء : محمد مصطفى عبدالسلام
كفر الشيخ ـ جمهورية مصر العربية

الرسالة الثانية :

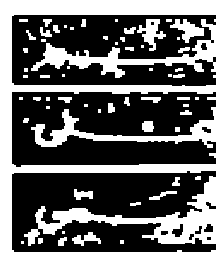
الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

●قرأت مقال الدكتور فؤاد زكريا ، وتعقيبي عليه هو أن الحضارة الغربية ـ كما يراها الدكتور زكريا في جميع مقالاته ودراساته ـ دائمة التغير ، تتخذ كل يوم موقفا جديدا ، تفاجئنا دائما بتحولات وثورات غير متوقعة في ميادين العلم والفكر والأدب .

لقد أشار الدكتور زكريا في مقاله إلى أن المدّ الاستعماري الجارف في القرن الماضي سببه الرئيسي التوسع الاقتصادي المترتب على الثورة الصناعية في أوربا ، وحاجة البلاد الصناعية الكبرى إلى مواد خام ، وإلى أسواق لتصريف منتجاتها ، ولا علاقة لنظرية التطور والارتقاء بهذا الاستعمار ، وهذا الرأي لا يمثل الحقيقة ولا يعبر عن الواقع . فقد فات الكاتب في غمرة دفاعه عن نظرية التطور والارتقاء ، وبيان موقف الاسلاميين المعاصرين فيها ، أن يبين لنا أن الاستعمار مسئول عن التخلف المعاصر الذي تعيشه مجتمعاتنا الإسلامية ، لأن كل البلدان المسماة «المتخلفة» في العالم يجرى استغلالها من قبل بلدان أخرى ، والتخلف الذي يقلق العالم اليوم هو نتاج استغلال رأسمالي امبريالي استعماري ، وقد كانت المجتمعات الافريقية والآسيوية تنمو بشكل مستقل ، حتى سيطرت عليها الرأسمالية سيطرة مباشرة أو غير مباشرة . عندما حدث ذلك ازداد الاستغلال وأعقبه أيضا تصدير الفائض ، الأمر الذي جرد تلك المجتمعات من ثمار مواردها الطبيعية وثمار العمل . ويمثل ذلك جزءاً لا يتجزأ من التخلف بمعناه المعاصر .

محمد فؤاد محمد علي
القليوبية ـ جمهورية مصر العربية

□■□



الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● لقد وصلنا العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ من مجلتكم «العربي» ، وكان كما توقعنا ، اسما على مسمى ، فقد حفل بالمواضيع الشيقة الهادفة التي قلما نشاهدها في بقية المجلات ، وقد حرصنا على متابعة مقالاتها دون أن نترك

بريد جواد الفضاء

صفحة واحدة ، آملين أن يستمر عطاؤكم الفياض ، وأن يتواصل الفكر العربي المعاصر والمعلومات العلمية والثقافية والاستطلاعات القيمة بهذه المجلة العملاقة التي من النادر أن نرى مثلها في الوطن العربي .

القارىء : مشعل الجابر
طهران ـ ايران

□■□

الموشحات حلبية أم حمصية؟

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

● في العدد رقم ٣٦١ ديسمبر ١٩٨٨ نشرتم موضوعا مهما ، وهو (الموشحات والقدود حلبية أم حمصية) للدكتور عمر موسى باشا ، وقد ذكر فيه أن هذه الموشحات التي نسمعها أكثرها من تأليف الشاعر الحمصي أمين الجندي . وقد أعجبني الموضوع المهم ، ولفت نظري إليه ، فحبذا لو توسعتم في الشرح عن هذا الشاعر الكبير وعن حياته وأهم مؤلفاته ، شاكرا اهتمامكم .

القارىء : أحمد جمال الدين ابو زيد
حلب ـ سوريا

□■□

● القارىء : محمد صغير نشيت ـ من الحديدة ، بالجمهورية العربية اليمنية ـ يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع مصور عن مدينته الجميلة التي تقع على البحر الأحمر .

● القارىء : شعبان حجاج ـ من المدينة المنورة ، بالمملكة العربية السعودية ـ يقترح أن تعرض المجلة نبذة في كل عدد ، تحتوي على تعريف بمجال تخصص كل كاتب ينشر في المجلة ، ومكان نشأته ونشاطاته المختلفة . ونحن في المجلة نقدم نبذة قصيرة عن الكتّاب الذين ينشرون في المجلة للمرة الأولى .

● القارىء : الحاج سالم عيد الهاجري النهدي ـ من جاكرتا ، اندونيسيا ـ بعث يشكر المجلة على جهودها الطيبة في نشر الثقافة العربية الإسلامية ، ويقترح زيادة كمية المعلومات والموضوعات المتعلقة بالقضايا السياسية ، وبخاصة ما يتعلق بقضية الصراع العربي ـ « الاسرائيلي » .

● القارىء : ابراهيم محمد العيسى - من حلب - سوريا يشيد بالعدد الممتاز ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ ، ويقول : إن الاستطلاع عن شعب التحديات ، الشعب الفيتنامي البطل الذي كافح وناضل دون هوادة من أجل الحرية والاستقلال ، جميل وشامل وغني بالمعلومات المفيدة ، لأننا لم نكن نعلم عنها وعن شعبها إلا القليل قبل الاطلاع عليه ، وبخاصة أن «العربي» أول مطبوعة عربية تقع عليها عيني ، تزور هذه المناطق الجميلة . ويثني على من قام بالاستطلاع .

● القارىء : صلاح سالم عبود الجابري - من حضرموت ، بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية - يشكو قلة مايصل من أعداد «المجلة» ، وأنها تنفد بسرعة . ويطالب بزيادة الكمية ، كما يقترح قيام المجلة باستطلاع عن جزر المالديف ، لكي يتعرف القراء على وضع المسلمين هناك ونشاطاتهم .

● القارىء : متوكل سيفور عبدالرحيم - من جوغو ، بجمهورية بنين الشعبية «غرب أفريقيا» - يقترح أن تفتح المجلة مكاتب لتوزيع مطبوعاتها ، ليقطف القارىء في أفريقيا من ثمارها الحلوة ، وأساليبها السامية ، كبقية المسلمين على حد تعبيره . □

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مايو ١٩٨٩ م

الاتجاهات التعصبية

تأليف
د. معتز سيد عبدالله

الكتاب ١٣٧

٥٠٠ فلس

المراسلات: باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

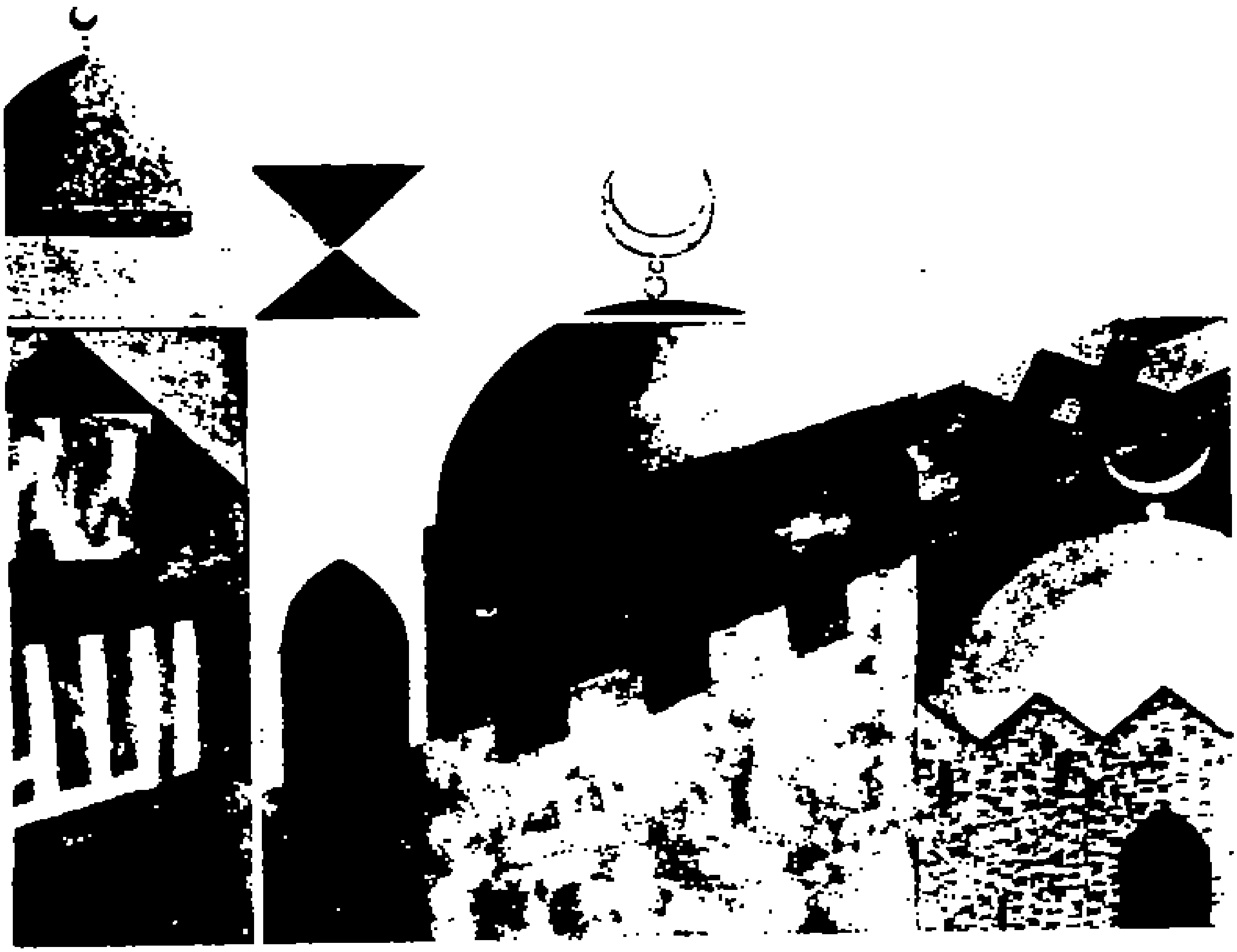
من المسرح العالمي

سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٦ أول مايو ١٩٨٩

ملكة الليل في بحر مجري

تأليف : يان سولوفيتش
ترجمة وتقديم : د. محمد العليمي
مراجعة : د. فوزي عطية



هـلال العيد

للفنان السوري رفيق اللحام